من إحدى الزوايا

يحيى حقي



مرحلة التنفيذ

ما أقسى هذا الصراع المرير فى ضمير الامة بين الصبر واللهفة على النصر ، بين المصلحة فى نسيان الماضى لينصرف الالتفات كله للحاضر والمستقبل والمصلحة فى تذكره واجتراره للاتعاظ بعبرة، بين مطالب المستقبل القريب ومطالب المستقبل البعيد واضطرار الجانبين لتبادل التضحية بينهما، فتطغى الاولى على الثانية أحيانا (كالتعجيل بنفقات التسلح) وتطغى الثانية على الاولى أحيانا (باغتيال النمو الذى كان مقررا لبعض الخدمات العامة والضمانات الاجتماعية ورفع مستوى المعيشة) وكان الخطر أن يكون هذا الصراع اذا طال مفضيا بالامة الى حالة من الركود والجمود ، مع أنها فى أشد الحاجة الى الحركة ، للتخلص من ورطتها ، الحركة لا التخبط ، فلا جدوى من هذه الحركة الا اذا انطلقت من دعامة مستقرة ، بقدر ما يكون الاستقرار فى ظروف سريعة التبدل ، وفى طريق لا تنعكس عليه العثرات السابقة أو تتكرر ، ورؤيته تزداد بالتالى وضوحا .

الدعامة المستقرة ، الطريق المأمون ، الرؤية الواضحة ـ هذا هو تفسير جهود قيادتنا السياسية منذ بيان ٣٠ مارس الى أن بلغت أوائل غاياتها بصدور قرارات مؤتمر الاتحاد الاشتراكى ، من أجل تحقيق ارادة التغيير التى عبر عنها الرأى العام بوضوح ليس بعده وضوح ، من أجل المعركة التى ينبغى أن لا يعلو عليها هم آخر ، من أجل النصر الذى لا مفر منه ، من أجل الوصول الى المجتمع الذى يعمه الرخاء وتسوده العدالة . دعامة مستقرة : اسناد أعلى سلطة الى ممثلى الامة عن طريق الانتخاب الحر على جميع مستويات الاتحاد الاشتراكى الممثل بقوى الشعب العاملة، انتهى عهد التجارب وتكشف قصور النص الجميل عند معاناة التنفيذ العملى ، الآن تحددت السلطات والاختصاصات ، ولعل هذا اليوم الذى اجتمع فيه ممثلو قوى الشعب لتولى أكبر سلطة فى الدولة قد مر دون أن نفى له كل الوفاء بحقه والحفاوة بدلالته ، فلا أبالغ اذا قلت انه كان أول مرة فى تاريخ مصر ـ بقدر ما تعيه ذاكرة الجيل المعاصر ـ تسند فيها السلطة كل السلطة الى الشعب ، فيتولى أموره بنفسه ، مالكا لارادته ، سيدا لا مسودا ، هذا هو الامل ـ اوقل هذا هو الحلم ـ الذى كان من قبل وراء كل ثورات مصر وتضحياتها ـ ها هو ذا قد تحقق ، وكما أن السلطة اسندت الى أيدى ممثلى الشعب فان تبعة الذنب لن تكون معلقة من بعد الا فى رقابهم . عليهم بعد أن نالوا الحق اعمال هذا الحق ، بعد أن ملكوا سند السلطة الانتقال بها الى حيز التنفيذ ، لا نريد أن نسمع اعذارا بأن الذى يحدث هو غير المراد ، والاخفاق هذه المرة

ليس كالمرات الســابقة فقد كانت مصحوبة بالامل فى الوصول الى ماهو أحسن ، وها نحن قد بلغنا الغاية التى ليست بعدها غاية ، فاذا كان مآلها الاخفاق فانها ستترك فراغا لا ندرى كيف نسده ، ويأسا لا ندرى كيف نداويه ،وطعنة قاتلة لثقة الشــعب بقدراته ، سنعود ونكرر بألسنتنا نحن كل عبارات التشكيك فى معدن هذا الشــعب وصدقه فى طلب الحرية وقولة الحق ورفضه للعبودية والنفاق ، التى تفضلت بهــا علينــا حشود كبيرة من أدعياء الفطنة ، غرباء وأقرباء ، من قديم ومن حديث .

وطريق مأمون بعـد أن تم بفضل عنــاق للصداقة والصراحة والجرأة والـكرامة كشف أسـباب عثرات المــاضى وتصفيتها . نتمثل بالحكمة القــائلة : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

ورؤية واضـحة بعد أن تعلمنا من الدرس المرير حكمته فارتضينا أن ينزاح الستار عن حقائق كثيرة كان يفرض علينا أن تظل فى طى الكتمان ، ليس اقلها شأنا حقيقة العدو الذى نواجهه ، الصهيونية العالمية . ان أريد لهذه الرؤية مزيد من الوضوح فلا بد من مزيد من علم الشعب بحقيقة عدوه : كما هى ، بلا مبالغة أو تهويل ، بغـير استخفاف أو زراية ، فكل الـذى تجنيه من كتمان هذه الحقيقـة بدعوى الخشية من تثبيط همـة الشعب لن يكون الا عكس ما نقصده ، نريد مواجهة العالم بالعالم لا الجاهل بالعالم . واسرائيل تعلم عنــا كل ما تريد أن تعلمه .

ان الغرض من كل ما حققناه ليس هو اتاحة الفرصة للاتحاد الاشتراكى أن يعمل فحسب بل أن تتصف أعماله بالجد وأن تبلغ سياسته أرقى مستويات السياسة ، فالامل ان لا ينساق وراء خلة شاعت عندنا مع الأسف أخيرا ، مهما يكن لها من عذر أو تبرير فانها عبث محض ، وضارة أشد الضرر فهى تقوض قدرة الشعب ، رغبته فى التصديق وتحمله على التشكيك فى كل ما يقال له .. خلة القول مثلا بضرورة حل مشكلة المواصلات فى بحر اسبوعين ، ومشكلة ازدحام الجــامعة فى شهر ، ومشكلة تنمية الصــادرات فى بحر شهرين الخ الخ ، وهى مشاكل فى علم الناس عويصة لا يختطف حلها خطفا أو سلقا بل يحتاج الرؤية متئدة لاتحثها السـيـاط ، لا نريد أن تحـدد لهذه الوعود العويصة مواعيد ، واذا حددت أن تلتزم بها ، كم من وعود بذلت بلهجة الوثوق بحل مشاكل الاداة الحكومية والروتين واللوائح ووضع لهذا الحــل آجال محـددة ، ثم اسفرت كلها عن لا شىء ..

وأن لا يتأخر الاتحاد الاشتراكى طويلا فى أن ينقل الى حيز التنفيذ كل قرار قابل للتنفيذ فورا ، فى مقدمة هذه القرارات اصدار مجموعة التشريعات التى توائم بين مصلحة الدولة زمن الحرب وضرورة حياطة حريات الفرد . أتمنى أن تحتل أنباء انتقال هذه التشريعات من مرحلة الى مرحلة مكان الصدارة بين بقية الانباء ، وأن تلقى من الدفع بها والرغبة فيه والقدرة عليه أقصى الطاقات ، لتشرق علينــا عاجلا مرحلة تنفيذ هذه القرارات ـ فهذا هو محك الامتحان

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ

قرآن كريم

بقلم : حسين ذو الفقار صبرى

مضى العام على عدوان ٥ يونيـو ، وهاك آخر يتلوه منسلا شهرا اثر شـهر ··· وقع هجوم اسرائيل الغادر بينـا كنت فى غربة ، وهزتنى الهزيمة الى الاعماق ، خاصة وأن أنباءها كانت تترامى الى متواترة من بعيـد ، فاتلقاها ممزق النفس بين انكار واذعان لقضاء بدأ ان قد حم ، يتناوحنى الأمـل والألم ، أمـل لا أكاد أتعلق به بأهداب له هى من صنع خيالات التمنى حتى أصدم مرة بعد أخرى الى ذهول ، فاتخبط فى حالة مروعة من فقدان وزن وضياع اتجاه ·

ثم وجدتنى بعد العودة الى أرض الوطن المسجى مدفوعا الى تسطير تلك التجربة المريرة القاسية فى صورة من يوميات ، لا قوام لها من موضوعية الا « موضوعية التجربة الذاتية » — ان صح هذا التعبير — وكانما النفس قادرة على أن تفصل بين حواس الادراك وأحاسيس الانفعال ، فتلف تلك بأناة وتمضى بهـا متمهلة ، ثبتة الرأى ، ناظرة حاسبة ، بينا هـذه تحز حزا اذ ينهش القلب ، وقد تفطر ، بضعة اثر بضعة ··· ترى أكان الفكر هو الذى يحرك القلم فيسجل ، أم أن الاحشـاء هى التى تضطرب فتجيش بلوعة وأنين !.

مضى عام وبضع عام ··· فربمـا أن تكون النفس قد استعادت نصابا متزوية واتزان ، فانى اذ انظر الى الوراء أكاد أشعر أن قد زال ما كان أصاب أبعاد الرؤية من انبعاج عاطفى ، وأن قد سكن الفكر الى معايير معقولة من ترابط موضوعى بين علة وسبب ، فهل آن لى اذن أن ألقى ما كان نظرة متفحصة ؟

أول ما لفت انتباهى فى أعقاب العدوان تلك الموجة الغلابة من ضراعة الى الله ، ولا غرو فهـو النصير حين لا يكون نصير ! ولكنى اتساءل أهى صادقة حقا ؟ أصادرة هى عن قلوب أفعمها الايمان فعلا ؟ أم تراها قول لسان؟أو أدهى من ذلك··· صرخة اليأس كتلك أطلقها فرعون بأن قد آمن ، وما كان ليقولها لولا أن أدركه الغرق !

ما من مكان الا وأعلقت به الآيات الكريمـة ، نراها حيثما كنت ، وأنى توجهت···فى الطرقات فى الحوانيت ، فى المكاتب ، وعلى جدران البيوت ···واحدة منها هى السباقة الى الانظار ولا منازع فنحن نعانى من آثار هزيمة نكراء ، لا يمحوها الا النصر ، نصر من الله وفتح قريب !

« ان ينصركم الله فلا غالب لـكم » ، حروف تشع بنور فى كل مكان فيلهج بهـا كل لسان ، هكذا قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وانه على وعده لحفيظ !

ولكن مهلا ! فقد أتبعها تعالى بما فيه توضيح وتحذير لمن اراد ان يتدبر فيتعظ : « وان يخذلكم فمن الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ·

فان الله لايوزع النصر جزافا ، انما هو الوعد الحق لمن استحق ! وانه لوعد حق — مافى ذلك مرية — ولكن ليس كما اعتقد من آثر أن يقعد عن السعى ··· فليس للانسان الا ما سعى !

وكأنى بنفر يتجهم فيبرطم بذلك السـؤال الاستنكارى التليد : « وهل يتخـلى الله عن المسلمين ! » ·

ولكن مهلا مهلا مرة أخرى ! بل أربع على نفسك قبل أن يجمح بك اللسان فتلويه بقـول يغوينـا بالاستكانة الى عقبى الأمور··· نحسبه من الكتاب وما هو من الكتاب ! فانمـا اختص الله برحمته

أصحاب دار الايمان ، وليس من وعد لمن عبده على حرف !

ولذا فكم انلجني أن أرى بعض تحول ـ طفيف للأسف ولكنه بدايه على كل حال ـ حين اتجه البعض الى تلك الاية الكريمة الاخرى ، واضحة المعنى لكل ذى فهم ، قصرت مداركه ام اتسعت، والتى تصور حالنا أصدق تصوير ، اذ يقول عز وجل : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

بشير بأن قد أفقنا الى جوهر الموضوع ، فان من الآيات الكريمات مالايفقه عنها المتعجل غير المتثبت ـ وانهم الجلة الغالبة ـ الا عارض معنى ، فننزهها عن أن ترفع على اللافتات وكأنها شعارات ـ وأعجب به من عصر ، مضمونه الحضارى هى اللافتات ! ـ فيها رؤى للعين فتخذأ ، بينا كان حريا بها أن تستنفر الهمم فتنشط ... تعاويذ سحرية مفعولها أكيد ـ « افتح ياسمسم ! » ـ دون ما ذريعة أو سبب ، ومثلها مقولات ومعطيات نتعلق بها وكأنها مسلمات أزلية ، صالحة لكل عصر واوان وما اختلف من ظروف مكان ، نقبع فى كنفها مستنيمين ، وكفى الله المؤمنين شر اعمال الفكر ! فان من الفكر ما يقض على المرء راحة باله فيدفع به الى عناء تقليب الأمور ، والاكباب على حساب الاحتمالات ، والسعى الى استنباط الوسائل ، والكد الكادح فى سبيل الاعداد !

***

فى عام ١٩٥٦ ارتد العدوان الثلاثى عن بلادنا مدحورا ، وكان علينا أن نستخلص لانفسنا من ذلك الحدث الخطير معانيه ودروسه ... كان نقطة تحول ضخمة فى تاريخنا ، وكانت له ردود فعل حرية بأن تقلب الموازين فى ميادين السياسة الدولية ، فترجح من كفة الشعوب فى صراعها الأبدى ضد قوى الشر والعدوان .

بدا حينذاك أن « حرب السويس » ـ كما سميت ـ قد رسمت حدا فاصلا قاطعا بين الاستعمار القديم بأساليبه المباشرة المعتمدة على التدخل العسكرى السافر وبين الاستعمار الجديد اذ يموه متخليا عن الشكل فى سبيل الاحتفاظ بالجوهر ، سالكا دروب السيطرة غير المباشرة ، متجنبا قدر الامكان ـ بل تماما ! هكذا كان الظن ... اثارة الضمير العالمى بتدخلات فظة فجة .

هكذا بدا ، ولا شك أن النتيجة التى استخلصنا ارتكزت حينذاك على واقع صلب من رؤية واضحة المعالم ، فالكتلة الاستعمارية تواجه قوة صاعدة متراصة من بلاد اشتراكية ، تقض عليها مضاجعها وتشد اليها اهتماماتها ... كتلتان كبيرتان تقف كل للأخرى بالمرصاد ، وفى العاصمتين القطبين ، واشنطن وموسكو ، رجال ذوو أنامل لا تكاد تستقر من قلق ، متحفزة للضغط على الأزرار ـ اذا ما بدرت عن الجانب الآخر بادرة سوء ـ فتنطلق قذائف السلاح النووى الرهيب ، حيث لا غالب ولا مغلوب ، وانما الانتحار الجماعى للبشرية دون تفرقة أو تمييز !

وفى ذلك الجو المكفهر من تربص وتحفز ، كمشت القوى الاستعمارية نفسها متحيرة ، فقد دال عصر احتكارها للاسلحة النووية .. كان يكفيها من قبل أن تكشر عن أنيابها فتنكص قوى الكتلة الشيوعية على أعقابها ولما أن تقدمت ـ فى ايران ، فى اليونان ، فى تركيا ، فى برلين ـ فقد كان الجنون بعينه المجازفة بمكاسب ضخمة انتزعها كفاح الاجيال !

هذا الى حين ... واذا بالولايات المتحدة تصدم صدمة العمر فى كوريا ، وهى التى اعتقدت أن قد تبوأت ، مستتبا غير مزعزع ، مركز الأمر الناهى المتصرف فى مصائر الشعوب ... ورطه مهينة اذ تكتشف فجأة أنها عاجزة عن الالتجاء الى الاسلحة النووية ـ التكتيكية منها حتى ... الا تلويحا وبقصد ارهاب ! فقد أصبح للاتحاد السوفيتى قوة نووية مضادة ـ ذاك أمر كانت عرفت به ـ ولكنها لم تتدبر الأبعاد الحقيقية لاحتمالاته الا حين جد الجد ، فيتملكها قلق وجزع ، وتزيح دون أدنى تردد عن مراكز السلطة أو القدرة العسكرية الجنرال ماك أرثر وأمثاله ممن تخيلت فيهم ميلا الى المجازفة .

صدمة لا يعرف مداها الا من تتبع عن كثب ردود الفعل فى الاوساط الامريكية الحاكمة ، وفى قطاعات واسعة من الرأى العام فى تلك البلاد ، كانت أشعرت أن العالم قد دان وأخفض لها المواطىء سهلة ، وورطة مهينة بل صدمة عنيفة ، لأن الولايات المتحدة ما كان بوسعها فى الوقت

نفسه أن تلغى بجرة قلم الرواسـخ الاساسية لاستراتيجيتها الامبريالية والا انهار صرح بنيانها الاقتصـادى ، فالهيكل الطبقى لمجتمعهـا ، ثم تنظيماتها السياسية حتى ... بل قل صـميم كيانها ان شئت !

ليس امامها اذن الا ان تجند علماءها ومفكريها وخبراءها عساهم أن يجدوا لهـا مخرجا ، بل تلافيف من دروب تدلف بهم مرة أخرى الى حيث الجادة ، الى اساسيات تلك الاستراتيجية العالمية الطموح ، لا قوام ولا تماسك لكيانهم الا بها !

هما حجرا أساس رئيسيان ، أولهما ، وسابق من حيث زمن ، تقليدى كانما ماء الحياة بالنسبة لها ، ينبثق من نصوص مبـدأ منرو ، الا وهو الحفاظ على امريكا اللاتينية «ضيعة» لا يشاركها فى استغلال ثرواتها دخيل ... الا على استحياء، وربما «خزوا للعين» فحسب، وثانيهما هو الامتداد بل النمو الطبيعى للمبدأ الاول ، أو قل هو نفسه فى صورة من توسع فى التطبيق ، اذ تضخمت امكانيات الولايات المتحدة الى قوة عالمية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فتجوب أساطيلها البحار والمحيطات وكانما تحولت جميعا الى مياه اقليمية للقارة الامريكية .

استراتيجية طموح ! وليس بدعا أن يخرج علينا كندى بـ «الآفاق المفتوحة» شعارا ، انما هى نظرة منه ثاقبة فيتخذ لواقع الامور ، بل واقع الاطماع فهو التعبير الأدق ـ العنوان الدال !

أنها اتجاهات استبطنتها السياسة الامريكية منذ خروجها مظفرة ، غير منهوكة القوى كغيرها ، من أوار الحرب العالمية الثانية ... بلاد العـالم وشعوبه جميعا آفاق مفتوحة ! الا تلك المنطقة فى قلب القارة «الأوراسية» التى وان أثخنتها المعارك الضارية مع جحافل الجيوش النـازية فهى النواة الصلبة لنظرية اجتماعية مضادة ، ومنبعثا محتملا لنوافث من رياح التغيير،حرية باخصاب اتجاهات التحرر عند كافة الشعوب ، فلتعزل اذن ! بأن تقام من حولها الأسوار ... سلسلة متصـلة الحلقات من قواعد عسـكرية ومناطق نفوذ ، احتواء كامل شـامل أو يكاد لمعسـكر الدول الاشتراكية .

ثم الصدمة ! اذ تتوصل تلك الكتلة المعزولة، رغم تخلفها السابق ، ورغم الضغوط المستمرة من حولها ، وفى غفلة من حساب ، الى السلاح النووى الرهيب ، وتفيق الولايات المتحدة ، بينما غارقة فى مغامرتها الكورية ، الى حقيقة مرة عسيرة الهضم فالآفاق التى تتطلع اليهـا ليست مفتوحة « سداح مداح » كما كانت تظن وتبغى ، وانما دون ذلك حدود معينة ، حذار من مجاوزتها والا قامرت ... ليس بحياة الكوكب وما يغص به من شعوب ـ فهذا لا يقض عليها فى كثير ـ وانمـا بصميم وجودها من ضمن !

صدمة العمـر ! وعكف خـبراؤها على الدراسة ... وبدا كان يتنازع تصرفات رجالاتها المسئولين تياران ، أولهما هو فى حقيقته ، وان حرص صاحبه على اضفاء مخايل من عبقرية على مضمونه ، مجرد رد فعل تشنجى ـ كالطفل اذا ما حرم فجأة من لعبته المفضلة ـ دفع به فوستر دلاس متباهيا الى مداه فيما أسـماه بسياسة « حافة الهاوية » ، ثم تيار آخر خبيث رصين ، تبرز معالمه فى نظرية الجنرال نورستاد الامريكى ـ قائد حلف الاطلنطى حينـذاك ـ اذ اتجهت العسكرية الامريكية ، كما يضح الآن من قرارات حلف الاطلنطى فى اجتماعه السرى بلشبونة عام ١٩٥٢ ، الى التوسع فى بناء قواتهـا التقليدية فتصبح أداة تدخل محدودة فى اطار محدود ، بعيدا عن مزالق الالتجاء الى الاسلحة النووية فى الميدان المنعزل ، أو عن توسعة جبهة التدخل فتثير جزعا متفاقما .

ويضع الجنرال نورستاد للاستراتيجية الجديدة معيارين ، قمة يسميها « العتبة » يتحتم عنـدها الالتجاء الى الاسلحة النووية ، التكتيكية أولا وكائما للتحذير ، والا فهى الحرب الشاملة ! أما فيما دون هذه القمة فيتعين على الولايات المتحدة أن تجابه المشاكل اذا ما تصاعدت أحداثها ، أو أن تصاعدت هى بها كما هو الغالب على تصرفاتها ، بما يسميه « الوقفة » ـ هى فاصل من أناة وتريث ـ فسحة من وقت فيتدبر الجانب المقابل ـ أى المعسـكر الاشتراكى ـ الأمر عسى أن يختار طريق التفاوض.

وهكذا ارتقت الولايات المتحدة بسياستها وئيدا من نطاق الانفعالات التشنجية الى مسـتوى من مرونة فائقة ، مستغلة ما تضفيه عليهـا سيادة أساطيلها على أعالى البحار من انبسـاط مجالات

الحركة ، ولكنها لا تصاعد بعمليتها الا درجة اثر درجة وبحساب ، متلفتة بين الحين والحين ، مرهفة السمع ، تقيس ما عليهـا أن تخطو من خطوات وما قد يقابل ذلك من مسافة أو جهد ، أو ما ينفسح أمام الجانب الآخر من هامش وقت لو أن قرر مقارعة التدخل أو أن يتصدى له على الأقل .

وفى ذلك الجو المحفوف بمخاطر جمة تهددت البشرية جمعاء بالدمار الشامل لو أن أزلق الحساب حتى عن غير قصد بزلة من هنا أو من هنـاك ، تحولت الحرب الباردة الى نظرية من تعايش سلمى تحظى من كلا الطـرفين باحترام قل أن حظت به حتى أدق المعاهدات نصوصـا ، ولكنه احترام فرضه أساسا تخوف كل جانب من النوايا التى يظن أن قد أضمرها الجانب الآخر .

واذا بالموازين الدقيقة تختل متقلقلة اذ يفجـر خروشوف الموقف بأزمة صواريخ كوبا !

اختلس فرصة فيتحرك بها خفية الى هناك ...

أهو عمل أقدم عليـه بعد حسـاب وأناة رصدا للاحتمالات والعواقب ؟ ان الدارس لشخصية هذا الزعيم غريب الأطوار ، واسع الحيـلة ، المتدبر أموره حتى أدق التفاصـيل اذا ما كانت المآزق ، ليشده لملامحه تلك الأخرى ، وكأنها لشخصية جد مختلفة ، فهو «الفهلوى» المهذار ، اللاعب «بالثلاث ورقات» ، حين تكون فرجة تنبسط فيها الامور .

انى أعتقد ، وهو اعتقاد أحمل وزر مسئوليته وحدى ، أن قد صدقت نية خرشوف فى الالتزام بمبادىء التعايش السلمى بل ظن أن تصرفاته أقنعت الامريكيين بصدق نيته هذه ، فماذا لو أن أختلس منهم غفلة ، فيفاجئهم بموقف يفيق بهم الى شذوذ تلك الاوضاع المتزمتة التى ما زالوا بها متمسكين ... تعايش سلمى ارتضاه الجانبان ، فما معنى الابقاء ، بل الاصرار على التمسك بتلك الترسانات الصاروخية والنووية المحيطة بالاتحاد السوفيتى ... عشرات يضغطون بها وخزا فى الاجناب ... هاك اذن قاعدة صـاروخية تحت ذقونكم » .... « وعليكم واحد ! »

وكأنى أزرى بالمداورات والمناورات السياسية أو المحاوطات الاستراتيجية الى درك من دعابات فجة ، أو أنى اهون من شأن احد أساطين السياسة العالمية فى العصر الحديث ! وحاشا أن يكون هذا قصدى ... وانما البشر بشر وان ارتقى نفر منهم الى مراتب عليا من زعامة ، فيظنهم العامة من طينة غير طينتهم ، عقولا فذة خالصة ، قد أحصنت من سقطات ، منزهة من نزق ، فى منعة من عارض نزوات ...

ثم أن روح الدعابة متأصلة فى نفسية خروشوف لا يكاد يملك القدرة على مغالبتهـا وخاصة اذا ما أحس بنفسه فى بسـطة من ثقة وأمان ، لايكاد يذكر اسمه حتى يتبادر الى الاذهان فيض من ملح ونوادر هو بطلها أو راويها ، أشهرها تصرفاته فى جلسات هيئة الأمم منذ سنوات ، حين خلع فردة حذائه القديم وراح يقرع بها المنضـدة أمامه ، استهجانا لبعض كلمات ، بينما تشع ملامحه بروح من سخرية ومرح ، وتلمع عيناه «بشقاوة» الصبى المشاكس .

هى دعابة ولا شك ، دعابة خطرة وربما فجة ، اعتقادا منه ان التعايش السلمى اصـبح حقيقة مسلما بها ، وانى لا اتصور ـ فجميع ما اقدم انما تخميناتى الخاصة ولـكن الوقائع جميعا لا تترك لى مجالا الى غيرها ـ أن خروشوف لم يستبعد ان قد يتجهم كنـدى اذ يفجؤه الموقف ، ولكنه واثق أن سوف يكون مجرد عرض ، ثم يفيق كنـدى فلا يفوته مغزى اللعبة ، فتصفى القواعد أو على الاقل تلك التى فى تركيا واليونان مقابل الصـواريخ التى فى كوبا ـ وهو اقتراح برز فعلا اذ اشتدت الأزمة ـ اقرارا لواقع التعايش السلمى ، فعـلا بعد قول .

ويذهلنى أن قد فات خروشوف تقدير الموقف من حيث بعض وطائد ارتكزت عليها مشاعر الأمن القومى فى امريكا ، وما كانت لتفوته لـولا أن تحرك بينما طغت عليه روح الدعابة ـ فانها حال كثيرا ما تسلب أشد الرجال حنـكة اتزانهـم وحصافتهم ـ فقد قذف ، دون ما تريث فيتدبر ، بغلوة من سهم تكاد أن تكون موجهة الى مقتل ! فلا غرو أن كان رد الفعل حاسما صارما ، جياشا بتحفز الى مواجهة ، وعنف المواجهة النووية حتى! وليكن ما يكون !

كثرة غالبة من المسئولين ومستشـارى كندى المقربين رأوا ـ عفوا ! فلا رؤية اذ تغيم العين بسورة من غل أو غيظ قد تعارم ـ ألجوا به أن يضرب ، وأن يضرب فورا ، الا أنه ـ صـدق من

وصفهبانه « خليقة من سليقة سياسة » (١) — عرف كيف أن يكبح من غلوائهم ، فيختار أسلوب محاصرة كوبا ، يحوم من حولهـا منذرا متوعدا ، وكأنه سيد الغـابة تجاسر دخيـل فيتهجم على المشارف الى عرينه ، ولكنه حريص مع كل على أن لا يسـد عليه المخـارج ، أن لا يحصره الى مأزم مسدود ٠٠٠ مبدأ عريق من مبـادىء السياسة الدولية : أن تترك لعدوك فرصـة التراجع ، أن لا تدفع بظهره الى الحائط ٠٠٠ فان مع اليـأس لسورة وأى سورة !

ثم هو التطبيق الرائع الفذ لنظرية «الوقفة» ، وقد مضت سنوات منذ أن شـكل نورستاد تنظيمات القوات الامريكيـة المسلحة ، وصهرها تدريبا فتصبح اداة قادرة على الاضطلاع بما تتطلبه استراتيجيته الجديدة من مهام ٠

نقطه تحول خطيرة في مجالات السياسة الدوليه افقدت نظريه التعايش السلمي توازنهـا الدقيق السابق ، فقد كشف خروشوف دون ان يدرى عن خفي الاستراتيجيه السوفيتيه ، كشف عن اوراقه فيطمئن الجانب الامريكي الى ان نواياه قد اصبحت سلميه فعلا ، منزهه من كل ميـل الى مخاطرة ، دون تقدير منه أن النظريه الامريكية تجاه التعايش السلمى كانت جد مختلفه ، اذ تسيطر عليها روح تلمس الفرص بغية اهتبال ، ليس لهـا من وازع الا حيرتها فى أين تكون قمة الخطر التى لن يتوانى الجانب السوفيتى ، ان هم تخطوها ، فيلجـأ الى السلاح ٠

وهذى سحب الحيرة قد انقشعت فجـأة ، فلا وازع ولا رادع الا أن يهدد الاتحاد السوفيتى فى عقر داره أو أن ينتهك ذمار دائرة الدول من حوله المنخرطة فى حلف وراسـو ، وينظر الامريكيون الى تلك الاشتات من وقائع ، بدت أول الأمر وكأن ليس بينهـا من روابط فيلمسون فيهـا تكاملا يتشكل بها الى صورة متماسكة واضحة المعالم ، اذن فقد كان الاتحاد السوفيتى صادقا كل الصدق فيما أعلن من التزام بمبادىء التعايش السلمى ، نابذا كل بادرة التجاء الى الاسلحة النووية ، وأن الخلاف الذى اشتد أواره بينه وبين الصـين ليس عقائديا كمـا أعلن تسترا على حقيقته أو متعللا بصدامات حضارية او منازعات جغرافية لمـا رسمه بعض معلقين — فتلك أوضاع تاريخية عميقة الجذور لم يئن بعد الأوان فتقدح شررا — انما هو صدع من حيث التخطيط الاستراتيجى وطلباته الملحة العاجلة ، اذ تنكر الاتحاد السوفيتى لوعود بذلها فيساعد الصين على الارتقاء الى مصاف الدول النووية ، تخوفا من مغامرة يقدمون عليهـا من خلف ظهورهم ٠

فقد قام « تنج هسـاو بنج » ، رئيس الوفد الصـينى فى المؤتمـر الحادى والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى المنعقد فى موسكو عام ١٦٦٠ فيتساءل متهكما ، « وماذا لو وقعت حرب نوويه! وماذا لو أبيدت شعوب بأكملها ! انها حرب ربما قضت على سكان البلاد المتقدمة صناعيا ، فتلك أهدافها الرئيسية ، ولكن لن يسعها افناء الشعب الصينى جميعا ، يكفى أن يبقى منهم النصف أو نصف النصف على قيد الحيـاة ٠٠٠ هم النواة القادرة على فرض النظام الشيوعى فيسود ٠٠٠ انها حرب مآلها ، حتى فى أسـوأ ظروفها ، الى سيادة المبادىء التى نؤمن بها جميعا ٠٠ » يقولها بلهجة من يدعوهم الى الافتخار بهذا النصر المؤزر لمبادئهم ولو ضاعت فى سـبيله أرواحهم جميعا ودمرت أوطانهم تدميرا ٠

ولست اعتقد أن كان فى نية الصـين اشعال نيران الحرب الشاملة بمجرد أن تضع يدها على السلاح النووى ، انما أن تصلب عود كتلة الدول الشيوعية فى مواجهة التهديدات الامريكية المستمرة تلوح لهم بسلاحها النووى ٠٠ ابتزازا لمغانم اثر أخرى ، أرادت الصين فيما أعتقد أن تشعرهم بأن الغرب هو المهدد بالضياع الشامل فى حالة المواجهة العسكرية فعليهـم اذن أن يكونوا أثبت جنانا فأكثر حزما ، ولكن «تنج هسـاو بنج» خانه للأسف التوفيق فأشاع ذعرا قاتلا فى نفوس اعضاء المؤتمر، وجلهم أعضاء أحزاب أوربية ، قاست بلادهم ما قاست من أهوال الحرب العالمية الثانية ٠

ونقض الاتحاد السـوفيتى اتفاقه السرى مع الصين ، فكان الصدع ! واشتد الخلاف بين البلدين فتكشفت المكامن عميقة الجذور للتناقضات بينهما،

---

(١) وجدت من العسير ترجمة التعبير الأصلى a political animal فأحتفظ له بايجازه الشديد وايحائه العميق ، الذى يذهب الى أبعد مما يوحى به نفس التعبير كما جاء به قلم « أرسطو » فى كتاباته .

حتى كادا أن ينقلبا الى عدوين لدودين ، بل اشارت الظواهر جميعا الى أن خروشوف قد بيت النية فيطرد الصين من حظيرة الكتلة الشيوعية .

ذلك الخلاف ، تلك القطيعة ، بل ذلك الانشطار هو في حد ذاته اضعاف خطير للكتلة الشيوعية ، التي كانت قد اتجهت فعلا ، في ضوء من تصرفات خروشوف خلال أزمة الصواريخ الكوبية ، الى أن تنبذ تماما فكرة الالتجاء الى الاسلحة النووية ، الا أن يهدد الاتحاد السوفيتي في مقتل !

اذن فقد كان خروشوف أيضا صادقا كل الصدق حين أعلن أن الصراع بين الكتلتين قد انصرف الى مجرد التنافس على رفع مستويات المعيشة ...

مفهوم التعايش السلمي بالنسبة للاتحاد السوفيتي تحول اذن الى سياج أو الى ستار يسدل من حول مستقر مخزونه النووي ، في حين تحولت به الولايات المتحدة الى أعلام ترفع أمام الحركة الدائبة لقواتها المسلحة بأسلحة تقليدية ... قمة الخطر عند الاتحاد السوفيتي - الحد الفاصل بين التعايش السلمي والحرب النووية - هو أن يحاول الجانب الآخر اقتحام حدود جغرافية معينة ، هي المشارف التي تكفل الأمن لقلب القارة « الأوراسية » (٢) ، وهذا يعني بالنسبة للولايات المتحدة ، ليس اعادة فتح الآفاق الى غير حدود ، وانما على الأقل اشاعة الحركة فيها فتنشط حيثما لقواتها العسكرية أو لاحتكاراتها الاقتصادية وجود . (٣)

ولقد عجبت فتحيرت اذ ضمتني ، في أوائل عام ١٩٦٦ ، ندوة الى عدد من المهتمين بشئون السياسة الدولية - عشرة أعوام بعد حرب السويس ، واربعة بعد ازمة صواريخ كوبا - فاذ تمسكا بتلك النظرية ، وكأنها مسلمة مطلقة منزهة عن كل نقد ، القائلة بأن حرب السويس قد وضعت حدا فاصلا ، لا رجعة فيه - وهل نعود عقارب الساعة الى الوراء في ضوء من حتمية حركة التاريخ ؟ - بين أساليب الاستعمار القديم وتدخلاته العسكرية السافرة وبين الاستعمار الجديد وأساليبه غير المباشرة في اقرار السيطرة ، وتاه عنهم أن حركة التاريخ انما هي الى تواليف جديدة قوامها عديد من عناصر مستمدة من أساليب قديمة .

والاسانيد التي جوبهت بها هي نفسها التي كنا توصلنا اليها عام ١٩٥٦ ، توازن نووي رهيب فلا تجسر أي من الكتلتين على الاقدام على مغامرة ربما أزلقت بالعالم ، اذ تفلت الاعصاب ، الى حرب نووية ضروس ، والمثل الصارخ الواضح ارتداد دولتين كبيرتين عن أرضنا ، منكسرتي النفس ، بفضل من مقاومة شعبية باسلة ، لم يؤازرها الضمير العالمي فحسب ، وانما التوافق أيضا بين وجهتي نظر الدولتين النوويتين الكبيرتين ... ولا توافق الا عن شعور راسخ مشترك بخطورة المغامرة فتندلع نيران الحرب النووية .

نعم ، كان هذا صحيحا عام ١٩٥٦ ، ولكن طرأت من بعد على الموقف تحولات خطيرة ، وهذى الشواهد عليه حية ملموسة ، فأسوقها ، ولكني أقابل بمن يهون من دلالاتها ، وكأنما هي رواسب سلوكية أو انتفاضات لاساليب الاستعمار القديم من « حلاوة روح » .

ربما انطبق قول القائل على التدخل الامريكي في لبنان عام ١٩٥٨ ، فهو سابق على التطورات الحيوية التي فصلت ، مجرد رد فعل اذ فوجئوا بثورة « تموز » العراقية ، فلما أن تدبروا الأمر أحجموا عن المضي بالمغامرة الى مداها .

وما كان يحق لي ، ربما ، أن استشهد بالتدخل الامريكي في سان دومنجو عام ١٩٦٥ ، فتلك منطقة لها أحكامها الخاصة ، اذ انطبعت العقلية الامريكية على تقديس نصوص مبدأ مترو .

(٢) بعد كتابة هذه السطور وقد أوشكت على الانتهاء من تحرير المسودة الأولى لهذا المقال ، واتتني أخبار التدخل السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا ، مساء العشرين من أغسطس ، مصداقا للرأى الذى ابديت ، فلا حاجة بي الى اقحام أية تعديلات ، ولكني أريد أن أنبه الى أنه حدث سوف يدفع الدول الكبرى حتما الى اعادة النظر في تكتيكاتها في ضوء من تطوراته وخاصة اذا ما أدى الى ردود فعل عنيفة أو الى عواقب اما غير متوقعة واما بعيدة الأثر ، أو كليهما معا .

(٣) ربما أن اتجه الاتحاد السوفيتي بعد عدوان ٥ يونيو ، الى اعادة النظر في هذا الخلل الذى طرأ على موازين التعايش السلمي ، ولكنها أمور لا تبين لها آثار الا بعد أمد ، حين يتكامل توفير الاستعدادات المادية الكفيلة باعادته الى نصاب .

ولكنى دفعت الى المناقشة بمثلين سافرين ، حرى بمن أراد أن لا يعتصم بموئل من نظرية ، عفت عليها تطورات الاحوال أن يعيد تقليب الأمور : التدخل الثلاثى ضد الثورة الكونغولية فى يناير من ١٩٦٥ ، وبعده بشهر واحد ، وكأنما هو التحرك السريع تطبيقا وتأكيدا لأركان نظرية استراتيجية جديدة ... بدء الغارات الجوية على أراضى فيتنام الشمالية !

فى يناير من ١٩٦٥ تهاجم ستانلى فيل – كيسنجانا الآن – بقوات مظلية بلجيكية ، تحملها طائرات أمريكية ، أقلعت بها من قواعد بريطانية! وفى فبراير – بعد أشهر قليلة من تلك الذريعة التى اختلقت فى خليج تونكين – تساقط القنابل من القاذفات الأمريكية على فيتنام الشمالية – البلد العضو فى الكتلة الشيوعية – ومتى هذا ؟ وهل بعد هذا دلالة ! بنيا كوسجين فى زيارة رسمية لهانوى !

ارتداد سافر الى أساليب الاستعمار القديم بتدخلاته العسكرية السافرة ، متحدية الرأى العام العالمى فى وقاحة وتبجح ، بل متجاسرة عبر حدود التوازن النووى الرهيب ! فلا شك اذن أن قد جدعلىالظروف الدولية جديد ، ولم تعد حرب السويس حدا فاصلا كما كان حريا بها أن تكون !

وانها لأمور لم تخف على قيادتنا السياسية ، فى حرصها البالغ على تنسم رياح التغيير فى أفق الاستراتيجية الدولية ، ولكن غفلت عنها للأسف جمهرة من مثقفين من المهتمين بشئون السياسة الدولية ، فقصروا عن توعية الرأى العام المحلى بأبعاد ذاك التحول الخطير ...

تحول خطير ارتبط بمفاهيم لنا حيوية ، لم تنعكس لها آثار فى تلك العقول المهيمنة على القيادة العامة لقواتنا المسلحة ، فقد ظلت على اعتقادها الراسخ بأن عصر التدخل الاستعمارى السافر قد ولى ، وحيث أن – وتلك مسلمة أخرى خطيرة استنامو لها – اسرائيل لن تجرأ قط على مهاجمتنا وحدها ودون معاونة صريحة مباشرة من الدول الاستعمارية الكبرى ، أو احداها على الأقل فعلينا اذن بتلك « البطيخة الصيفى » • لا هجوم من اسرائيل ! بل ولا جرأة لها فى التفكير فيه حتى ... مهما كان !

حتى الثالث من يونيو عام ١٩٦٧ ، ورغم تحذيرات رئيس الجمهورية ، ظلت قيادتنا العسكرية فى غفلتها سادرة ... وهذى تقارير عن مجموعات كبيرة من مدرعاتنا أرهقت بالمناورة المستمرة بطول الجبهة وعرضها ، ليالى وأياما ، حتى فجر الخامس من يونيو نفسه ، فاذا ما وقعت الواقعة وجدت نفسها عاجزة عن الحركة ، مشلولة ، اذ تآكلت جنازير عجلها ، خذيئة من أهداف لنيران الأعداء ، لا قدرة لها حتى على محاولة الدفاع وقدكت عيون «طواقمها» وأوهنت طاقاتهم من فرط تطواف •

تصرفات من القيادة العامة لا تفسير لها الا اعتقاد راسخ بأن العدو لن يتجاسر فيهاجم ، فلنزد اذن من الرهبة التى فى قلوبهم بهيجاء من صليل وقعقعة ، فلم نجن الا وهنا أصاب العضلات التى استعرضنا !

ونظرة الى تلك المسلمة التى ذكرت ، استنمنا لها فأودت بنا .. فمن أين جاءهم أن اسرائيل لن تهاجمنا الا اذا شاركتها فى عدوانها علينا دولة كبرى ؟

وكأنما من الضرورى أن تكون المشاركة سافرة علنية !

لم تحاول قيادتنا العسكرية التعمق فى دراسة حرب السويس ، وانما علق بذهنها أن بن جوريون رفض باصرار التورط فيها الا أن يحصل على وثيقة تضمن له اشتراك قوات بريطانيا وفرنسا الى جانبه ، وقواتهما الجوية بالذات ، حماية لأجواء اسرائيل •

وقد كان من الطبيعى ، اذ تكشفت أسرار التواطؤ الثلاثى ، أن يضغط معلقونا السياسيون على هذه النقطة بالذات ، فيعلم الرأى العام العربى بأبعاد المؤامرة ، ويطمئن ضمنا الى قوتنا الذاتية ، كرادع لاسرائيل ، ولكن هذا التركيز فى التعليق ، بل هذا الافراط الذى جاوز الحدود الموضوعية ، رسمها لنا حقيقة قائمة بذاتها ولذاتها ، وليس كما كانت فعلا مجرد وضع أملته الظروف حينذاك ، فتسدر بعقول قياداتنا العسكرية الى طمأنينة خادعة ، ويهملوا التعمق فى دراسة مرتكزات الخطة الاسرائيلية كما كانت ، سعيا الى استكناه اتجاهاتها المحتملة فى المستقبل ، وكأنما الظروف

من حولنا ثابتة مستقرة على ماهى عليه الى أبد الآبدين ، بنجوة من رياح التغيير التى يدفع بها جموح التقدم التكنولوجى ، مكتسحا أمامه كل قديم كأنما الأعاصير .

أسباب جوهرية دعت اسرائيل الى الاصرار على أن تشاركها دول كبرى فى مقامرة السويس ، أولها عامل استراتيجى حيوى - وسنرى كيف أمكنها فى عدوان يونيو أن تدرأ من خطره بالتخطيط له - تخوفا من القوة التدميرية لسلاحنا الجوى اذا ما وجه الى أهداف مكتظة بالسكان - ولا مفر ، فالرقعة الجغرافية لاسرائيل جد صغيرة - فيتحتم اذن الاعتماد على قوة من خارج قادرة على أن تشل طائراتنا عن العمل ، ثم بعد ذلك عامل نفسانى لا يلتفت اليه الا من عكف على دراسة الشخصيات الاسرائيلية الحاكمة - دراسة لا غنى عنها بأية حال - فان الفاصل بين شن الحرب أو الركون الى السلام ، حتى فيما يتعلق بالدولتين العملاقتين ، انما شعرة دقيقة متعلقة بقرار يتخذه آخر الأمر شخص فرد - مهما تضخمت أكوام التقارير ، وتنازع الرأى فرق من مستشارين - فى ضوء من موازنة بين كفتى قرار مرتبط أشد الارتباط بتكوينه النفسى بعد كل ، ورغما من الصورة البطولية التى حيكت حول بن جوريون ، وكأنه شخصية أسطورية منتزعة من أسفار الأولين ، مغوار مقدام ، نعم ، ربما هو كذلك اذا ما حزم أمره ، ولكن دون ذلك ، وفى تلك الأوقات العصيبة التى تسبق اتخاذ القرارات ، فهو فريسة للمخاوف والشكوك ، متأرجح أبدا بين آماد من تفاؤل مطلق وتشاؤم حالك بهيم ، صورة مناقضة تماما لأولئك الرجال الذين انتقلت اليهم مقاليد الأمور ، حين أعيد تشكيل الوزارة الاسرائيلية ، فيدخلها موشى ديان ومناحم بيجين ، أولهما لا يؤمن الا بالحرب ، والحرب الخاطفة المفاجئة - الحرب الوقائية كما يسميها ولكنها فى الحقيقة الهجوم الغادر الآن وفورا ! وثانيهما سفاح ، نزاع بحنين الى ذكريات مذبحة دير ياسين ...

ثم أنهما لم يقفزا الى الحكم عنوة ، وانما أتى بهما وقد اطمأنت المؤسسة السرية المهيمنة على الصهيونية العالمية - فلا شك أن مثل تلك القوة الموجهة لها وجود ، والشواهد على ذلك لا يتسع المجال هنا لتفصيلها - على أن قد أعدت العدة لمواجهة أسوأ الاحتمالات ، ان خانها التوفيق فيما خططت انتزاعا للمبادرة .

هى المؤسسة السرية المهيمنة على الصهيونية العالمية ، وليس المؤسسة العسكرية الاسرائيلية كما قيل ، اذ ليست هذه الا مجرد فرع ضمن فروع عدة، يؤتى بأفرادها أو ينحون عن مراكزهم حسبما يقتضى الحال ، فلو أن راجعنا المخططات الرامية الى مساندة اسرائيل لأذهلنا اتساع نشاطها على المستوى الدولى جميعا ، شاملا لاتجاهات شتى ، تم التنسيق بينها فى دقة بالغة .

اتجاهات لو أن تعهدتها حفنة العسكريين لانصرفت اهتماماتهم عن صميم واجباتهم، فتتحدد الحال بالقيادات الاسرائيلية الى مستويات كالتى رزئنا بها ، بل اتجاهات تقصر عنها ، ليس قدراتهم فحسب ، وانما قدرات كل من قيدت تصرفاته بقيود يفرضها الانتماء الى جنسية معينة، فلو أن كان جولدبرج ، وهو من غلاة الصهيونيين، اسرائيلى الجنسية ، لما أمكنه أن يسدى الى اسرائيل ما أسداه وهو مندوب أمريكا فى مجلس الأمن ، ومثله البارون روتشيلد،فلولا جنسيته الفرنسية، لما كان له هذا الأثر فى بلبلة الرأى العام الفرنسى، وقس على ذلك ...

الركن الركين فى تخطيطات الصهيونية العالمية أن قد نجحت ، بأساليب مستترة خبيثة من عمل دائب متصل ، فى تهيئة الضمير العالمى ، غداة العدوان ، فلا يسكت فحسب عن احتمالات تدخل الدول الكبرى ، بل نفثت فيه بذور هستيرية فيطالب ، بل أن يلح عليها بالتدخل اذا ماتطورت العمليات لغير صالح اسرائيل ، وهذى حليفة اسرائيل الكبرى ، متربصة متأهبة بأسطولها السادس ، يقتحم المياه الاقليمية العربية ويجوسها مزمجرا متوعدا ، بل يكاد أن ينساح زحفا الى سواحلنا من فرط لهفة .

ولكن ماذا عن القوات الجوية المصرية ، وقد أصبحت أقوى من ذى قبل أضعاف أضعاف ! انه الخطر القادر على تهديد كيان اسرائيل بمجرد أن

تندلع شرارة الحرب ، انه الخطر الذى لا يسمح للتدخل الأجنبى ، كما رسمت خطواته ، بفسحة من وقت ، انه الخطر الذى كان أقض مضاجع بن جوريون فيما مضى فيصر على الحصول على عون خارجى مباشر ليشل من فعاليته ابتداء ·

خطر داهم ! وأخطر منه التغاضى عن مواجهته، ولا قبل لهم به الا بتدخل من خارج ··· معادلة عويصة أقضت تفكير رجالات اسرائيل منذ ١٩٥٦، ومن هنا كان التخطيط لاستغلال طاقات تستمد من تدخل اجنبى يغلف بتستر فلا تبين له معالم ·

اتجاه متوافق تماما مع المنطق الاسرائيلى فى تحالفه الوثيق مع الامبريالية الأمريكية ··· ولكن قياداتنا العسكرية غفلت عنه ، بل لم تعن حتى بدراسة الفكر الاستراتيجى الاسرائيلى عسى أن يعرض لمخيلتها عن احتمالات هذا الأمر خاطر ·

كلا ! بل هى صورة قاطعة من « أبيض أو أسود » ··· اسرائيل لن تجرأ على المغامرة بالهجوم دون مساعدة اجنبية مباشرة ··· وجوية فى المقام الأول ! وقد رفض الرأى العام العالمى هذا الوضع فأدانه عام ١٩٥٦ ، هكذا كان وهكذا سوف يكون ··· « وبلا قلبة دماغ ! »

ولكن العالم كان قد انفعل أساسا ضد غطرسة الدولتين الكبيرتين ، وليس « حق » اسرائيل فى الرد على حملات الفدائيين (كذا ! و « البركة » فى قصور ··· بل فى الجوامع العشوائية التى ألجت بها وسائلنا الاعلامية) فهنيئا لقيادتنا العسكرية و «بطيختها الصيفى» · فما أحلاها مذاقا فى الأمسيات حين تصفو جلسات الأنس والفرفشة وقد انعدل المزاج !

أما على الجانب الآخر ، ففيض من معلومات تترى ، وخاصة تلك المستقاة من خرائط تجسسية دقيقة ··· مواقع أجهزة الرادار وتفصيلات عن أنواعها ومدى كل منها وزواياها الراصدة ، ومن ثم تحديد صارم للثغرات التى بينها ــ مخاضات ضحلة ، أى نعم !* ولكن هاك هى مراغا لمن عرف كيف أن ينهز الطريق عبرها ، ثم مواقع مطاراتنا، متخمة بصنوف وصفوف من طائرات متراصة ، براقة بالوانها الفضية فلا تمويه ، دون ما كفاية من حماية أو وقاية ، فاننا مولعون بمركزة السيطرة، وكأننا ليس من هم لأى من قادة محطاتنا الجوية سوى المباهاة بما تحت امرته ، فالاهداف أذن امام اسرائيل مكتظة بالصيد السمين الثمين ···

ومن هنا كان الاعداد المتواصل ، الممتد على مدى من سنوات ــ وقد رسمت فى أماكن متفرقة من صحراء النقب نماذج تفصيلية لقواعدنا الجوية جميعا ــ بالتدريب على طرائق الهجوم ، وافضل وسائل التدمير وأنجعها أثرا ،تدريب شاق متصل لا يفرض على الطيارين الذين هم قوام القوات الجوية الاسرائيلية فحسب ، وانما ــ بفضل من تلك النظريات التى هى من مقومات الوجود الاسرائيلى ــ على كل طيار يهودى يؤتى به من مغارب الأرض ، اكثرهم ضباط عاملون فى الجيوش الاستعمارية ، فى فترات منتظمة ، يؤدى كل منهم فريضة هى عليه موقوته ، فاذا ما أزفت الساعة استدعوا على عجل فينخرط كل منهم فى مكانه المعد من اطار مرسوم ·

معلومات تفصيلية دقيقة أمدت بها اسرائيل بسخاء ، ثم اذ تقع الواقعة تداخلات الكترونية تشوش على الاتصال حتى بين هؤلاء النفر من طيارين مصريين تمكنوا بعد الضربة الأولى القاصمة من استنقاذ بضع طائرات افلتت بقدرة قادر من سيل الطير الأبابيل التى ــ يالسخرية الاقدار ! ــ أمطرتنا بحجارة من سجيل !

كانت الضربة الأولى قاصمة ، وقيادتنا العامة فى حالة من ذهول ، لا تجد من متعلق الا تلمس فسحة من وقت فربما أن جاءتها نجده من السماء أو أن تقع معجزة ما ··· فتلجأ الى أفدح أخطائها جميعا ، اذ تخفى حقيقة الموقف عن القيادة السياسية !

وفى لحظة ظنتها من تجل ، ومض فى ذاكرتها أن انسحاب قواتنا عبر القناة عام ١٩٥٦ قد انقذ الموقف حينذاك ··· حقيقة أخرى استندت الى سالف ظروف وملابسات ، فاختزنتها بعض عقول الى ثبت من مسلمة مطلقة ، سحرية الأثر ، اكيده المفعول اذا ما تأزمت الأمور ·

ولكن أوامر الانسحاب عام ١٩٥٦ صدرت بينا قواتنا لم تكن قدحشدت هذا الحشد الذى كان

عام ١٩٦٧ فى سـيناء ، اذ احتفظ أول الأمر بجلتها لمواجهة احتمالات تدخل بريطانى فرنسى عقب تأميم القناة ، فلما أن تحركت اسرائيل ، وكأنها أقدمت على المغامرة وحيدة دون شريك ، بدأت قواتنا فى عبور القناة الى سيناء ، معتمدة على ألويتنا المتقدمة ، قليلة العدد ، المرابطة على الحدود فى تعطيـل الزحف الاسرائيلى ، ريثما يتسنى لنا الاحتشاد فالتخطيط لمواجهته فى قلب شبه الجزيرة ، عند منطقة بير روض سالم بالذات .

ثم اختلت مخططات المؤامرة الثلاثية ، فمن ناحية الحاح بل توسلات اسرائيلية الى بريطانيا ــ فالتهديد الجوى المصرى متفاقم رغم تطعيم اسرائيل بعـدد من أسراب جوية فرنسـية ــ أن تسارع بضرب المطـارات المصرية فتـدمر طائراتنـا على الأرض ، ومن ناحية أخرى حرص الاستراتيجية البريطانية على التريث حتى ننتقل بجيوشنا عبر القنـــاة ، فتحصر ولا تفلت من اطبـــاقة فكى الكماشة .

ولكن لهـوجة الفزع غلبت أناة التخطيط ، فيتعجلون اصدار الانذار المشهور ، وتبين أبعـاد التواطؤ ولما تكن كتلة قوتنا الضاربة قد عبرت ، فاذا ما صدرت الأوامر عجلى بالانسحاب لمواجهة الخطر الأكـبر ، انتظم الأمر لقواتنا ــ وقد كانت قليلة العدد نسبيا ، ثم انها بعد بعيدة عن مواقع العدو الاسرائيلى ، غير ملتحمة معه ــ فتعود من حيث أتت ، دون أن تعتسر بتزاحم أو احتشار عند المعابر ، ثم يسد مجرى القناة !

وما أدراك بأهمية القناة حينذاك ، وعند هاتين الدولتين المعتـديتين بالذات ، بل وعنـد البلدين القطبين ، اللذين اذا مـا اتفقت عاصـمتاهما فى الرأى ، فأمرهما نافذ على الحلفاء والأعداء سواء بسواء .

أن تسحب اذن القوات ... وأن يسد مـرة أخرى مجرى القناة !

قرار خطير ، خطورته البالغة فيما انطوى عليه من خرق رأى !

المبدأ الثابت للاستراتيجية المصرية القويمة، هو أن تدافع مصر عن القنـــاة ، فيكتب لكليهما السـلامة ، وليس العكس فتضيع هـذه وتلك !

المبدأ القويم ، كما أقول ، ومع ذلك فالخطر كل الخطر التشبث به على علاته مسلمة مطلقة ، فقد رأينا ، عام ١٩٥٦ ، كيف تضافرت علينا ظروف شاذة أجبرتنا على المفاضلة بينهما ، فكان القرار بالتضحية بالقناة فداء لمصر ، بل أن ملابسـات الموقف الدولى أعطتنا ، اذ ضحينا بالقناة ، سلاحا نهـدد به مقدرات دولتى العـدوان الكبيرتين فى الصميم ، فكانت نجاة مصر المنطلق الى استعادة القناة .

أما فى يونيو ١٩٦٧ فقد انطوى قرار الانسحاب على التضحية بهما جميعا ... وحفاظا على ماذا !

قرار أخرق ، زاد من خرقة نزق استحوذ على صاحبه فراح ينفث به كيفما اتفق الى كل من تهيأ له الاتصال به من وحدات ، وأكاد أجزم أن كان مسارعا به الى تلك التى كانت أقرب الى القناة ، اعتقادا منه ــ فان العلم « نورن » ! ــ ان تلك هى اسرع وسائل الانسحاب ، الأقرب فالاقرب وهكذا على التوالى ، فيا له من منطق !

وأخيرا ، ثم أخيرا بعد عـدد من سـاعات ، والحرب الحديثة انما حسابها بكسور من ثوان ، تعلم قيادتنا الميدانية بالقرار الخطير !

قرار خطير وأخرق مافيه ان لم تكن اليه حوجة أو ذريعة سـوى سانحة من جهالة ارتقت به فى ذهن صـاحبه الى مسـلمة استراتيجية أصيلة لايأتيها باطل ! وغاب عنه ، أو أنه لم يع قط ، أن القرارات الخطيرة انما هى ألمعية فكر ينفذ فجأة الى جوهر الأمور ، اذا ما اعضلت ، بفضل من دراسة شاملة سـابقة وعمق تمحيص ، وشـتان ما بين ظروف عام ١٩٥٦ وتلك التى لابست الموقف فى سيناء فى أوار شمس يونية من سنة الشؤم تلك، ١٩٦٧ ، حين تعلقت مصائر الوطن الغالى بسمادير ذهن ملتاث ، « هلوس » بأوامر انسـحاب ، راح ينفث بها الى كل اتجـاه ، فيعلم بها الاعداء فى تصنتهم الدائب على وسائل الاتصال ، قبل أن تفجأ بها ، فتذهل لها قيادة القوات فى الميدان !

أخطر ما انطوى عليـه هذا القـرار من اخطاء فادحة هو جهل صاحبه المطبق بأساسيات عمليات الانسحاب ، وخاصـة فيما يتعلق بالمدرعات فى حروب الصحراء حين تكون فى حالة اشتباك فعلى

مع عدو مهاجم ، اذ يتحتم عندئذ على الوحدات جميعا أو يكاد ، المتناثرة بطول الجبهة وعرضها ، أن تخضع فى تحركاتها لحساب دقيق أى دقة ، فتتعاشق حركة كل منها على حدة مع الصورة التكاملية لمجموع التحركات الأخرى ، ومتوقفة الحركة التالية لأى منها على ما أحرزت زميلاتها من نجاح ، أو ما يكون قد أصابها من فشل فيتدارك

انها اشبه ما تكون بحركات النغم المتآلف وترابطاته الايقاعية المتشابكة فى المتتابعات الموسيقية ، الا انها ليست هنا نقلا عن « نوتة » أحكمت تفاصيلها فيلتزم بدقائقها القائد فى الميدان ، وانما هى خطوط ايقاعية عريضة ، تجابهه خلال التنفيذ بنواشز مفاجئة ، فيقابلها فورا ، وبالمعية من بديهة ، بابتداعات - وكأنما هى مرونة تنغيمية فائقة - فيعود بهذه التنويعات المبتكرة الى الخط الايقاعى الأصيل ، أو قل انها عملية خلق فورى لتوافقات من ايقاعات مركبة متغيرة ، ولكنها مشدودة أبدا فى سعيها الى تحقيق آية من خاتمة ، هى الهدف المنشود .

انها عملية أشد ما تكون حاجة الى سيطرة مركزية صارمة - ميدانية حاضرة وليس متوارية بعيدا عن خطوط القتال - ثم الى وحدات قياداتها على علم وثيق مسبق بخطة الانسحاب ، بل بعدد من خطط انسحاب تبادلية - فليس بوسع كائن من كان التنبؤ بأى الاسباب سوف تفرض ضرورة الانسحاب - فاذا ما حزم القائد فى الميدان أمره ، أخطر قيادات الوحدات بالاسم الرمزى للخطة التى اختار تطبيقها ، محكما فى الوقت نفسه قبضته على زمامها جميعا ، موثقا بها اتصالاته كل التوثيق فيواجه تطورات الموقف المفاجئة ، أولا فأولا ، بحساب من دقائق وثوان .

ومن حق قواتنا المقاتلة علينا ، وانصافا لها ، التوقف قليلا فنتساءل عما اذا كانت القيادة العامة قد تدارست الموقف من قبل مع القيادة الميدانية ، فتعد ولو خطة انسحاب يتيمة يلجأ اليها اذا ما أحوجنا اليها الحال ، كما تفعل جميع القيادات منذ أن أصبح للحروب أصول ، فأقول فى ضوء مما رأينا وعانينا أنى إشك فى هذا كل الشك ، اذ لم يخطر للقيادة العامة قط أن سوف يعوق جيوشنا عن التقدم عائق ، بل أن قد تملكهم ايمان راسخ بأن تلك الهالة التى أخذت عليهم وقتهم فيحيكونها من حولها - أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط كما كانوا يقولون ، المدعمة بصواريخ موجهة افتنوا ، ليس فى اعدادها للعمل الجدى ، وانما فى اطلاق الأسماء عليها وفى طرائق عرضها أثناء الاحتفالات الرسمية المهيبة - هى وحدها الرادع ، كفيل بارهاب العدو فلا يتجاسر علينا ...

ثم أن عمليات الانسحاب ، حتى فى تلك الحالات التى يكون قد أحكم التخطيط لها مسبقا ، هى أخطر ما يمكن أن يواجه به قائد فى الميدان ، وخاصة اذا كانت الحرب حرب حركة على الأرض العراء ، انها المحك الحقيقى لقدراته ، فكم من اخطاء يطغى عليها فيخفيها نجاح طارىء فى حالات الهجوم ، أما فى عمليات الانسحاب فان الزلة ، ان لم تتدارك فورا تنقلب الى كارثة محققة .

النجاح الطارىء الذى تحرزه وحدة من وحدات جيش مهاجم ربما أصابت عصبا حساسا أو أشاعت عند العدو ذعرا مفاجئا ، أما النجاح الذى تصيبه وحدة من وحدات جيش منسحب فلا بد لها أن تحقق الهدف الذى رسم لها ، ثم حذار أن تجاوزه ، فى سعى مجرد الى مسابقة زمن ، أو وصولا الى موقع ربما بدا لها أفضل أو أمنع ! نعم ، فان سعيها الى مزيد من سلامة ، من حيث ظروف زمان أو مكان ، خارج دائرة التنسيق الصارم بينها وبين أوضاع الوحدات الزميلة ، ربما أفقد هذه دون أن تدرى تلك ، مرتكزا هو ضرورة لها لازمة ، فتعجز اذ يحين دورها عن الاضطلاع بما نيط بها من مهام ، وهكذا بالتبادل وعلى التوالى .

ويمكن أن يقال بصفة عامة ، وفى صورة من تبسيط ، ان أول واجبات القائد حين يتقرر الانسحاب ، هو توجيه عدد من وحداته الامامية الى حيث الخطر ، فيدفع بها الى هجمات شبه انتحارية ، كسبا للوقت ، بينا يتحتم على مؤخرة جيشه ان تستمسك بمواقعها فلا تتزحزح عنها مهما كانت الظروف ، الى أن تتعداها قوات زميلة ، وظيفتها احتلال مواقع دفاعية الى الخلف منها ، فاذا توطدت فيها أصبحت هى المؤخرة الجديدة ، ومن ثم مرتكزا

لانسحاب تلك القوات التى كانت من قبل هى المؤخرة .

مؤخرة الجيش اذن ، اذ تطفر بها الى الخلف وحدات تلو أخرى فى اتساق تبادلى متواتر ، هى الركيزة الوطيدة للجيش المنسحب ، ليس فقط من حيث أنها مستلزمة مادية لاغنى عنها ، ولكن لأنها أيضا من دعائم الروح المعنوية ، والتى هى عرضه لأن يعصف بها مجرد الشعور بأن الجيش قد فرض عليه التخلى عن مواقعه الاصلية ، تراجعا امام هجمات لا قبل له بأن يثبت فيتصدى لها ، أما فى معركتنا هذه فأى هزة نفسية ، حرية بأن تقوض الروح المعنوية من أساس ، اذ أدخل فى روع قواتنا أن ، اذا هى ما انتوت ، فالطريق الى تل أبيب أمامها منبسط ، بل بلغنى اذ عدت الى الوطن ، أنه فى نفس الوقت الذى تحول فيه جيشنا الى حطام ، خرجت بعض صحافتنا على الملأ بعناوين ، زائرة هادرة بأن قواتنا تطوى الأرض طيا الى مشارف كبريات المدن الاسرائيلية، فأى فجوة تلك ... أى هوة بين ما نقول وبين ما هو واقع ، كما تعودنا أن نفعل فى اللافتات التى نرفع !

الا أن العبرة فى حروب الصحراء ، حيث لا قيود جغرافية أو يكاد على الحركة ، ليست فى الحفاظ على سلامة مؤخرة الجيش وحسب ، وانما أن نؤمن الاجناب أيضا ، فهى من مواطن الخطر ، هذا الى عديد من تفاصيل أخرى مرتبطة بقدرات الجيش المهاجم ، وخاصة اذا ما انعقدت له السيطرة على الأجواء ،فيتحتم أن تكون الدفاعات متناثرة وان ترابطت من حيث دقة التوزيع ، متناثرة ... فهى ليست أهدافا سهلة لطائرات العدو ، ولكنها مترابطة بأن تكون مجالات نيرانها الدفاعية متقاطعة فلا يتأتى للعدو التركيز على أى من المواقع بغية اختراق الجبهة دون التعرض لنيران متألبة تحدق به فتأخذه من كل جانب .

ثم ان التفوق الجوى للعدو ـ وخاصة اذا ما كان كاسحا كما رأينا ـ يفرض على القوات المنسحبة أن تقصر تحركاتها على ساعات الليل الا فى حالات نادرة من ضرورة قصوى ، أما نهارا فعليها أن تثبت فى استحكاماتها الدفاعية ، مدججة بأسلحتها المضادة للطائرات ، والا حصدت حصدا فى الأرض العراء ، وأن تقابل مدرعات العدو ، أينما تجمعت سعيا الى اقتحام مواقعها ، بهجمات « انتحارية » تعويقية ، تكاد أن توهم العدو بأن قد قررت التحول الى الهجوم المضاد ، وأن تتخذ تلك الهجمات طابعا « التحاميا » ، يفقد طائرات العدو القدرة على التمييز ، فتحجم عن الضرب والا قذفت قواتها من ضمن .

فاذا ما ولى النهار ، عادت القوات الى « لعبة القفز » ، تطفر بالوحدة فوت أخرى ، ليس كيفما اتفق أو سعيا الى قطع ما يتيسر لطاقاتها من مسافات ، وانما بحساب وفى دقة تخير لمواقع جديدة ، حريصة كل الحرص على أن تدخر قدرا من جهدها وقسطا من جهمة الليل لاعداد تلك المواقع وتحصينها ، حتى اذا بزغ الفجر جابهت العدو بشبكة جديدة من استحكامات دفاعية ، متآزرة متساندة ، قادرة على التصدى مرة أخرى لأى هجمات ، جوية كانت أم برية .

هذا من الناحية النظرية ، فاذا تصفحنا الواقع الجغرافى وجدنا حقيقة كبرى تفرض نفسها فرضا على أى مواجهة عسكرية بين اسرائيل ومصر ، ألا وهى القيمة الاستراتيجية بالغة الاهمية لشبه جزيرة سيناء ، انها عبء فادح على كاهل أى قوات مهاجمة ، أرض عراء لا مأوى فيها أو يكاد ، الا أن تعد خطوة تلو أخرى ، ولا مراكز تموين ، من وقود لمركبات الحرب والنقل ، ضرورة لازمة منذ أن كانت الحروب الحديثة ، ومن أطنان القذائف استعواضا لما تستنفده شراهة المدافع تحركها آلية الالكترونيات ، ثم ما ليس منه بد من خزائن للماء ، رويا لآلاف من رجال ، كميات ضخمة تنقل نقلا عبر المسافات الطوال وخلف الجيوش المنطلقة الى أمام ، والا باخت حركتها أو أوهنت ، أو أن يصيبها الشلل آخر الأمر .

ثم أنها أرض حبتها الطبيعة بمفاتيح جغرافية، آخرها وأحصنها تكاد أن تتشكل فى صورة خط متصل الحلقات ـ من متلا جنوبا الى سبخات البردويل شمالا ـ خط يوازى مجرى القناة بعض الشيء ، بعيدة عنه مع ذلك بما يكفل نصابا من أمن ، فهى خط دفاعى أكثر من مثالى ، عدد من مضايق وشعاب ، بعضها خوانق رهيبة ، تعطى

لن استحكم فيها القدرة على السيطرة على التحركات ، أيا كانت ، من مصر واليها .

انها معاقل لا يفرط فيها أي ذي عقل أو ادراك ، حتى يتم سحب جمة القوات عبر القناة ، لو أن كان للانسحاب عبر القناة ضرورة !

الا أنه لم يكن للتضحية بالقناة من لازمة سوى تلك التهيئات التي استلهمت ، وكأنها الوحي ، من واقع ارتكز على سالف ظروف لم يعد لها شبهة من وجود .

لم يع صاحب القرار الا أن انسحاب ١٩٥٦ استخلص لنا من براثن هزيمة مرتقبة سلاحين رهيبين : انسداد القناة فيضطرب تفكير الدولتين الكبيرتين المعتديتين اذ يتملكهما جزع قاتل أمام احتمالات استنزاف مواردهما ، فليس أمامهما الا الاستعاضة عن نفط الشرق الاوسط بآخر لا يباع الا في سوق الدولار .. ومن ناحية أخرى فقد تهيأ لنا استنقاذ الكتلة الكبرى من قوتنا الضاربة ، وزعت على أحياء المدن المواجهة للجبهة ، فتتحول الى أداة رهيبة قادرة ، اذ تربض عند تقاطعات الشوارع الضيقة الى تفتيت الجيوش الغازية ، بأن تفرض عليها نوعا من حرب العصابات — هي حرب الشوارع — تبعثر قواتها وترهقها ، بل وتسلبها فرصة احقاق القصد الذي اليه تطلعت ، لا بديل لها عنه في ظل الظروف الدولية السائدة ، ألا أحراز النصر سريعا ، وخلال أيام ، والا فقدته .

أما قرار الانسحاب هذا ، بل قل تلك الاستصراخات الموجهة الى كل صوب وكيفما اتفق ، متخطية القيادة في الميدان ، متراوحة بين جؤار أو وحوحة الحاح — اذ رفض الاذعان لسخفها بعض قادة وحدات — فقد صدعت بتلك الروابط الخفية التي هي قوام كل جيش(٤) ، فتحيله من قوات نظامية متماسكة الى أشتات تشذبها الذعر ، فلا هم لها الا محاولة الافلات من مصير بدا وكأن قد بات محتوما ، فريسة سهلة لقوارع عدو تحدوه شراسة تصميم ، فيطحنهم الارض طحنا ، وكأنما ذراوة خبث مطروق .

أما عن ذلك السلاح الآخر المزعوم ، انسداد القناة — وانه لفي حقيقته ذو حدين — فقد انقلب علينا وعلى أصدقائنا بخسران .

كانت الدول الغربية قد وعت دروس عام ١٩٥٦ ، فتتجه وئيدا الى استحداث الوسائل التي تعينها على تجاوز العواقب التي ربما واجهتها مرة أخرى : الناقلات البترولية الضخمة القادرة على نقل النفط ، دون ما زيادة مرهقة في التكلفة ، من حول رأس الرجاء الصالح ، متجنبة مجرى القناة .

وعاونها بعض الشيء في مسعاها هذا ظهور الكشوف البترولية في مناطق أخرى جديدة ، خطوط المواصلات منها واليها بمنأى عن منطقة القناة ، لا يضيرها لو أن لم توجد أصلا — كما في ليبيا وأقليم بيافرا — أو لا تعوزها اليها حاجة ملحة ، فلا زيادة مرهقة في أعباء التكلفة — كما في بروناي وغيرها من مواقع متناثرة بامتداد جزر الهند الشرقية .

فهل كان أمام قيادتنا العامة كشوف احصائية بالحركة البترولية وبجغرافية مواصلاتها المتغيرة ؟ أشك في هذا ، ولكن بعضا من حسن ظن ، فأقول مستدركا أن ربما ... ولكن تطورات الأحداث تقطع بكل أسف أن ما كان بمقدورهم أن يعوا منها شيئا ، ولو دفع بها دفعا تحت أنظارهم المتحيرة بين عديد من نوازع وتطلعات لا تمت الى صميم واجباتهم بسبب .

انها أسلمت دون أن تعي لأعدائنا سلاحا رهيبا ، لا يتمثل في احتلال العدو لجزء عزيز من أرض الوطن فحسب ، وانما أن يصل بمواقعه حتى ضفة القناة ، فتغدو بعض من معاقلنا الاقتصادية ذات القيمة الاستراتيجية ، وعدة من مدن مكتظة بالسكان ، داخل النطاق المؤثر لمدفعيته ، نهبا لما قد ينتابه من نازق نزوات .

أما عن القناة نفسها فقد أفلتت من سيطرتنا ، لا نملك حتى القدرة على تطهير مجراها حين نزمع ، منسدة في وجه التجارة الدولية ، انحبس عنا عائدها من عملات صعبة ... والى متى ؟ فلسنا ندري ، انما رهن باعادة عديد من أوضاع الى نصاب — وهل تعود .. ؟ اذا ما رسخ بمر الزمن اعتماد حركة النفط على الناقلات الضخمة !

---

(٤) أهمها الروابط النفسية ، بدونها يفقد الجيش روحه المعنوية ومن ثم كيانه ، ومن اراد الوقوف على ماهية تلك المقومات فقد عرض لها سيجموند فرويد في أحد فصول كتابه عن « علم نفس الجماعة وتحليل الأنا » ، وقد ترجم الى عدة لغات .

وطالما لم يحن وقت الالتجاء الى « الحل العسكرى »، فالأمور معلقة بخيوط تمسك الولايات المتحدة بأطرافها ، بفضل من هيمنة متزايدة – داخل أروقة الأمم المتحدة وخارجها – أطفحها بها الموقف اذ تفاقم .

نعم ، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية – وبالتالى ربيبتها اسرائيل – هى المستفيدة الأولى من انسداد القناة ، وهبت من حيث لا تدرى أداة ضغط بعيدة الأثر ، اقتصاديا وسياسيا ، بل وعسكريا بالاضافة ، « فوق البيعة » كما قد يقول العامة .

« الديجولية » كانت وما تزال التحدى الأكبر للنفوذ الأمريكى المتغلغل الى أدق حنايا اقتصاديات أوربا الغربية، موقف فرنسا الصلب داخل السوق الأوربية المشتركة وخارجها هو الذى أشاع نسمة من تحرر ، بدا وكأنما قد بدأت تداعب عقول بعض من كبار رجالات الأعمال فى أوربا – بعد فترة من ردع اذ صدمهم مصرع ، أم هل أقول « مقتل » انريكو ماتيى – وان نسيم الحرية ، وان رق هفوه ابتداء ، لمسكر أبدا ، حرى بأن يثير آخر الأمر النخوة الوطنية ، أم أنها نخوة القوميات الأوربية، وقد توثقت بينها الترابطات الاقتصادية .

فاذا بالقناة ينسد مجراها ، فتضيع تلك الدعامة حرية كانت أن تعين من كان قد أزمع فيتصدى لربقة السيطرة الاحتكارية الأمريكية أو أن يتملص من خناق استثماراتها المتغلغلة .

ونظرة منا الى ايطاليا ... دولة البحر المتوسط التى ربطتنا بها أوثق الأواصر منذ القدم وعلى مر الدهور ، هى نفس الدولة التى اختلجت أوساطها الصناعية بنفثات من روح « انريكو ماتيى » المتوثبة – فاليه يعود الفضل الأكبر فى قلقلة قبضة الاحتكارات الأمريكية على مصادر النفط العربى ، فتنتزع ابتداء دول المنطقة لنفسها نسبا أعلى من فائض الأرباح – نظرة منا الى ايطاليا .. فهى الى جانب ذاك كله أكثر الدول الغربية تأثرا بالمرور بقناة السويس ، فنراها – ولا عجب فهاك السبب ! – الدولة الوحيدة من دول المتوسط التى انحازت جهارا نهارا الى اسرائيل ، وان جداول الاقتراع على قرارات الأمم المتحدة فى هذا الصدد لشاهد على ما أقول !

كلا ! بل ألهبت فيها المشاعر ، وكأنها مبتعثة بعد طول احتجاز ... انفعالات هستيرية ، تعود بهم القهقرى عبر الزمان ، فيؤدون التحية لقادة اسرائيل ، افتخارا بهم ، وكأنهم أبطال العصر « الموسولينى » المجيد .

وأين اذن أصدقاؤنا الذين نعرف من أقطاب الحزب الحاكم ؟ أين كلمة الصدق التى كان عليهم أن يدفعوا بها ، ليس دفاعا عن حقنا ، وانما افصاحا عن رأى آمنوا أن فيه مصلحة بلادهم آخر الأمر ، ابراء لذمة ضمير وايفاء لفرض أمانة منصب أو مكانة ؟ كم من مرة خلال جلسات صاخبة للبرلمان الايطالى سمعنا عن عضو يسارى قام يندد بالعدوان الاسرائيلى ، فلا يحظى من هؤلاء النفر الا بايماءة تنسرق بها الرأس ، يود صاحبها لو أن غاص بها بين كتفيه ، فكأنها اختلاجة لا ارادية وليس ابداء لرأى عليه احتمال وزره .

ولكن أكثر الدول تأثرا باستمرار انسداد القناة هى قطعا دول الكتلة الشرقية الصديقة ، المطلة بموانيها على حوض المتوسط وامتداداته المائية عبر مضايق البوسفور ، اذ تقطعت أسباب اتصالها المباشر بدول آسيا وشرق افريقيا ، فتصاب حركتها التجارية معها بأضرار فادحة ، بل أدهى من ذلك اذ تتعطل امدادات الاتحاد السوفيتى بالغة الحيوية الى جمهورية فيتنام الديمقراطية ، وتفرض عليها أعباء النقل البحرى الطويل من موانىء البحر الأسود عبر المضايق ، عبر جبل طارق ، وأخيرا حول رأس الرجاء الصالح صوب جنوب شرقى آسيا ، أو النقل برا ، باهظ التكاليف ، عبر القارة الآسيوية جميعا الى فلاديفوستك وغيرها من موانى المحيط الهادى .

فأن تتوعر سبل امداد فيتنام بالمؤن والسلاح، وأن تثقل دول الكتلة الشرقية فى علاقاتها التجارية مع عديد من دول العالم الثالث ، وأن تلجم اتجاهات التحرر الاقتصادى لدول أوربا الغربية. أى أسلاب تلك أفاء بها انسداد القناة على الولايات المتحدة ، وأكاد أن أقول فى غفلة من تطلع ، أو من تمن حتى ... أتحفها بها قرار أخرق بأن ننسحب بقواتنا من سيناء .

ليس عجيبا اذن ماأراه من موقف أمريكا المنحاز انحيازا كليا لاسرائيل ، انما العجب لو كانت أحجمت عن التذرع بمطل وتسويف ، استعصارا

لما يدره عليها هذا الموقف من فيض غنم ، أتاها دون ما غرم !

قرار انسحاب ٠٠٠ بل استصراخات يائسة وجهت الى الوحدات أينما كانت وكيفما اتفق ، دون ما تقدير لمستلزمات الانسحاب من ضرورة احكام سيطرة التوجيه مركزيا من القيادة التى فى الميدان ! بل جهالة مطلقة ، وكأنما القيادة العامة لم تقع لها عين على خريطة شبه جزيرة سيناء ، فتبرز لها من خلال تضاريسها الفذة أهميتها الاستراتيجية البالغة ٠

دع عنك جميع تلك الأخطاء التى تمثلت فى الدفع بخيرة قواتنا الى مواقع أمامية ـ وكأنما متحفزة للانقضاض ـ فى حين اتجهت النية السياسية الى التريث فنمتص غلوات الضربة الأولى ، استعدادا لتوجيه ضربتنا المضادة ٠٠

دع عنك تلك اللا مبالاة ، فلم تدرب قواتنا فتتمرس بأساليب حرب الحركة ، وخاصة أثناء الليل ٠٠٠

دع عنك أن أوامر الانسحاب صدرت بينا جلة قواتنا ـ ٨٠٪ أو أكثر ـ ما تزال سليمة ، لم تلتحم بعد بالعدو ، وقادرة لو أن لم تنتزع من قيادتنا الميدانية سيطرتها المركزية ، أن توجه فتنقض على المدرعات الاسرائيلية التى اخترقت بعض مواقع من خطوط الجبهة فتمحقها وهى مرهقة بعد طول قتال ٠٠٠

دع عنك حتى هذا الخطأ القاتل اذ تكتمت القيادة العامة عن القيادة الميدانية السبب الذى دفعها الى تعجل سحب القوات ٠٠ تحول سلاحنا الجوى الى حطام فى أقل من ثلاث ساعات ، وكأنما هو سر الأسرار ، فى حين انها حقيقة مروعة تصكهم فى كل لحظة آثارها ،، وابل من متفجرات وعاصف من حميم مصهور ، بينا لو ووجهوا بأصل العلة ابتداء ، لسارعوا فيفرضون على الانسحاب أسلوبا من انتشار ، ولا يضيع ما ضاع من أرواح وعتاد ، ولا تضطرب النفوس فيتزعزع الايمان اذ يدهمون من حيث لا يعلمون ٠

دع عنك ذلك جميعا ، انما الكارثة التى أودت بجلة مدرعاتنا وبآلاف من صفوة شبابنا المجند ، هى تلك اللهوجة التى أحالت جيشا نظاميا الى أشتات ليس لها من هم الا الانطلاق ـ النجاء ! النجاء ! صوب القناة !

ليس جميعا ، فهناك عدد من وحدات سيطر عليها قادتها فتماسكت وصمدت ، وقاتلت قتال الأبطال ٠

ولكن قوام الجيش ليس فى صمود بضع وحدات ، هنا أو هناك ، وانما فى تماسكها جميعا فتتساند ٠٠٠ كل لزميلاتها ركيزة ودعامة ٠

الكارثة كانت فى تلك اللهوجة ، ترتب عنها اخلاء الممرات التى هى المفاتيح الجغرافية لشبه جزيرة سيناء ٠٠٠ الكارثة فى أن لم ينتبه صاحب قرار الانسحاب فيسبقه بأوامر صارمة للوحدات المرابطة من حول تلك الممرات الحيوية، ليس بعدم اخلائها فحسب ، وانما بتعزيزها وتحصينها ، وخاصة ضد الهجمات الجوية وقد أمسك العدو بزمام الأجواء ٠

لو أن فطنت القيادة فى القاهرة للأمر ، لتحطمت موجة الهجوم الاسرائيلى عند تلك الممرات فتنكص عنها منكثة الصفوف ٠٠٠ كلا ! بل لاكتفت القيادة الاسرائيلية بالمناوشة عند مشارفها ، دون أن تتجاسر فتحاول اقتحامها ٠٠ ربما أن اتجهت الى قذفها من الجو قذفا عنيفا بعض الوقت ، ولكن الهجمات الجوية وان كانت ذريعة الأثر اذا ما صبت قذائفها على قوات متحركة فى أرض فضاء ، الا أنها تفقد القدر الأكبر من فعاليتها أمام المواقع موطدة الأركان ، والتى أعدت بحرص واحكام ٠

ورغم هذا الخطأ الفادح ، ورغم أن جيشنا بات مكشوف الظهر ، عرضة لأن يعتور من خلف ، فكم من قادة وحداتنا فى الميدان تذمروا ، اذ استصرخوا الى انسحاب ، فينبهون قيادة القاهرة الى أن المعلومات لديهم أكيدة بأن الجزء الأكبر من المدرعات الاسرائيلية فى تقدمها المستمر الخاطف قد استنفدت مخزونها من وقود وذخيرة ، وأن « طواقمها » يكادون أن يتهاووا من فرط اعياء ، ولكن الآذان كانت قد صمت ، أم أنها كانت تستفز وكأنما الادلاء بمثل هذه المعلومات بمثابة تشكك فى صحة تقدير قرار الانسحاب فبادرة من تحد ، أو اهدار لوقت وجب تكريسه لانفاذ تلك « الخطة » التى تفتقت عنها ألمعية صاحبها ، فيعود بعقارب الساعة الى الوراء ، الى تلك

الأوضاع التى انتزعت النصر من براثن الهزيمة عام ١٩٥٦ ٠

وكانت الكارثة ! اذ تخلى تلك الممرات الحيوية من القوات المرابطة بها ، فهى القوات الأقرب الى منطقة القناة ، حرية بأن يتم سحبها قبل غيرها — يا للأذهان المتفتقة ! — وكأنما الانسحاب هو مجرد عملية « الحق وديلك فى اسنانك » ٠

والقيادة الاسرائيلية غير غافلة عما تم ، فهى دائمة التصنت على اتصالاتنا اللاسلكية ، مسيطرة على الأجواء تقرأ ما يجرى على الأرض ، وكأنما فى كتاب مفتوح ، مدركة تمام الادراك للأهمية الاستراتيجية القصوى لتلك الممرات ، فتنفذ اليها قوات « مظلية » تسقطها من الجو ، وتتخير من قواتها البرية ما تحدو به حثيثا صوب تلك الممرات ، فتسارع اليها لا تلوى على شىء ، مواصلة آناء الليل بأطراف النهار ، متجنبة الالتحام مع أى من قواتنا المتناثرة هنا أو هناك ، بل تجاوزها متفادية مواقعها ، تراوغها فتفوتها ، فى وعى تام بأن انتزاع الدقيقة بل الثانية معناه احكام الحصار من حولها جميعا ، وقد سمعنا كيف أنها فى تعجلها لم تتأن حتى اذا ما نفد عن بعضها الوقود حتى يواتيها المدد ، وانما تشد بعضها بعضا بالجنازير ، وتمضى الى أمام لاتريع على شىء ، تسابق الزمن وتود لو أن تسبقه ، وكأنما ابتعاثا لجوهر تلك الصورة الموغلة فى القدم ، واتتهم بها أسفار الأولين ، اذ تدك جيوش الملوك الأموريين الخمسة المتحالفين بوابل من سجيل ، ثم يسارع الرب فيوقف حركة الزمان ، فتكتمل ليشوع بن نون فرصة القضاء على أعداء بنى اسرائيل ٠

هذا وقواتنا التى تم حشدها على مدى أسابيع طوال ، ماتزال متناثرة بقضها وقضيضها على صفحة شبه جزيرة سيناء ، فاذا ما تكاثفت صفوفها ، متزاحمة ، متدافعة المناكب ، بغية عبور هذه الممرات بخوانقها الرهيبة ، قليلة العدد ، حصدت حصدا وكأنها الهشيم ! ممرات صهرت عند مداخلها معدات جيش بنيناه بما اقتطعناه من قوت الشعب طيلة سنوات عشر ، ممرات فاضت على جنباتها أرواح الآلاف من زهرة شبابنا ، تعلقت مقاديرهم ومصائر الوطن بسمادير ذهن ملتاث ٠

تصرفات هى فى صميمها تراكب متهايل من أخطاء فادحة فوق أخطاء ، فتنهتك عن الوطن أسباب الأمن والسلامة ، مستذلا متفسخ الأوصال ، مستباح الذمار ، نهبا لمن تسول له نفسه اغتصاب حماه ٠٠٠

تصرفات فصلت من رواهنها فى كلمتى هذه ، ليس اثارة « لمواجع النفس » ، كما قد نقول فى بعض أغانينا العاطفية ، وانما اهابة الى حذر فلا نتردى مرة أخرى الى مهاوى جديدة ٠

تصرفات خرقاء — وان الخرق لشؤم كما جاء فى الحديث الشريف — دفع بها تعلق الأذهان بمسلمات أضفيت عليها هالة من قدسية ، وكأنما حقائق مطلقة ، أزلية أبدية ، بنيان شامخ من واجهات تفكير بينما العقول خواء !

فان البشر ، اذا ما ووجهوا بالمعضلات ، انما يتصدون لمعالجتها فى ضوء من دراسات مستفيضة لأبعاد الموقف ، فيستخلصون منه الأساسيات ، تلك الحقائق الأولية التى هى الركائز الوطيدة للرأى السديد ٠

مكمن الخطورة فى أن يركن المرء الى صورة ربما أن تحددت لها معالم ، تصويرا صادقا لأبعاد موقف معين ، اكتنفته ظروف معينة ، حيث ترابطت تلك الحقائق الأولية فى اطار من قوى محسوبة المدى ، محددة الاتجاه ، الى معادلة شبه « فيثاغورية » ، فيتعلق بها من قصرت مداركه أو تشعبت همته الى عديد من نوازع ، وكأنما هى مسلمة مطلقة ، صالحة لكل عصر وأوان ، مبرأة من كل نقد ، تعفيه من عنت اعمال الفكر واعادة التقييم ٠

هناك حقائق أولية ، أى نعم ، لا غنى عن الارتكاز عليها فى أى من عمليات التفكير أو التخطيط ، ولكنها ليست أبدا جامدة ثابتة ، وخاصة فى تلك الميادين التى تحكمها تصرفات البشر ، وحتى ان ظلت على ما هى عليه فترة من زمان فان العلائق التى تربط بينها ، تلك القوى الدينامية التى تشكل أبعاد المواقف واحدا تلو آخر ، انما فى تبدل وتغير مستمرين ، من حيث مداها واتجاهاتها على الأقل ، منخرطة أبدا الى أوضاع متجددة ، بل أحيانا متباينة ، فمن أراد أن ينفذ ببصيرة الى لبابها ، عليه أن ينفض عن ذهنه احتمالات الانحباس داخل قوالب جامدة

من تفكير ، فيكد ويجهد فى اعادة تقليب الأمور والغوص الى رواهنها المتغيرة وظروفها المتقلبة وتيارانها المتراوحة ومناخاتها المتناوحة ٠

كلا ! ليس هدفى اثارة مكامن من مواجع ٠٠ وانما أن نهيب بكل ذىرأى من مواطنين ألايتردوا مرة أخرى الى اعتناق تلك المعادلات التى يفتن فى دبجها من يدعون العلم من رجالات الاعلام ، يتصاعدون بفصاحة متملقين الأهواء والآمال المطلقة ، فننساق من خلفها وكأنما هى المسلمات المنزلة - استغفرك أى ربى ! - لا يأتيها باطل من أى جانب كان !

والا فلن نلومن الا أنفسنا اذ تدق مرة أخرى ساعة المواجهة مع العدو الاسرائيلى ، انها مواجهة حتمية ، آتية لا ريب فيها ، لا مهرب لنا منها اذا أردنا لأمتنا العيش والازدهار ٠

كلام أسوقه اذ ألحظ ، والعين آسية ، شعارات جديدة اذ تحاك ، أو قديمة تعاد صياغتها ، فيسارع القوم من حولها متزاحمين ، مشرئبة أنظارهم ، نذيرا بأن سوف ترقى الى مرتبة قدسية من مسلمات ، هى أصنامنا الجديدة ، نخر أمامنا ساجدين ، مستسلمة لسحرها مداركنا ، لا يتحرك لنا لسان من فرط رهبة الا بالتسبيح ، ولا تطرف لنا عين من فرط تخشع وكأنما قد حط عليها حجاب حاجب فلا تتجاسر الى استطلاع ما قد يكون فوتها من آفاق ، ونغوص حيث تلبث بنا الفكر الى أغوار الجمود ، أو ربما حاولنا أن ننطلق ٠٠٠٠ ولكن الرؤية اذا ما أغبشت لحرية بأن تحيد بأقدامنا عن الجادة الى متاهات الضياع ، أو تتردى بنا الى مهالك من زلل ملج ٠

لست أدعى لنفسى القدرة على توضيح معالم الطريق ، اذ ليس هناك بعد طريق ، ولا يمكن لشخص أن يتكهن أين يكون ، انما الذى نعلم هو وضوح الوجهة التى اليها نصبو ، أما الطريق فرهن بأن يشق ، خطوة تلو أخرى ، اذا ما تضافرت جهود المواطنين جميعا ، فكرا وعملا ، متذرعين بارادة لاتلين وعزم وتصميم ، الخطوة الواحدة مهما قصرت هى فى حد ذاتها ملحمة من صراع ، تذليلا للصعاب واقتحاما لدغل من عوائق ، ملحمة تمازج وتضافر بين عمل جاد متصل وفكر متفتح يرفض أبدا الانحباس داخل قيود من مسلمات ٠

كلا ، ليس هناك بعد طريق ٠٠٠ انما صورة من هدف علينا أن نسعى اليه ، ولا يعنينا الا تحقيقه ، فلا قيمة لأين يكون الطريق ، وانما فى كيف أن تشق المسالك ، مهما تشعبت بنا ، نحو الهدف المنشود ، المسألة ليست سباقا بين خصمين قطعا لمسافة معينة ، وانما أشبه ماتكون بمباراة فى الملاكمة ، حيث الحركة رهن بتحركات الخصم أو استباق لها ، الا أنها حلبة تمتد فتشمل ميادين السياسة والحرب والاقتصاد والدعاية على النطاق العالمى ، والنصر لذلك الذى لا يهن ولا يفقد فى أى لحظة توازنه ، لذلك الذى لا تزل قدمه بينا أبدا متحفز فيختلس الفرص ، لذلك الذى يحدوه أبدا العزم والتصميم ٠

كلا ، ليس هناك بعد طريق ٠٠٠ وانما هو أسلوب حركة ، قادر وحده ، بفضل من اصرار الأمة وتضافر ابنائها جميعا ، على تذليل الصعاب والتصدى للمفاجئات ، فننحت لانفسنا المسار ، شبرا شبرا ، الى الهدف المنشود وحذار من أن ننزلق الى أرض رخوة حيث لا مرتكز ، أو أن نصيبها بشلل اذ نسلمها الى أحد تلك الفخاخ التى ننصبها لأنفسنا فى صورة من مسلمات ٠

أقول ما أقول اذ أراها تفغر فاها من جديد عن يمين وشمال ، ومن قدام ومن خلف ، فيتحتم على أن أرفع صوتى **بالتحذير** ٠٠٠

سمعت من يقول أن الوقت فى صفنا وليس فى صف اسرائيل ، وأخشى ما أخشاه أن يتحول هذا القول الى شعار ثم الى مسلمة نستنيم لها ٠٠ فهل هناك أقوى من الزمان حليفا ؟

الوقت ! ولكن ما هو الوقت ؟ أليس حركة زمان ٠٠٠ شمس تشرق ثم تعود فتغرب ٠٠٠ أيام تمر وأسابيع تمضى فتنسحب من خلفها الشهور والاعوام ؟ كلا أى انباء وطنى ! ليس هكذا يكون حساب الوقت فى هذا العصر الذى نعيش ، انما تحول مفهومه الى كميات انتاج ، الى عمل يؤدى بمقاييس من دقائق وثوان ، بل وكسور مرهفة من ثوان فى بعض الأحيان !

أم هل ترانا قد نسينا - مصيبة المصائب وايم الله ! لو أن نكون قد نسينا - كيف دهمتنا اسرائيل بضربتها الجوية القاصمة ؟ طائراتها متناثرة فى عشرات من قواعد ، ولكنها تصعد الى

الجو فى تسلسل زمنى دقيق ، تتلاقى أو يتتالى مرورها فوق معالم محدده ، ثم تتشعب فتنقض على قواعدنا ، رغما من تباين المسافات اليها ، فتنزل بها جميعا ضربتها الأولى فى توافق زمنى عجيب ، كل « طلعة » خاضعة لبرنامج توقيتى صارم ، كذا دقيقة وصولا الى الهدف ، دقائق أربع أو زهاء ذلك ، هى فسحتها للقصف ، ثم تدور آيبة والا تقطعت أنفاسها لنفاد الوقود ·

وفترة محسوبة من دقائق – هى سبع ونصف – لا يتعدونها الا فى حالات من ضرورة قصوى ، هى التى يسمح لها بها على أرض القاعدة ، فيتم التفتيش عليها ، ويعاد تزويدها بالقنابل وتعمير مدافعها بالذخيرة و ملء خزاناتها بالوقود ، ويستبدل بقائدها آخر أو أن يسارع اليه شخص مسئول فيتلقى منه تقريرا بما أنجز، ثم اذا بها منطلقة الى الأجواء مرة أخرى ·

سبع ونصف من دقائق!رقم مذهل ، لا ينبسط فيتسع لشتى تلك المجهودات المتزاحمة ، الا أن تعتسر له ، بطول تدريب وتمرين ، الطاقات البشرية ، فتتسق انجازاتها ، متوافقة متكاملة وكأنما توجهها آلة الكترونية حاسبة ، ونقف مأخوذين اذ لا تكاد تخلو أجواء مصر من طائرات العدو ، غادية رائحة ، عشرات المئات من طير أبابيل ، ولا يسعنا الا أن نظن أن موجة الهجوم الاسرائيلى قد دعمت بأسراب أجنبية لا حصر لها ولا عد ، والا فكيف بها قد تضاعفت مثنى وثلاث، وكأنها فصائل فذة من طائرات ، تتوالد كلما نفخ فيها الهواء ·

نعم ، هكذا تصورنا فى ضوء من حساب ، ولم نكن ندرى أن مقاييس الوقت عندهم غير التى نعرف ! هل أخبركم بما تستلزمه خدمتنا الأرضية من ساعات – نعم فان الساعات ، فضفاضة رحراحة ، هى مكاييلنا الزمنية – فيعاد تجهيز طائراتنا للتحليق مرة أخرى ؟

هلا أن استحلفكم باعفائى ··· والا صدمتم فى أعز ما نملك ، فى تلك الخاصية التى لازمت المصرى منذ أن تفرد باقامة ذلك الصرح السامق من حضارة ، انبهر العالم أمام منجزاتها الرائعة ، وما انفك تأخذه الروعة كلما كشف عن جديد من خباياها كان قد ظل مطمورا ، تلك الخاصية هى كل ما تبقى لنا فتصلب من عودنا ، تلك العنجهية، نظره الاستعلاء تلك التى يلقى بها المصرى على الغير – تأصلت بينما نحن الى تفكك ، فاصبح الغير ليس الاجنبى وحسب ، بل والمواطنين الذين خارج الدائرة التى يتقلب فيها الفرد منا ويعيش – فنسخر منهم ونستخف بل ونزرى بقيمة ما يكون قد حققوا مهما علا شأنه ، وخاصة اذا قصرت عنه قدراتنا ، وكأن لا جدوى له أو ليس اليه من حوجة – « قصر ديل يا ازعر ! » – ثم « نطرقع » بسياط من لسان حديد ، متهكمين مستهزئين ، ذودا عما تغلفنا به من كبر وعجب ، فقد سوينا على أفضل ما يكون ، ومن طينة غير تلك التى خلق منها البشر أجمعين !

كلا ، أى أبناء وطنى ! ليس الوقت حليفا الا لمن عرف كيف أن يمسك به فيعتسره ، ليس الوقت فى صفنا أو فى صف اسرائيل · وانما هو أداة لمن عرف كيف أن يذلله بالعمل الجاد مطية لأهدافه ومآربه ·

وسمعت أيضا من يقول بأن العرب قد يخسرون المعركة ، بل معركة تلو أخرى ، ولكن اسرائيل لا يسعها أن تخسر معركة واحدة والا انتهت !

قول ربما سمعنا به فى صور أخرى متعددة، ولكنها تكاد أن تنبثق من نفس المفهوم ، فهناك استاذ جامعى فرنسى بحاثة ، يفضى الى بعض اصدقائه المصريين بأن كفة العرب راجحة حتما فى ضوء من منطق تاريخ ، « فهلا أن أفعمتم قلبى بايمان فى ضوء من منطق سياسة ! »

ثم صورة أخرى ، ربما هى أكثرها شيوعا ، وأحبها الى قلوبنا ، تبث الينا بالارقام ، وما أخطر الاعتماد على لغة الأرقام ، اذا ما أعوزتها صرامة التحديد – فقد قيل أن الجدول الواحد من أرقام احصائية ربما أن تفاوتت ، بل تناقضت النتائج المستخلصة منه ، باختلاف أمزجة أو تمنيات من انكب على دراسته – سمعت من يقول أن لا خوف من النتيجة النهائية لمعركة المصير ، فانما اسرائيل آخر الأمر ، ومهما بلغت من قوة ، جزيرة معزولة وسط ذاك الخضم من مائة المليون !

ما هكذا يكون الحساب فى هذا العصر الذى نعيش – عصر الآليات والالكترونيات – حيث لا قيمة للسلاح الحديث الا أن يعهد به الى أذهان

متفتحة ، نفثت فيهـا من روحها منجزات علوم العصر .

تقولون أننا أمة من ثلاثين مليونا ! والله اننا لا نتعدى العشرة ملايين اذا فرزنا الجموع فنفصل بين أميين وغير أميين ... وحتى ان قلنـا بذلك فاننا نزرى بمكاييل العصر التكنولوجى ، حيث لا وزن لأولئك الذين توقفوا عنـد عتبة « فك الخط » .

ماهو تعداد مصر اذن بمقاييس العصر ؟ كم عدد الذين اتموا تعليمهم الثانوى أو الفنى ... وماهو رصيدنا من خريجى الجامعات ؟ اصحاب « المؤهلات » كما يقولون فى مكاتب التجنيد ، وقد أفقنا أخيرا الى أنه لا قوام لجيش حديث الا أن تعبأ كفاءاتهم .

أمامنا فى اسرائيل — « سلاحها السرى » كما يتباهى بذلك بعض معلقيها السياسيين — ذروة فى مجالات الدرس وتحصيل العلم والتثقيف ، حصيلة الفرد من مقروء الكتب تكاد أن لا تدانى .... أما هنا !

بل ما من يهودى فى أى من بقاع الأرض — والغالبية العظمى من شبابهم قد مضى فترة من تدريب عسكرى على أرض اسرائيل ، فهو من جنودها كلما أزمعت على حرب — الا وأصاب قسطا وافرا من تعليم .

أما هنـا ... ولنقصر نظرتنا ، على سبيل المثال ، على شريحة واحدة ، ولكنها خطيرة كل الخطر ، من الاحتياجات التى يلزمنا بهـا العصر التكنولوجى ... فكم عدد الوارد السنوى من ذكور ، المهيئين ذهنيا وجسمانيا ... ثم نفسانيا ، فيجتازوا صنوف التدريب القاسى التى تؤهلهم آخر الأمر لقيادة طائراتنا النفاثة ؟

وأقول نفسانيا ... فالملاحظ مع الأسف الشديد عزوف كبير من شبابنا ، أحيانا تحت ضغوط عائلية عنيفة ، عن التقدم للانخراط فى سلك القوات الجوية !

بل ان كلمة « نفسانيا » تنسحب الى ما هو أبعد .. الى تلك «الروحة» ، منافية كل المنافاة للطبيعة المتأصلة فى كل مصرى — فهى نغمة نشاز ، والنشاز حرى بأن يثير الريبة — اذ تتجه أعداد وفيرة من مثقفينا وأصحاب الخبرة الفنية الى الهجرة خارج البلاد .

بل أخطر من هذا ، مناخ فكرى قد حط ، ببذور من نبت خبيث فيستشرى .. فلا حديث للطلبة فى جامعاتنا الا عن فرص الهجرة الى هذا البلد أو ذاك اذا ما اتموا دراساتهم .

فهـلا أن استقصينا بالدراسة العلمية المتأنية الاسباب الدفينة لتلك الظاهرة ، تستنزف طاقاتنا العقلية بينما نحن فى أشد الحاجة اليها ! هل نريد لأمتنا أن تختل موازينها فى هذا العصر التكنولوجى الذى نعيش ، فتتكدس فيهـا الاجساد بينما تفر ناجية بنفسها العقول !

كم من مصريين تفردوا بمكانة علمية فى أدق تخصصات العصر ، ولكنهم عن العودة الى الوطن عازفون ، بعضهم قد قهر الى هجرة اذ حاولوا افادة الوطن بخبراتهم ، فيلقى بهم الى أركان مظلمة من وظائف لا تمت الى تخصصاتهم بأوهى سبب ، تغوص بهم الى غياهب من اغفال تحت وطأة خانقة من رتابة « روتين » ، حيث الفرد مهمـا ارتقت كفاءاته ، مثله مثل غيره ، سلعة فرضت عليها توقيفا تسعيرة موحدة .

هذا عن مصر .. فهل انتقل بكم الى الظروف السائدة فى بقية البلاد التى نقول عنها أنها تزخر بالمائة مليون ؟

وحذار من شخص يقرأ كلامى فيرمينى بمظنة السعى الى تثبيط الهمم .. حذار ! فانه يريد لنا أن تدفن رؤوسنا فى الرمال ، فلا نواجه حقائق الموقف .. ولا حركة الى أمام الا أن نعـلم أين نقائصنا فنذللها ، وأين مكامن قوتنا فنستغلها .

وكفانا ما أصاب هممنا من تخدير اذ استنمنا من قبل للمسلمات ! حقن « مورفينية » ، فتغشى أبصـارنا بسمادير من أوهام وتمنيات ، فاذا صدمنا الى افاقة .. وان عدوان الخامس من يونيو ليس ببعيد !

اننـا نملك ثروة ضخمة من طاقات بشرية خارقة .. شيدت الاهرامات حجرا فوق حجر .. شقت القناة اذ حفرت الارض بضربة معول اثر أخرى .. رفعت صرح السد العالى شامخا بالجهد المضنى والعرق المعتصر من أجساد فولاذية ، فهلا أن أعددناهم فيسيطرون بأذهان مستنيرة على تكنولوجيات العصر ، من آلات انتاج أو أسلحة دفاع عن حر المقومات !

أو بعض أعداد فى حدود مايتيسر لنا من وقت، بل فى حدود من اعتسار للوقت ، والله ان فعلنا،

فلا خوف على وطن آمن أبناؤه بحقه فى الحياة !

ولكن علينا أن نعى جيدا ألا سبيل الى اعداد جاد الا تثقيفا وتعليما ، ولا ثقافة ولا علم - أينما كانت مواقع العمل - الا بأن يمتلك الفرد منا ، كل فى حدود طاقاته وواجباته ، ناصية الكلمة المكتوبة .

وعلى سبيل المثال ، وتأكيدا لما أقول ، فانى أسألكم اذا لم تكن قد وقعت لكم عين على تلك الارشادات والتوجيهات ، تنشرها وزارة الزراعة، بين الحين والحين، فى الصحف السيارة؟ ارشادات لها أهميتها والا لما عنى بنشرها ، فمن ذا الذى يقرؤها ؟ ومن ذا الذى أصاب قسطا من ثقافة زراعية متطورة فينتزع نفسه من قوالب الاساليب العتيقة التى عليها درج ؟ أم أن سوف تقولون أنها تعليمات موجهة الى المرشدين الزراعيين .. فوالله لو أن تحول مثقفونا جميعا الى مرشدين زراعيين لما أغنوا فتيلا طالما لم يقتنع الفلاح الذى فى موقع العمل .

ثم تلك المسلمة الاخرى بأن اسرائيل مجتمع اصطناعى ، خلط فيه بين حابل ونابل ، أشتات متنافرة تلاصقت الى هيئة من جسد ، زج به الى المنطقة ، مآله الى تفكك ثم أن يلفظ به الى خارج، فهو عليها دخيل .

موضوع تناوله من شتى نواحيه كاتب فذ، هو من كبار مفكرينا ، يفيض قلمه بعصارة هى حصيلة وافرة من علم رصين ، الا أنه يراجع نفسه فيحذرنا فى مقال له من خطر الانسياق خلف التمنيات (٥) ، فنخترع لأنفسنا مسلمة جديدة ، نسلم لها القياد متواكلين ، بينما نحن الى راحة من بال سادرين .

قال : « فاذا كنا تقليديا نعتبر أن الامة هى التى تصنع الدولة .. فهناك نظرية قوية محدثة. تعتقد أن الدولة هى التى تصنع الأمة على المدى الطويل ، وكل أمة لم تبدأ أمة حقيقية بالضرورة، ولكنها فى اطار تنظيم سياسى مشترك ، مضروبا فى عامل الزمن الكافى ، تتحول الى أمة بمعناها السليم .. فان ٥٠ سنة أخرى مثلا قد تحيل كيانا مصطنعا ملفقا مثل اسرائيل الى كيان طبيعى بدرجة أو أخرى ، يضرب بجذوره فى الارض ماديا وبشريا ، بحيث تصبح طائفية الصهيونية الخلاسية فى النهاية قومية أو شبه قومية » ..

هل أمضى فأتناول المزيد من تلك الاخطار التى تتهددنا .. والتى هى مع الأسف الشديد من صنع أيدينا ، تخريجات ربما كان همها أساسا اشاعة الثقة فى النفوس - أى نعم ! فهذا جد ضرورى استنهاضا للهمم وانتشالا لها من مهاوى اليأس ، ولكن مكمن الخطورة حين تعبأ النفوس بمزيد من أمل مطلق ، يفيء علينا بظل ظليل ، فتتراخى الجهود ، ونستنيم الى وعد من الله حق، متناسين قوله تعالى ، وقوله الصدق : « وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى» .

هل أمضى .. أم أننى فصلت من الامثلة مافيه الكفاية ؟ كلا ، بل هناك نقطة أخيرة لا أطيق عنها صبرا ، تلك النبرة الجديدة تلقفتها أجهزتنا الاعلامية مؤخرا فتضرب عليها باصرار ، اذ انفتقت أمامها فرجة ، ربما كانت منفذها أخيرا الى تلك الحلبة ، طالما قصرت عنها امكانياتنا وقدراتنا ، أو تعثرنا اذ نقتحم اليها الطريق بين الحين والحين بوسائل فجة ، كالثور الهائج فى حانوت من خزف ، أو على النقيض من ذلك تماما ، فى غير تحوط كالحمل متهاديا الى مرتع الذئاب ، أما الاسلوب السوى فقلما عرفنا كيف يكون .

فرجة ننفذ منها أخيرا الى حيث الرأى العام العالمى ، فقد بدأ يتحول تدريجيا عن سابق انحيازه لاسرائيل !

نغمة أطربتنا فنكررها متمايلة رؤوسنا وقد أسكرتنا بعض نشوة .

لا شك ان صورة اسرائيل ، كما كانت تنفخ فيها الدعاية الصهيونية والاستعمارية ، قد اهتزت اهتزازا عنيفا بعد أن انهتكت الاستار عن حقيقة أمرها وعن غوائل أطماعها التوسعية ، ولكنها لن تعدم الوسائل ، ولن يهدأ لها بال حتى تعتصر الرأى العام العالمى ، فتروضه على الانسياق من خلفها مرة أخرى ، أو أن تحمله على التغاضى عن أفاعيلها .

ونظرة منا - غير متأثرة بالتمنى أو بالانفعال - الى خريطة النفوذ الصهيونى المتغلغل الى أدق حنايا وسائل الاعلام ، حتى فى بلاد لنا صديقة، ثم سيطرته بوسائل خبيثة على مجالات الفن والترفيه ، فتشكل من أذواق الجماهير ، ومن ثم

(٥) جمال حمدان ، فى مقال له بمجلة الكاتب ، ابريل ١٩٦٨ .

على ميولهم ، بتراكمات من ايحاء رفيق أو تعريض ساخر ٠٠ فلاترى من تلك الصحف ، قليلة العدد، التى تصدت مثلا لوحشية الاجراءات الاسرائيلية فى الارض المحتلة ، الا حذرا وحيطة ، فتسارع الى موازنة ما قد أبدت من استنكار بأن تنشر ما يزرى بنا ٠

كم من مقالات أو تعليقات ـ وجميعها عابرة لم تثن أو تتابع ـ حاولت أن تبرز مثلا أبعاد الصلف الاسرائيلى اذ تتحدى دول العالم أجمع ، حين صدرت القرارات متتالية حول موضوع احتلال القدس ؟ أو مدى استهانة حكامها بالادانات التى استنزلت عليها عقب اعتداءاتها المتكررة على الأردن ؟

لو أردنا أن نتلمس حجم تلك السيطرة الصهيونية ، فلنوازن بين ما نراه فى هذا الصدد، وبين ردود الفعل التى يمكننا أن نتخيل لو أن الدول العربية هى التى اقترفت ما قد اقترفت اسرائيل !

أما الجانب الخبيث فهى الايحاءات التى تنطوى عليها وسائل الترفيه ، فتستحوذ على مدارك السذج من عامة ، وتستقيهم دون أن يدروا السم الدعائى الزعاف ، فى ثنايا من مواقف تبدو بعيدة كل البعد عن النزاع العربى الاسرائيلى ٠٠ فى أفلام سينمائية باذخة التكاليف ، حورت فيها وقائع التاريخ ، أو دست عليها فى أحكام بالغ ، ولكن خطفا وكأنما جاءت عفوا ، كلمة عابرة أو لفتة طارئة ، ولكنها معبأة بمعان ، طريقها حتما الى الترسب فى الاذهان ٠٠ ومثل ذلك فى قصص تدبجه أقلام لها شهرة أو مكانة أدبية رفيعة ٠

ثم ذلك التركيز على انجازات فى شتى مجالات العلوم والفنون ، ما كان للبشرية اليها من سبيل، لولا نفر من عباقرة يهود ، اثراء للتراث الانسانى ، وبذلا دون مطمع فى عرض مغنم ٠

وقد استلفتنى مرة ذلك الرأى(٦) بأن أحد الاسباب الرئيسية التى تعتسر الرأى العام العالمى فينحاز الى اسرائيل ، هو أن الصورة المنطبعة فيه عن العرب أسوأ من تلك التى عن اليهود ، وأضيف فأقول أن العقلية الغربية تحمل أيضا رواسب من عداء قديم للشرق العربى ، ولكنها رواسب تافهة ضئيلة اذا ما قيست بأبعاد ذلك الحقد الذى ظل يعترم القلوب تجاه اليهود منذ أن حملوا وزر صلب المسيح ٠

فلو أن الامر كذلك ـ ويبدو أنه رأى انطوى على درجة من دقة وصدق ـ فان فرصتنا هى فى جلو تلك الصورة من الشوائب التى علقت بها ، كسبا للرأى العام العالمى ، وقد أصبح من تلك القوى التى ليس عنها غنى ٠٠ فرصتنا هى أن نخرج الى العالم ، الى ندواته العلمية والادبية ، الى مسابقاته الفنية والرياضية ، الى معارضه الصناعية والانتاجية ، الى مؤتمراته الشبابية والعمالية والنسائية ، متخيرين أحسن ما عندنا وأقدر من فينا ، وليس كما ترامى الينا مؤخرا ـ وأرجو أن يكون الخبر كما ورد فى صحافتنا مجرد اشاعة ـ من أن قد أوفدنا الى مؤتمر علمى متخصص نفرا من موظفين اداريين ، وكأنما أردنا لوفدنا ، ومن ثم لسمعة بلادنا ، أن تكون أحدوثة أو أضحوكة !

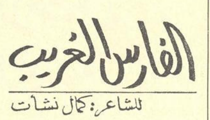
هذه فرصتنا ـ اذ يقال أن مناخ الرأى العام العالمى قد أخذ يتحول فنستغل تلك الفرجة٠٠ أما أن نفىء فى فىء من ظل ظليل ، استنامة الى «حتمية» نضفيها على مسار نتخيل أن سوف تسلكه الامور ، فلن نلومن الا انفسنا اذا ما بدأت تلك الموجة فى الانحسار ، وانها الى انحسار ـ فالرأى العام حول قلب أينما يكون ـ اذا لم نحسن استغلالها ، بينا الجانب الآخر دائب فى سعى لا ينى ٠

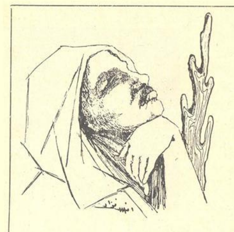
هلا أن احترزنا من التردى مرة أخرى الى مهاوى المسلمات ، هلا أن نفضنا عن أنفسنا سلبيات الفترة التى ولت ، فننظر بصادق بصيرة الى ما حولنا ، مفعمة قلوبنا بايمان ، متفتحة أذهاننا ، عاقدين العزم على شق الطريق ، مسالك وشعابا ، الى حيث النصر المؤزر باذن الله !

يقول عز وجل فى كتابه الكريم : « فقد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » ، وانه القول الصدق ، عبرة لمن أراد أن يعتبر ٠

---

(٦) أعتقد أن كان للأستاذ أحمد بهاء الدين فى مقال له بجريدة المصور الأسبوعية ٠





الفارس الغريب
يسير فى طريقه الغريب
مرنح الاشواق
رفيقه القدر
وأنت فى الأحداق
مدينة يخضر فى أحضانها القمر ..
لو ترتمى فى قلبه كواكب المساء
ما غير الطريق
عيناك مبتغاه

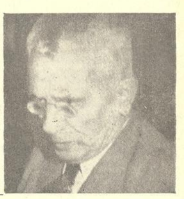
أغلى من الكنوز
ما يحملان من هوى وألفة ودفء
أغلى من الحياة ..!
يا وطنى القديم
يارفة الحرير ... يا نعومة الخدر
يعود بى الطريق
فأرتمى
على يديك حفنة من العذاب
والصعاب .. والضجر
طوفت فى المدائن البعيدة
رأيت ما يخافه الشجعان
وتهت فى البحار
وعدت
وملحها فى القلب .. واللسان
وها أنا أنفض كل جعبتى لديك

ولم تعد أسرار
تغيب عن عينيك ..
لكننى ما كنت فى الشطار
لأننى لم أعرف المهارة
وحيل التجار ..
وكنت فى براءتى الغريرة
عصفورة صغيرة
تطير فى الأمطار
وفى ردى الظهيرة

لم يحمها جدار
تود تستريح ... تستريح
من رحلة الضياع فى القفار
ولم تكن ترى سوى جهامة الصبار
يا وطنى القديم
أعود بالجراح والندم
فهدهدى مواجعى
مللت من تجاربى
وبهرة الزحام
ولم أعد – كما ترين – الفارس المقدام
تهدمت مفاخرى
وانكسر الحسام
ورايتى تمزقت أشلاء
وأصبحت مفاخرى الدموع .. والتاريخ
والطلاء .. !

الأخطل الصغير

بقلم : د. أحمد كمال زكى



فى شهر يوليو الماضى نعى الينا بشارة عبد الله الخورى ، أمير الشعراء بعد شوقى . وقد ظفر بهذا اللقب فى يونيو من عام ١٩٦١ ، بعد أن ظهر – بشكل أو بآخر – أن غزواته فى ميادين القريض أكبر من أن يسكت عنها التاريخ، وأضخم من أن ينال منها هذا الجيل من أصحاب الشعر المرسل .

ولم يكن تكريمه فى الواقع الا تكريما لمدرسة شوقى العظيمة ، وتقديرا لدورها الذى أنكر جدواه أكثر من ناقد يطمح الى الشهرة عن طريق التعريض بالقديم ، وايمانا بأن الذى يقدر على العطاء يعطى حتى وهو يرسف فى أغلال التقليد . وكم كان طريفا أن ينهض شاعر رندلى – سعيد عقل – فى حفل تكريمه ليقول « عندما ، فى صدفة سعيدة خطت أنامله لأول مرة بيتا من قصيد كانت السماء قد نوت خيرا بالجمال وبأزاهر البال .. فى الهينمة تلك ، تقرر أن يكون فى لبنان أمير كلمة » وكان من قبل قد هاجمه بعد أن سمع قصيدته المشهورة « عروة وعفراء » بقوله انه لا يقيم وزنا لشاعر تغسل أقدامه أمواج البحر المتوسط ويكلله جبل صنين بتيجانه ثم يحمل نفسه الى الصحراء لتوشى قصائده !

ان الاطار الذى وضع فيه بشارة الخورى صور شعره قد تحدد بتلك القالة ، ومع ذلك لم يكن أى دارس بحاجة اليها ليقول ان شاعر لبنان الكبير مقلد .. فهو يطلق على نفسه « الأخطل الصغير » مستشرفا الآفاق التى تعبق بريح البادية وهو يعارض المتنبى ومن لف لفه ، وهو يستمد لأغنية الجراح والرماح أطياف الحجاز وخيالات عكاظ والمربد جنبا الى جنب مع توهمات صيدون وبابل ومأرب ومنف وطيبة .

لقد قدر أن يكون شاعرنا – بعد شوقى – فى هذه البقعة الرائعة من العالم ، حيث درج قادة الانسانية وأحبوا ، وشيدوا ، ثم ماتوا والأسطورة والتاريخ لا يزالان يرشقانهم فى جبين الدهر ورودا وشذى ونجوما أنعم من الحرير .

وفى مسالك الغناء – وهذا طابع عام لشعرنا العربى – يختال ديوانه الذى قدم له سعيد عقل، فلا نكاد نلمسه حتى نحس ان ما يخلفه من تأثير فينا هو التأثير ذاته الذى يخلفه أى كائن غريب فى النفس ، الا أنه تأثير أشبه بما نستشعره حين تفجؤنا الطبيعة بما يبدو أنها تستطيع أن تبدع أكثر مما نتصور ! وليس كمن تغزل – حتى وهو يرثى – من يحقق تلك الالفة الحميمة التى تأسرنا .. لا بتشابك أفكار متراصة وومضات صور متزاحمة ، ولكن بطيبة رشيقة تنبثق من حياة لا تثقل على من يحملها الا بثراء الروح وسماحتها

أين هذا من ذلك الذى يحسب الشعر خطابة او يظنه تلوين كلام يفضى الى لا شىء ؟

أفكان من الممكن على ذواقة جمال مترف – كالأخطل الصغير – أن يقف حيث وقف الشعراء المقلدون يلفظون آخر أسنانهم دموعا فوق جدث القرن التاسع عشر ؟ أم تراه يحذو حذو مخضرمى

لبنان الحديث من أمثال اسكندر عازار وسـليم عازار وسليمان البستاني وأمين تقى الدين والياس فياض ؟

لا هذا ولا ذاك ...

فان بشارة الخورى أو الأخطل الصغير كان أكبر فنا من المقلدين والمخضرمين على حد سواء ، أو كان من الذكاء والألمعية بحيث أدرك أن « التخصيص» يفضى الى « التفوق » ما دامت أسباب الثقافة الغربية متاحة له بقدر ماتهيأ له التراث ، ومادام باب الاجتهاد مفتوحا أمام الاستشراف والطموح .

وعندما كان يشتغل بالصحافة ، لم يقعد بـه قول اسكندر عازار ـ شـيخ أدباء عصره ـ حين نمى اليه أنه يعالج القصيد مستبقا سـليم عازار « بشارة صحفى وسليم شاعر ، فاتركوا بشارة للصحافة يبرز فيها » .

لقد رفض هذه المصادرة ، وفهم أن الشـاعر حتى وهو برعم يمكن أن يتخطى الحدود .. انما عليه قبل كل شىء أن يعرف مهمته ، فما هـذا الشىء الذى يصدر عنه ؟ وكيف ينبغى أن يكون ، أو ما أكمل صورة له ؟

ليبدأ من التنظير ـ هذا أتصور ـ وقد رأى أن الشعر العربى تعود أن يحط على « الحـادثة » لتكون القصيدة ، فاذا كان القريض نظما ليوم جلل أو فاجعة فما أيسر قعقعات السـلاح ـ كلاما ـ وتهديدات القوى ، ولـكن هل هذا هو الشعر ؟ حقا انه يقول فى قصيدته « سيوف وجراح » :

يا ربى لا تتركى وردا
ولا تبـقى أقاحـــا
مشت الشـام الى
لبنان شوقا والتياحـا
فافرشى الطرق قلوبـا
وثغـورا وصـداحا

لكن هذا لا يتنافى قط مع مفهوم الشعر لديه، من حيث هو تجربة صادقة تستوعب كل المشاعر الى حد امتلاكها :

وهل الشعر غير ما امتلك النفـ
ـس فحـل كأسا وحـل وثاقا

وامتلاك هذا النفس لا يكون الا بطاقات تدعمها عبقرية تستطيع أن تصهر متناقضات الوجود فى بوتقة الجمـال ، ولنسمعه يقـول فى قصيدته « صلاة » .

ألهمينى يا ربة الشـعر شعرا
كالنور والنار
كالهوا كالأطيار كالفـكر حرا
يلفح الأدهار
كالأهازيج فى الوغى تترجـح
ان ثار ثار
كدوى الأمواج اذ تتدفـع
بعيدة الأغوار
ربة الشـعر ، ألهمينى قصيدا
ترجع الأطيار
ألهمينى شـعرا طليقا جديدا
يوزع الأنوار
واسألى الزهر أن يكون دموعا
واسألى الأزهار
أو مريهـا بأن تكون شموعا
طويلة الأعمار

هكذا الشعر الجديد ، سواء استوحى القديم أو عرب أو أبدع بتلقـائية الذى يفسر الحياة بالوجـدان ، فاذا عورض أو هوجم أو رمى بأنه حفار القبور ، انبرى فى حماسة الصحفى خالعا رداء أورفيوس ، فهو يقصد سعيد عقل بأمضى ما فى جعبته من سهام فيقول له قبل أن يدين بولائه :

ومعشر حاولوا هدمى ولو ذكروا
لـكان أكثر ما يبنـون من أدبى
تركتهم فى جحيم من وسـاوسهم
ورحت أسحب أذيالى على السحب

ولنتأمل عجز البيت الثانى ، وفى سنة ١٩٣٠ يقرأ فى مجلة « الجمهور » ما يتعرض به له أبو شبكة وخليل تقى الدين وميشيل أبو شهلا ـ وهم من عصبة العشرة المجددة على نحو يخالف نحوه ـ فينتهز فرصـة رثائه لحـافظ ابراهيم ويقول موضحا مفهومه للشعر خير توضيح :

شاعر النيـل خذ بناصية النجـ
ـم وداعب جبينـة البراقا
وتمل الأحلام فى الكأس غرقى
عاريات وبعضـها عشـاقا
أو فعد للحقول دغدغ بهـا الز
هر ونبه فى صـدرها الأشواقا

شاعر النيل جز طريقك للخلـ
ـد وخذها لمن تريد صداقا
درة صاغهـا الذى ترك الحسـ
ـاد تجرى ولا تطيق لحاقا
كلما أطبق الغبـار عليهم
حشرجوا تحته وماتوا اختناقا

- ٣ -

هل يكفى ما مضى لنعرف الاخطل الصغير ؟
نستطيع أن نضيق دائرة العرض بعبارة موجزة هى أن ذلك الشاعر ربيب المدرسة الشوقية التى ورثت كل مزايا تراثنا العظيم واستعانت بالعطاء الاوروبى ــ الفرنسى منه بخاصة ــ عرف كيف يجعل الحدس الجمالى أساسا للتعبير حتى وهو يرثى ، وحتى وهو يعالج قضايا العصر الاجتماعية والسياسية .

واذن من الخطأ أن نجعله شوقيا خالصا ، على رغم كل ما يقـال من تبعيته له وتمسكه هو بذكرياته معه وتقاربهما فى الجرم الضئيل .. فان الذى عاش خمسا وثمانين سنه مجربا ــ وهو المرهف الحس والحاد الذكاء ــ لا بد أن يتفرد بشخصية ورسالة وهدف . واذن نتعب أو لا نجد جدوى اذا رحنا نوازن بين خلف وسلف أو بين سابق ولاحق ، فمن المؤكد أن الاخطل الصغير كان يجـد فى عملية الابداع كشفا جديدا يؤدى الى المزيد من درايته بنفسه وبالعالم من حوله ، بل يؤدى الى المزيد من البعد عن جاذبية قطب عجل الزمن بابطال مفعوله . وأما نطاق المشاعر التى يلتقى فيهـا وعندها الصديقان فهى كالتجـارب الانسانية سعة وشمولا ، وانما يبقى الذى يدل على حاجة ويصورها على نحو فريد .

وكان من الضرورى أن يفارق الأخطل الصغير شوقيا .. ففضلا عن أنه لا يأخذ مثله من الشعر موسيقاه الظـاهرة ــ وهذه مرجعها الى الجزالة واللعب بالالفاظ ــ ولا يبحر مع الاغراض حتى وان كانت لمجرد الاثارة الاخلاقية ، يدرك أن على الانسان أن يسمو الى غاية أعلى ما تبلغ قدرته ، والا فلماذا وجدت السماء ؟ ومن ثم لا داعى الى اطالة الوقوف على الارض ، وليسحب أذياله دائما على السحب .

ولامجال هنا للاستعلاء على قيمة ماخلفه شوقى فيمن بعده ، فقد أدى دوره ابان الرومانسية .

ولكن الاخطل الصغير خلق أبعادا وجدانية جديدة، وجاوز صور الشـوقيين التى لا تزال تدور فى أشعار الشيوخ هذه الايام .

عاش الاخطل الصغير حتى شـيخوخته شابا لا يرى الا الجمـال ولا يؤمن الا بالحب ، ومن ثم أوغل فى ممرات الياسمين ــ كما لحظ سعيد عقل ــ واهدى قبابا مكوبة بالزهر .. حتى وهو يواجه وجدانيا موقفا وطنيا، ففى المواجهة يصطدم كل من الحب والجمـال بمرارة الحياة وقسوتها وغلبة المستبد فينطلق قائلا :

أنا فى شـمال الحب قلب خافق
وعلى يمـين الحق طير شاد
غنيت للشرق الجريـح وفى يدى
ما فى سـماء الشرق من أمجـاد
ومزجت دمعته الحنون بدمعتى
ونقشت مثل جراحه بفؤادى

وهنا نرى كيف اسـتحال الحب بكل معطياته الجمالية الى احساس قومى .. الى غناء بالشرق الجريح الذى فيه بلد الشاعر موطن الزهر والنبع الضاحك والسماء الصافية والبيوت الضاحكة . ولكن التجربة لا تتوقف عند الجمال المجرد ، فان ذلك يغير نقاشا لا ينتهى الى شىء ، أو ينتهى الى ما انتهت اليه تشبيهات الأولين حتى تبرق منها الحكمة أو يلمع المثل فينطفى كل شىء الا ما يسفر عنه كل من الحكمة والمثل .

ولكننا لا نرى ثمة ما يدعونا الى حصر شعر الاخطل الصغير فى هذا فقط . فمنذ بدأ المهلهل أو المرقش الاكبر ــ ولا أقول هوميروس ــ يبنى قريضه على اسـاس من رصد الوقائع ، أصبح التصوير لاتجاه الانسان العاطفى لب الموضوعات الشعريه بوجه عام . ومن هنا نغمط حق الشاعر فى الجديد الذى قدمه ، ونكتفى بالقول انه لم يزد على أن جعل ابداعاته تنسيقا موفقا لحالات سابقة .

وفى الحقيقة انه زاد . وقد حدد سعيد عقل فى مقدمته لديوانه الذى نشر بعد تتـويجه هذه الزيادة بقوله انه كان وهو يحب متغزلا أبدا ، حتى لنراه يجعل للنبع ــ كما للمرأة ــ معصما ، وللجهاد ثغرا وحيدا ، وللقبر اشفاقا من عطف عزول !

واذ نعلم أن خير الشعر ــ على ما يجمع عليه

أغلب النقاد ـ يجب أن يلفت القارىء وكأنه تعبير فذ أو على الأقل استذكار لشىء معروف على نحو جديد ، فان الاخطل هنا يتقدم بآيات كن من غير شك غير مسبوقات • وعلق حسين مروة فى مقال له نشر بالعدد التاسع من «الآداب» لسنة ١٩٦٨ بقوله « صحيح أن جيل الاخطل الصغير قد انتهى منذ أكثر من ربع قرن ، وأن الجيل الذى يعانى الآن حياة العصر بكل قلقهـ وعنفها وبكل حدة الصراع بين متناقضاتها وبكل حيوية هذا الصراع، قد أنشأ لنفسه مناخات شعرية جديدة شديدة التعقد والتوتر والتفجر ، ولكن الاخطل الصغير ذاته بقى فى نهاية جيله يقف على تخوم جيلين ، فلم يغرق هنـاك فى قاع الزمنية الكلاسيكية ، ولم يغترب هنا كل الاغتراب عن ارهاصات التحول والتفجر المعـاصرين • وان لم يدرك ما انكشفت عنه هذه الارهاصات من جديد ، وما له أن يدركه بعد أن استنفد العمر طاقاته »

وذلك يعنى ببساطة أنه وان لم يسبق شعراء جيلنا فقد سبق معاصريه ، والدليل على هذا أننا لا نعانى وحشة الاغتراب ـ الا قليلا ـ اذا رحلنا الى عالمه الشعرى الفريد •

وعلى الرغم من رحابة هذا العالم وتلونه واطراد الحركة فيه ، فان الشاعر يبدو فيه قادرا على أن يسحب الذيل ويحرر ما يشـاء • ولكن دون أن يفقدنا الطريق بغرابة أو بغموض أو باحالة ، وانما نصبح أكثر وعيا بمشاعرنا ـ من ثنـايا الفاظه التى هى خلق أدبى كامل ـ ولا سـيما حين نرى أنه يثرينا بمدارك تامة الجدة :

برى ريشـه من جناح الملاك
وغمسـها بفؤاد الصباح
تأنق فيـها فلمـا انتهى
وقد أخذته حميا النجـاح
جلاها على موجة من ضـياء
فأتعبنا فى الهوى واسـتراح
يرف عليهـا فراش الهـوى
فهنـا جنـاح وهنا جناح

ومن المؤكد ان هذا ليس هو الحياة ، غير أنه يوقظ فينا حياة جديدة لانراها غريبة علينا بقدر ما نراها حبيبة الينا • وكأنه وجد الألفاظ الجيدة ونظمها فى نسق جيد لكى ينشط، الى ما ننشط، نحن له فنعجز ، واذا هو فى آخر الأمر يخصب فينا استجابات كانت هامدة أو توشك أن تموت أو يعفى عليها الزمان •

أجل من المؤكدن هذا ليس هو الحياة ، ولكن من المؤكد يضا أن هذا هو عالم الشاعر الفريد • فيه يتحدث ، ويرسم ، ويعيـد تنظيم أشـياء وأشياء •• بغير تعسف ، ولكن بقوة تطرح وتخلى ثم تنظم وسـط ركام غامض معقد يتدافع حتى يخلصه الشاعر لنفسه ولفنه ولابداعاته •

- ٣ -

ولكن أما يحق لنا أن نستكشف هذا العـالم بتفقد معالمه ، وليس بوساطة التقويم الناقد ؟

حقيقة سبق أن ذكرنا أنه يعتزل دائما ـ ألم يكن مكبا على الحب والجمال ؟ ـ كذلك ذكرنا أنه ربما عالج السياسية والاجتماعية : غير أن هذا لم يبين لنا الا أن نبع الشعر لدى الأخطل الصـغير كان ينبثق من خواص يتفرد بها •• فالتسليم من هنا بالجدة أمر مقرر ، ولكن ما المجالات التى أبدع فيها على وجه التحديد ؟

ان نظرة فاحصة الى ديوانه « شـعر الأخطل الصغير » الذى يتضـمن ديوانه الذى صدر سنة ١٩٥٢ بعنوان « الهوى والشباب » تقرر شيئين : أولهما أن فن الشاعر قائم على أن عالم الحس وعالم الفكر (والعاطفة) يتداخلان فى عطاء لفظى يدمج ـ بسهولة واضحة واشراق لافت ـ العالمين فى صور فيها من الجديد مالا ينكر ، وثانيهما أن هذا الفن ينحصر فى الغزل أساسا ثم بعض القضايا القومية التى لها جذور فى الظلم الاجتماعى وأخيرا الرثاء ، وبعد هذا لا نرى شيئا •

ومن خـلال ذلك التقسـيم يظهر تماما أن حساسية الشاعر الجمالية فى كل مواقفه تتحول فى ذروات انفعالاته الى ما يمت الى الحب بسبب ، فالوجدان الذاتى لا يدع للصورة وللأحاسـيس التى تتصل بها أية فجوة • واذا ما أخذنا أنفسنا بتعمق الظاهر المباشر نجد كل التفصيلات الواقعية فى وصف الرياض والجبـال والأمواج والنـجوم والعصافير وكل أحاسيس البهجة والدهش التى تتبعها تنساب فى تناسق ملتئم وحيوية أخاذة •

ولنقرأ تدليـلا على ذلـك مطولته « ١٩١٤ » ولنتبعها بمراثيه فى أحمد شوقى وسعد زغلول وحافظ ابراهيم والزهاوى ، فاننا نراه فى غمرة

انفعالاته الذاتية يتصاعد مع تهويماته ورؤاه ورؤيته الى الأرحب — وقد يهبط على الأرض فى تلك الحال — حتى ليقول بعد أن صال فى ملاعب الحسن وجال ، وبعد أن هجس بتغرب « الحسن والاحسان ملتمسين وجها من الأرض هشاشا لزائره » :

يا مصر ما انفتحت عين على حسن
الا وأطلعت ألفا من نظـائره
ولا تفتقت الأفكـــار عـن أدب
الا وأبنت روضـا من بواكـره
لبنان يا مصر مصر فى مطامحه
كمـا علمت ومصر فى مفــاخره
هل كان قلبك الا فى جـوانحه
أو كان دمعـك الا فى محـاجره
أو كان منبت مصر غير منبتـه
أو كان شـاعر مصر غير شـاعره
قيثـارة النيــل كم غنيت قافية
فى مسمع الدهر مسراها وخاطره
لو عاد فرعـون كانت من ذخائره
أو ختم الخـلد كانت فى خناصره

ومن قبيل ذلك أيضـا ما يخاطب به الزهاوى فيلسوف العرب الذى يفتر عن مثل ابن سينا والنواسى الاريب :

شيخ القريض أبا الرصين
الجزل والمرح اللعوب
ما زلت ألمحهـا على لبنا
ن طـافرة الوثوب
من معصم النبع الدفيـ
ـق لمعطف الغصن الرطيب
وأخو الوفا لبنـان يـر
فل منه فى الثوب القشيب
هو والعراق الحر مهـ
ـد هوى وأيكة عنـد ليب
فجران من مزن السمـا
ء ووردتان على قضيب

غير أن الامانة تقتضينا أن نذكر أنه وهو يخلد أيا ممن ذكرنا عابرا فوق الأنهار وخيوط الحلم وتيجان الروابى وخصل الشعر وليونة المعـاصم وخضرة المعاطف ، يهوى الى خطـابية جوفاء نراه فيها وبها فاقد البصيرة ضحل الحساسية ، أو فلنقل لايترجم معاناته الى صور تخاصم أى تشدق بيانى يتحذلق بجرجرة أذيال المعانى ، فيقول مثلا وكأنه على منبر وذلك فى مجال رثاء سعد زغلول مخاطبا المصريين :

انى أخاف عليكم فى تحزبكم
أن تنصروا الخصم وهو الخصم والحكم
تخــاصمون على ضعف وخصمكم
هو القوى عليـكم ليس يختصم
توحـدوا باسم مصر فى تجهمها
وطالعوا ثغر مصر كيـف يبتسم

انه هنا أقرب الى شوقى ، أو أقرب الى غنائية شعرنا الكلاسيكى كله .. ايقاع صاخب ، وبلاغة ، وتلاعب بالالفاظ ، ثم استثاره بحالة من الطرب الأبكم الذى لا يجسد معاناة وان يكن يقرر حالة ، ومجال الشعر التصوير ! وعلى ذلك لا نطمع فى أن نجد مضمونا انسانيا يهجس به جمـال فنى يضمن للشعر البقاء كعمل خالد ، وعلى ذلك أيضا لانجتدى جدوى بانتفاضات عنترية — وهى ليست غضبات مضرية — تفضى الى الضرب من الغلو الأحمق والرخيص .

ويقـــع الشىء نفسه اذا واجه موقفا اجتماعيا سيئا ، فانه فى هذه الحـــال لا يتوسل بالنغم الهامس وبالصور والرموز — والحكاية الاسطورية أحيانا — وانما يلجأ الى الوعى القـــاصر والمنطق الارسطى الذى استغنى عنه التعبير الفنى الجديد ، فيقول :

أيها الأغنياء ان غناكم
شـيدته سواعد الفقراء
القصـور التى تقيمون فيهـــا
من بناها لكم ســوى الفقراء
والطعــام الذى تلذون من هم
صانعوه ســوى الفقراء
والرياحين فى الجنائن من هم
غارسوها لكم ســوى الفقراء

تقرير وعظى لا يحفـــل الا بترهات انفعالية تغيب فيها امتدادات رؤيته الفنية ، فلا تجـاوز ظـاهرة الفقر من حيث هى واقـــع يراه بكل تفصيلاته أى انسان عادى . ومن ثم نجد أنفسنا فى مواجهة اشفاق مع الشاعر ، لاننا نحس كم كد وتعب ليتخلص من طبيعة لا تريد أن تتخلص منه ! ودعنا من المفارقات ، فانها غير مشحونة

بالتركيز العاطفي المنشود ٠٠ القصور من بناها، والطعام من أعده ، والرياحين من غرسها ؟ أيكفي أن تكون الاجابة « لا أحد سوى الاغنياء » ليتم التلقي وتؤدى وظيفة الفن ؟

هذا شيء لا نقبله اليوم بمقاييسنا ، ولكن ربما قبله أبناء جيله ، وفي رأيي أنه هوجم من أجله وليس من أجل سواه ٠٠ لأنه في حديثه عن المرأة يرتفع الى مستوى من العطاء يخطف النفس خطفا ـ فهذا دهش ـ ثم يطلقهـا بانفعالات بصيرة مع أطياف الصور الحية ٠

والحق أن الاخطـل الصغير عاش عمرا طويلا صاهرا نفسـه في أتون الاحداث المصـرية التي اضطرب فيها العرب سياسيا واجتماعيا ، ونجح حيث أخفق كثيرون ٠٠ نجـح لا كمـا نجح على محمود طه مثلا أو الاسمر ، ولكن نجح كما ينجح بعض شعراء قصيدة اليوم المرسلة ، ربما الى حد ، وربما الى حد كبير ، غير أن من المؤكد أنه حلق دون أن يقع كثيرا وأنه استبطن الاعماق في عمليات تأويل موفقة ٠

كان يتغزل دائما، ولكنه لم يدع لشعره وسيلة للهرب من مواجهة سقوط الدولة العثمانية ، ولم يسكت عن الحرب العـالمية ، ورفض كأي عربي تحدى الاستعمار لنا في فلسطين ، وحرص على أن يدعو الى الوحدة :

ضحك المجد لنا لما رآنا
بدم الأبطال مصبوغا لوانا
يا جهادا صفق المجـد له
لبس الغار عليه الأرجوانا
شرف باهت فلسطين به
وبنـاء للمعالى لا يدانى
ان جرحا سـال من جبهتهـا
لثمته بخشـوع شـفتانا
يا فلسطين التى كدنا لما
كابدته من أسى ننسى أسـانا
نحن يا أخت على العهد الذى
قـد رضعناه بين المهـد كلانا

غير ان ميـدانه الحقيقي ـ وقد ذكرنا ذلك ونؤكده للمرة الاخيرة ـ هو الغزل الذى يحمل السمة الغنائية بكل رشاقة ورهافة وبكل ماتحمله من طرف وترف ، وهو نفسه يحرص كل الحرص على أن يلفت أنظارنا الى الغزل والى ما ينبعه من انتفاضات وجدانية شائقة فيقول :

فتن الجمال وثورة الاقداح
صبغت أساطير الهوى بجراح
ولد الهـوى والخمر ليلة مولدى
وسـيحملان معى على ألواحى
قـد عشت بينهما على نغم الصبا
كفراشـة علقت نـدى أقاح

ولقد كانت قصائدة الأولى بمثابة فتح آخر غير الفتـح الذى تـم على أيدى عمر بن أبى ربيعة والعباس بن الاحنف :

عشت فالعب بشـعرها يا نسيم
واضـحكى فى خدودها يا نجوم

وحمل راية العشاق وذكر الواشي والحسود ، وفلسف الحب ، ووصـف المحب المتيم ، ورصد لخفقات القلب العاشق أرق الخفقات ٠

يحمل الابتسام فى شفتيه
والمنـايا تسيل من أدرانه
كسراج فى جوف دير قـديم
هرقت روحـه على جدرانه
يشهق الشهقة الخفية فى
الفجر ويغنى أنفـاسه بدخانه

وهو يقرر فى رضى أنه أحب دائمـا ، وانه ليخرج من مناصب الى حب شغوفا بالجمال بل طمعا فيه ونهما :

كفـانى يا قلب ما أحمل
أفى كل يـوم هـوى أول
أيخلق منـك جديد الهوى
فؤادا من السـكر لا يعقل
كفى نهمـا لن يفر الجمال
وترحل أنت ولا يرحل
سكتنا فمـا غرد العندليب
وتبنا فمـا صفق الجدول

كان الشاعر يرثى لسكوته ويخـاف ألا يحب ويغرد ، والآن سـكت ذلك الصـوت الشجى الرقيق٠٠ فأية خسارة للشعر العمودى وللشعراء الشيوخ ؟ ومن بعده يستطيع أن يدعى أنه يغنى فى جدة على أنغام رقمها قديمة ؟ وهل ترى يأتى أى مدع فيزعم أنه لم يقدم الكثير الذى تسيطر عليها الانغام العذبة والذى يعطى فيجزل العطاء ؟ أظن لا ٠٠٠ .

شاعر خمارويه

بقلم: د. حسين نصار

قال القاضى أبو عمر وعثمان النابلسى فى كتاب: « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » (١) : « رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون » .

فاذا كان هذا القول قد أثرت فيه عوامل الاغراء وشابته أسباب الهوى المبالغة ، فانه ـ بالرغم من ذلك ـ لايفقد دلالته على كثرة الشعراء الذين عرفوا بنظم الشعر فى العصر الطولونى .

ولكننا حين نبحث عن هؤلاء الشعراء لا نصل الى أسماء غير مجموعة قليلة منهم لا تملأ كراسة واحدة ، بل ربما تملأ أكثر من صفحة واحدة .

فاذا أردنا أن نتعمق قليلا ، ونتعرف على ما وراء هذه الأسماء ، تساقط الواحد منها بعد الآخر ، ولم يمثل أمامنا غير عدد ضئيل منها ، ربما لم يزد على أصابع اليدين .

وما نصل اليه من أخبار هذا العدد الضئيل ، وأشعاره تماثله ضآلة ، بحيث يتعذر علينا أن نحسن تصورهم أى تصور .

وذلك هو سبب جد الباحثين فى الأدب المصرى فى التنقيب ، واحتفالهم فى البحث ، وفرحتهم الغامرة بالنص يعثرون عليه مهما كان قصيرا أو مبتورا أو مشوها . فشأنه شأن النقوش الفرعونية لا نبخل عن التنقيب عنها بجهد ولا مال ، ونمنحها الترحيب حين نعثر على شيء منها مهما كان ، لأنه سيعطى الصورة القديمة شيئا من النماء والتمام .

هذا التصور هو الذى يدفعنى الى الكتابة عن هذا الشاعر ، الذى أريد أن أكتب عنه . فلن أعطى صورة تامة ولا واضحة له ، ولن أحاول ذلك ، فلست قادرا عليه بما بين يدى من مواد . وانما أكتب لعثورى على بعض «النقوش» أعنى « القصائد » أضعها أمام الدارسين مقرونة بتفسيرى لها ولما كنا نعرفه من شعره الذى درسه سابقون على ...

هذا الشاعر منحنا كتاب المغرب فى حلى المغرب (٢) أتم صور اسمه ، فكانت القاسم ابن يحيى بن معاوية المريمى . ولا يختلف الاسم فى بقية الكتب التى ذكرته .

وضبط لقب الرجل فى أكثر الكتب التى ذكرته بفتح الميم وسكون الراء ، غير زهر الآداب (٣) ، فقد ضبطه السيد على محمد البجاوى محققه بكسر الراء . وقد أردت التحقق من الضبط ، والالم بنسب الرجل ، فلم أجد أحدا ممن كتب فى الأنساب والألقاب مثل السمعانى وابن الأثير والسيوطى تعرض له ، ولم يبق أمامى غير التخمين . وعندما حاولت ذلك وصلت الى أن المرجح فى الضبط هو كسر الراء والى احتمالين فى تفسير اللقب :

١ ـ أن يكون منسوبا الى مريمة (٤) ، وهى من قرى حضرموت . وترجح هذا الاحتمال كثرة اليمنيين والحضارمة الذين نزلوا مصر مع الفتح الاسلامى وبعده ، وبروز رجالهم فى الحياة المصرية فى تلك العهود .

٢ ـ أن يكون منسوبا الى مريمين (٥) ، من قرى حمص أو حلب ، كما ينسب الى نصيبين فيقال نصيبى (٦) .

ولم أجد نصا يقطع بكون الرجل مصريا منذ

---

(١) خطط المقريزى ٢ : ١٢٤

(٢) ١ : ٢٧١ من القسم الخاص بمصر

(٣) ١ : ٤٥٤

(٤) القاموس المحيط وتاج العروس (الفيروز ابادى)، مصر .

(٥) معجم البلدان لياقوت الحموى ٤ : ٥١٦ ليبسك

(٦) نفس المرجع ٤ : ٧٨٧

مولده الى وفاته . ويبدو أن البحث عن مثل هذا الأمر لا طائل من ورائه . فلم يكن أهل ذلك العصر يفرقون بين الأقطار العربية خاصة والاسلامية عامة ، بل كانوا يطلقون لقب المصرى وغيره من ألقاب البلدان على من أقام بمصر مدة وعرف فيها ، أين كان مولده ومنشؤه . ولذلك لا أستطيع ادعاء مصريته الشاملة اعتمادا على وصف كتاب المغرب (٧) اياه بـ « الشاعر المريمى المصرى » أو « من شعراء مصر المشهورين » .

وقد عثرت فى بعض شعر الرجل على أقوال تميل بى الى القول بأنه شامى الاصل . فقد خرج خمارويه فى سنة ٢٧٣ من مصر الى الشام والجزيرة لمحاربة بعض خصومه ، فقال المريمى يشيد بانتصاره عليهم (٨) :

أتانا أبو الجيش الأمير بيمنه
فشرد عنا الجور ، وافتقر العسر
فان تك أرض الرقتين به اكتست
ضياء واشراقا ، لقد أظلمت مصر

فقوله : « أتانا » يدل على أنه لم يخرج مع خمارويه من مصر ، وأنه كان بالشام من قبل .

كذلك أعلن فى شعر آخر أن الناس يعجبون لطول مقامه بمصر ، ويسألونه عن السبب ، قال (٩) :

يقولون لى : ما بال رحلك دائما
بمصر ، وأنى لست عن غيرها أرضى ؟
وكيف رحيلى عن بلاد غدا بها
أبو الجيش والنيل الذى ملأ الأرضا ؟!

فهذا التساؤل من الناس اما أنه يدل على أن الرجل غريب عن مصر ، فعجبوا منه اذ أطال المقام فيها أو أنه وصل من الفن الشعرى الى مرتبة عالية تجعله جديرا أن ينتقل من مصر الى عاصمة الخلافة العربية بغداد ، فكان مقامه فى مصر مثيرا للعجب .

أما أنا فتميل بى هذه المعلومات القليلة الى أن الشاعر من مريمين الشامية ، وأنه اتصل بخمارويه عند ذهابه الى الشام كما اتصل به شاعر مشهور آخر ، بل ربما أشهر شعراء العربية فى عصره أعنى البحترى ، ثم انتقل مع خمارويه الى مصر ، وبقى فيها ، وصار شاعرها الرسمى ، فوصف بالشاعر المصرى ، مع احتفاظه بلقبه المريمى .

ونستبين من النصوص التى رواها الكندى أن المريمى التزم بخمارويه فى الشام ، وتتبع خطاه ، وأهداه القصائد التى تتغنى بانتصاراته . قال يصف ما كان بينه وبين اسحاق بن كنداج فى سنة ٢٧٢ هـ ، وبدأ بتصوير عظمة جيش خمارويه (١٠) :

فسائل به اسحاق ، اذ سار نحوه
بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
تباعدت الأقطار منه كثافة
ففى مشرق قطر وفى مغرب قطر

وصور ما اعترى ابن كنداج من حيرة ، وتملكه من فزع ، وتيقنه من الهزيمة ، مما أرغمه على الفرار محافظة على النفس بعد أن تقوض جمعه ، وزال فرحه :

فبالس اذ قيل : الأمير ببالس
وأضحى ضعيف العقد اذ عقد الجسر (١١)
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلا
أرته المنايا الحمر أعلامه الحمر
فولى شريدا ذا ارتياع كأنه
بكل بلاد طائر ما له وكر
لئن سر اسحاق النجاة بنفسه
لقد ساءه فى جمعه القتل والأسر
فلا يغبطن بالعيش من بعد هذه
فقد كسرته كسرة ما لها جبر

ولعل أحسن ما قال المريمى من شعر كان فى معارك خمارويه بالشام . فقد التف حول الامير جماعة من الشعراء يتغنون بشجاعته ، وما أبداه من ضرب الحنكة ، وما لقيه من صنوف النصر . وكان منهم الشعراء الكبار ، من أمثال البحترى الذى قال فى مدح خمارويه (١٢) :

وقد رأيت حموش النصر منزلة
على جيوش أبى الجيش بن طولونا

---

(٧) معجم البلدان لياقوت الحموى ١ : ١٣٦ ، ٢١١

(٨) ولاة مصر للكندى صادر وبيروت ، ١٩٥٩ ، ٢٦٠ .

(٩) « بنوسعيد الأندلسي المغرب في حلى المغرب » . القاهرة ١٩٥٣ ، ١ : ١٣٦

(١٠) ولاة مصر ٢٦٠ .

(١١) بالس بلد بين حلب والرقه

(١٢) ولاة مصر ٢٦٣

يوم الثنية ، اذ ثنى بكرتــه
في النقع خمسين ألفا أو يزيدونـــا
مظفر ، لم يزل يلقى بطلعتــه
كواكب السعد والطير الميامينا

وأثار هذا الاجتماع نفوس الشعراء ، وأشعل الميل الى التبارى بينهم ، ودفعهم الى افراغ الجهد وسلوك كل طريق للتفوق • نجد مظاهر ذلك في قصيدة المريمي التى قالها فيما كان بين خمارويه ومحمــد بن ديوداد من معــارك في ســنة ٢٧٤ انتهت كسابقتها بانتصار خمارويه وفرار خصمه وهى المعارك التى ألهبت البحترى قوله الذى أوردت أبياتا منه ، قال المريمى (١٣) :

فتوح الأمير نجــوم تلوح
فليست تقاس اليــــا فتوح
تسير لهــا في جميع البــلاد
ركائب تغدو بهــا وتروح
اذا حــاد عن أمره حائد
أتاح له الحتف منه متيح

وقال فيها يصف ابن ديوداد ، وما ارتكبه من غدر ، وما منى به من هزيمة ، كما فعل مع ابن كنداج قبله :

نصحنــا لشر بنى دوديداد
بتحــذيره لو أطيع النصيح
ولم يكن الغدر مستقبحــا
وفى الغدر شين وعار قبيــح
تعاطى نطــاح كباش الحروب
فغودر وهو صريع نطيح
لئن كان ولى سليما صحيحا
فما القلب منه سليم صــحيح

وختم بمدح خمارويه ، ووصف خلقه وعزمه :

أباح حمـــاه فتى لم يزل
يحوط حمى ، وحمى يستبيح
اذا هو لم يسترح من عــدو
فليس الى لذى يســتريح
وان هم بالســير لم يثنــه
سنيح يعن له أو بريح (١٤)

وأخذ الطولونيون أنفسهم ومن يتصلون بهــم بتقاليد معينة ، نقلوا كثيرا منها من التقــاليد العباسية في بغداد • فقد جعلوا من الأعياد وبعض المناسبات مواسم للاحتفال واشــاعة السرور • وألفوا فيها أن يتبادلوا الهدايا : على اختــلاف أصنافها ، وعلى اختلاف مراتبهم • فلا فرق بين كبير وصغير في تقديم ما شاء واستطاع من هدايا واجب تقبلها •

فكان الأمير يهدى من حوله الدنانير الحديثــة الضرب كما يفعل كثير في هذه الأيام ، اذ يحب أن تكون « عيديته » من الأوراق الجديدة التى لم تستعمل بعد • وهكذا يقال (١٥) : أهدى بعض بنى طولون الى المريمى في يوم عيد هدية فيهـــا دنانير جدد من ضرب السنة ، فكتب اليه المريمى شعرا طويلا ، يقول فيه :

لم ترض نيلا جاء يسبق موعــدا
حتى وصلت النيل منك بموعــد
ورأيت في بر اللسان ــ وان حلا ــ
مذقا اذا لم تبله بر اليــــد
فحبوتنى بعيون وشى مونق
معه حباء من عيون العســــجد
من كل ذى وجهين لم يقنــع له
في الحسن صانعه بوجه مفـــرد
واشتق من الوثين مشرق لونــه
من أصـــفر في أحمر متوقد
لا روح فيه ، وما لذى روح غــنى
عنه ولا صبر اذا لم يوجــــد
مولى لمكرمة ، وعبد مهيبــة
وترى له الأحرار مثــل الأعبــد

وكان الشعراء يهدون الأمراء مدائحهم • ولكن بعضهم ــ ممن اشتدت صلتـــه بالأمير وقرب الى نفسه ــ كان يقرنها بهدايا أخرى نفيسة • فقد أهدى المريمى الى خمارويه في يوم عيد مرآة ، وكتب معها (١٦) :

ولما أتى عيد عليك مبــــارك
تقابل فيه طالع السعد لا النحس

---

(١٣) ولاة مصر ٢٦٢

(١٤) أى لم يثنــه طير يدل على التشـــاؤم أو التفاؤل

(١٥) التحف والهدايا للخالدين ٦٤ القاهرة ١٩٥٦

(١٦) التحف والهدايا للخالدين ٢٠

ولم أرض مدحي وحده لك تحفة
وان كان وشيا لا يدنس باللبس
بعثت بأخت البدر والشمس،والتى
رأيت لها فضلا على البدروالشمس
بأحسن مرآة لأحسن طلعة
غدت طينة للمجد فى صورة الانس
مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى
ومنطقة فى وصفها ألسن الخرس
بحيرة نور موجها متدافع
وليس لها غير التألف من حس
لها نور افرند ورونق جوهر
يكدره أدنى التنفس واللمس
صفت،واستوت بالماء والناروا كتست
من اللين ثوبا وهى كامنة اليبس
أتتك محلاة تزف كأنها
عروس توافى بعلها ليلة العرس
ولم أهدها الا ونفسى تحبها
ولكن نفسى آثرتك على نفسى

وعثرت على نصين للمريمى من الاخوانيات ، اى الشعر الذى يتبادله الأصدقاء فيما يكون بينهم من أمور • وكان المريمى فى النصين محتاجا الى شىء ما ، فاختار صديقا له بعث اليه أبياتا يكشف فيها عن حاجته ، ويلتمس منه أن يبعثها اليه • كتب الى صديق كان يشرب معه النبيذ ثم أقلع عنه : (١٧) :

ان كنت تبت عن الصهباء تشربها
نسكا ، فما تبت عن بر واحسان
نب راشدا ، واسقنا منها ، وان عذلوا
فيما فعلت ، فقل : ما تاب اخوانى

ويكشف الرجل فى هذين البيتين عن روح عذبة ، نفتقدها فى الأبيات السابقة • ولكنها تتجلى ثانية فى قصيدته التى استهدى فيها تكة من ابن عبد كان ، وبدأها بقوله (١٨) :

يا سيدى ومؤملى
ان خفت من عنت الليالى
أشكو اليك مصيبتى
فى تكة كانت جمالى
لعب البلى بجديدها
فكأنها دمن بوالى
ولديك منها عدة
نخب من التكك الغوالى

ويمكن أن نقرن بهذين النصين الأبيات التى استهدى فيها من خمارويه خيمة (١٩) ، ويبدو أنها تدل على تطور العلاقة بين الرجلين وبلوغها مبلغ الصداقة أو ما يقاربها •

وعندما نمعن النظر فى جميع النصوص التى تحدث فيا المريمى عن الهدايا : طلبا وعطاء ، نجدها تسير على نمط واحد ، اذ يعتمد فيها على أمرين : المدح والوصف • أما المدح فيوجهه للمهدى ، وأما الوصف فخاص بالهدية ، يحاول أن يعطى صورة شاملة جذابة لها • ولكن هذه الظاهرة لا تقتصر على المريمى وحده ، بل تكاد تعم شعر الهدايا كله ، كما يبين من كتاب التحف والهدايا •

ولكن مؤلفى الكتاب المذكور فطنا الى ظاهرة أخرى اشترك فيها المريمى مع جماعة من الشعراء كان رائدهم البحترى • فقد عمد هذا الشاعر الى سد السبل جميعا أمام اعتذار من يطلب منه الهدية ، وكشف له عن رضاه بجميع الاصناف منها ، واطنب فى وصف صنف صنف منها • فتبعه فى ذلك بعض الشعراء الذين كان المريمى واحدا منهم •

قال الخالديان (٢٠) : استهدى البحترى من أبى جعفر محمد بن عبد الحميد فرسا وبغلا فقال :

فأعن على غزو العدو بمنطو
أحشاؤه طى الكتاب المدرج
أما بأشقر ساطع أغشى الوغى
منه بمثل الكوكب المتأجج
متسربل شية طلت أعطافه
بدم فما تلقاه غير مضرج
أو أدهم صافى السواد كأنه
تحت الكمى مظهر بيرندج

(١٧) زهر الآداب للحصرى ١ : ٤٥٤ القاهرة ١٩٥٣
(١٨) التحف والهدايا ٨٢
(١٩) التحف والهدايا ٢٩٤ ، والمغرب ٢٧١
(٢٠) التحف والهدايا ٧٨ — ٨٣

ضرم يهيج السوط من شؤبوبه
هيج الجنائب من حريق العرفج
أو أشهب يقق يضيء وراءه
متن كمتن اللجة المترجرج
تخفى الحجول ولو بلغن لبانه
فى أبيض متألق كالدملج
أو أبلق يلقى العيون اذا بدا
من كل لون معجب بنموذج
جذلان تحسده الجياد اذا مشى
عنقا بأحسن حلة لم تنسج (٢١)

فالبحترى راض بالأشقر أو الأدهم أو الأشهب أو الابلق ، واصف لها بأحسن الصفات . وقد حذا الصنوبرى حذو البحترى فى هذه المعانى فقال يستهدى نعلا :

متى تتدارك نعلى ألا
فقد ذهبت أو بدت تذهب
بسوداء ذات بريق تراه
كالآل من فوقها يلعب
والا فصفراء كالشمس حين يجللها ثوبها المذهب
والا فبلقاء قد وشحت
بنقش كما وشح المشجب
والا فدكناء عرسية
يشاكلها العنبر الأشهب
والا فحمراء لون الشقيـ
ـق ان كان هذا فذا أغرب
والا فصهباء ما ان يزا
ل ينافسها السوسن الاصهب
ولو كنت أعرف خضراء قد
ت كالماء دبجه الطحلب

وعلى البحترى ومعانيه عول المريمى فى استهدائه التكة من ابن عبد كان :

فابعث باحداهن لى
حمراء مثل دم الغزال
أو جد بها صفراء مثـ
ـل الشمس فى وقت الزوال
أولا فبيضاء القميـ
ـص كأنها رقراق آل
ومتى بعثت بها مـ
ـورد لعبدك لا يبالى
والخضر لون أشتهيـ
ـه وأرتضيه بكل حال
ولئن أتت خمرية
فقد اعتقدت بها وصالى
أو فلتكن زرقاء تشـ
ـبه زرقة الماء الزلال
وتجنب السوداء فهـ
ـى تعد فى السقط الرذال
والعيش فى منقوشة
كأكف ربات الحجال
هبها وخذ حظى بها
ألا تحل على حلال

والخالديان محقان فيما تنبها اليه ، غير أنى أحب أن أغير فى عبارتهما بعض الشيء فأستعيض عن قولهما « معانيه » بـ « نهجه » . فالمريمى لم يعول على أى معنى من معانى البحترى ، ولم يلتق به فى أية صفة أو فكرة أعلنها ، وانما الالتقاء به الشعراء الثلاثة فى الاتجاه الذهنى ، والمسلك التعبيرى الذى التزموه . ونتبين من القصائد الثلاثة أن البحترى أعظمهم الحاحا على الوصف ، وتتبعا له ، فلم يقتصر على اعطاء كل صنف بيتا واحدا بل أعطى الأبيات ، على حين لم يفعلا ذلك محتذياه ، فيما يبدو . ونتبين أيضا أن البحترى أجزلهم ، بينما يتمتع الآخران بقدر أكثر من خفة الظل .

واذا أمكن لنا أن نعتذر عن الشاعر فى اتباعه نهجا واحدا فى الشعر الاخوانى فما أظننى قادرا أن أفعل ذلك فى شعره الحربى . فالناظر فى قصيدتيه اللتين أشاد فيهما بانتصارات خمارويه يلاحظ الظاهرة نفسها تتكرر فيهما . ولا شك أن ذلك يدل على ضيق باع الرجل ، مهما تماثلت الأحداث فى الحروب .

ونلمح فى بعض شعر المريمى آثار لثقافة كان الرجل على معرفة بها ، وأعنى بذلك : الثقافة العربية المتصلة بالتراث الشعرى . فالصلة

---

(٢١) اليرندج : السواد به الخف ، وشؤوب شدة العدو ، العرفج : نبات طيب الرائحة ؛ اللبان : الصدر ، الدملج : السوار ، العنق ضرب من السير سريع فسيح .

قريبة بين الشطر الأول من قوله :

وان هم بالسير لم يثنه

سنيح يعن له أو بريح

والشطر الأول من قول كثير (٢٢) :

اذا ما أراد الغزو لم تثن عزمه

حصان عليها نظم در يزينها

والشطر الثاني وليد ما كان شائعا بين العرب القدماء من التطير والتفاؤل بالطير ·

ونلمح في شعره آثارا للصنعة الشعرية التي شاعت بين شعراء عصره · فقد اعتمد على لون ساذج من الجناس – ولكنه عذب – في بيته الذي وصف فيه أرقه وعذابه (٢٣) :

سهاد – حين يسرى الطيف – يسرى

ودمع – حين يجرى الذكر – يجرى

واشتق من اسم البلدة التي وقعت فيها المعركة بين خمارويه وابن كنداج فعلا يتجانس معه ، كما فعل في عقد الجسر أيضا ، فقال :

فابلس اذ قيل : الأمير ببالس

وأضحى ضعيف العقد اذ عقد الجسر

ولكنه – يبدو – كان أكثر ولوعا بالطباق والمقابلة · نلاحظ ذلك في البيت السابق ، وبين المشرق والمغرب من القصيدة نفسها ، وبين الشطرين الأول والثاني من قوله :

لئن سر اسحاق النجاة بنفسه

لقد ساءه في جمعه القتل والأسر

وقوله :

لئن كان ولى سليما صحيحا

فما القلب منه سليم صحيح

وفي قوله : « يحوط حمى ، وحمى يستبيح » وفي كثير من ألفاظ سينيته ·

وليس هذا بالأمر الغريب ، فقد كان شعراء القرن الرابع يحبون هذه الزخرفة ، منذ أولع بها أبو تمام · وكان المريمى يرى في شعره « وشيا جديدا بألا يبتذل » ، قال :

ولم أرض مدحى وحده لك تحفة

وان كان وشيا لا يدنس باللبس

ويبدو أن المريمى وصل الى مرتبة غير منخفضة في الفن الشعري ، والصنعة ، مما جعل الناس يحافظون على قصائده ويسجلونها ، وكتاب المغرب يصفه بالشهرة كلما تعرض له ، قال عنه (٢٤) : « من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم » ·

وقد أعجب الثعالبى ببيت له في وصف الرسائل البليغة ، قال (٢٥) : « أحسن ماسمعته في ذلك قول المريمى هذا :

يطوى ، وليس بمطوى ، محاسنه

فالحسن ينشره والكبر يطويه »

وان كان فضل عليه بيتين لشاعر آخر غير ذى شهرة قال : « وأحسن منه قول ابن منديه الأصفهاني

يكرر طورا من قراه فصوله

فان نحن أتممنا قراءته عدنا

اذا ما نشرناه فكالمسك نشره

ونطويه ، لا طى السآمة بل ضنا

وختام القول في القاسم بن يحيى المريمى أنه الشاعر المصرى ، الذى أكثر خمارويه الاحسان له ، فاختص به ، وأشاد بانتصاراته ، وشارك في حياة المجتمع المصرى · وبارى الشعراء الذين اتصلوا بأميره ، مهما سمت مرتبتهم · واطلع على التراث القديم والحديث ، فاحتذى آخر ما ابتكره الشعراء من مسالك شعرية ، واغترف من التراث العربى ، وتأثر بالطبيعة المصرية ، وصور بعض مشاهدها واستلهمها كما فعل مع النيل · وطال نفسه ، فطالت قصائده ، حتى في بعض القصائد التي لا تستحق الاطالة عادة ·

فلا جرم أن يكون أهلا بلقب « شاعر خمارويه »

ولكن شاعر خمارويه عاش طويلا بعد أميره ، فيما يبدو · فقد كتب بعض المعلقين في حواشى مخطوط ولاة مصر أن المسبحى – المؤرخ المصرى – ذكر أن المريمى توفى في سنة ٣١٦ هـ · وكان مقتل خمارويه في سنة ٢٨٢ هـ · فماذا فعل الشاعر أو قال طوال هذه المدة ؟ ·

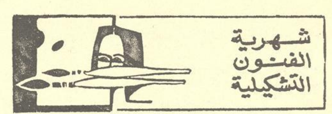
انه سؤال سيبقى بقاء السؤال : ماذا كان الشاعر يفعل قبل الاتصال بخمارويه ؟ · الى أن تقذف لنا بطون الكتب بمعلومات جديدة نضيفها الى ما عندنا ، وتزيح بعض ما يغطى جوانب حياته من ظلام ، ونصعد به الى ما تمتع به في حياته من الضياء والبروز والشهرة ·

(٢٢) ديوانه الجزائر ١٩٢٨ : ٢ : ٣٤

(٢٣) المختار من بشار للخالدين ٢٧٠

(٢٤) ١ : ٢٧١

(٢٥) « الثعالبى من غاب عنه المطرب » (التحفة البهية) ٢٣٤ استانبول



يقدمها : بدر الدين ابو غازى

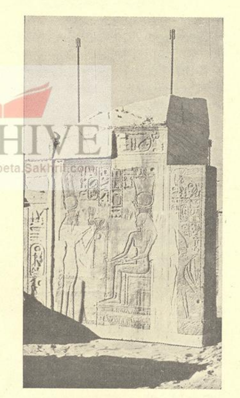
عندما تحرك الجبل

كانت مصر عند جلالها فى ذلك اليوم الذى تلاقى فيه على ربوة معبدى « أبو سمبل » ممثلو الهيئات الدولية والمنظمات الثقافية وحكومات عديدة من دول العالم ليشهدوا معجزة من معجزات الحضارة الانسانية القديمة تضافرت على انقاذها حضارة الانسان الحديث وعلمه وتقدمه التكنولوجى .

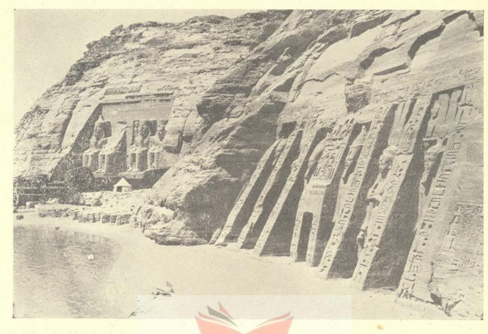
هى لحظة رائعة فى تاريخ مصر كانت جديرة بأكثر مما أعد لها على روائه وفخامته ... لحظة تمثل فيها تجرد الانسان من محليته ونظرته الاقليمية وارتفاعه الى العالمية ... الى المعنى الانسانى الكبير ليصون أثرا وان انتسب الى مصر الا أنه يمثل قطعة عزيزة من التراث الانسانى ... هذا هو معنى شمول الرؤية وتضافر الفكر والارادة وانتصار الانسان بالعلم وبالمقدرة على ما يتهدد صروحه ومشيداته العظيمة .

ولقد تجلى معنى هذا الانتصار أشد روعة لمن عاصر الأيام الطويلة التى كان أمل انقاذ « أبو سمبل » يبدو فيها خافتا متردد الخطى .

ففى سنة ١٩٥٤ حين تبلورت فكرة اقامة السد العالى كان غرق معبدى « أبو سمبل » وآثار النوبة يتجسم كواقع حزين .. وكنا نتساءل فيما نكتب حينئذ أيلقى المعبد الصخرى العظيم مصير قصر أنس الوجود وهل من سبيل



كتلة من المعبد الصغير



المعبدان قبل قبل ان يبدأ العمل

لانقاذ أحد أعمدة الحضارة المصرية قبل أن يغمر الماء بعض معالم وجه مصر .

وفتح الدكتور سيد كريم حينئذ مجال الاجتهاد الهندسي بما تقدم به من مقترحات لانقاذ الأثر العظيم الذى جعل شامبليون عند رؤياه يقول « اننا أقزام أمام هؤلاء العمالقة » .

وفى سنة ١٩٥٥ ذهبت بعثة من مصلحة الآثار الى بلاد النوبة للنظر فى انقاذ ما يمكن انقاذه من الآثار الخالدة فى هذه البلاد قبل تنفيذ مشروع السد العالى .

وعاد رئيس البعثة فأعرب عن أمانى رجال الفن والآثار فى انقـاذ معبد أبو سمبل ومعبد فيلة ولكنه ذكر أن الوقت لا يسمح بالتردد اذا اقتضى الأمر التضحية ببعض هذه الآثار .

وارتفعت صيحتنا فى هذه الأيام تشير الى ضرورة انقاذ معبد أبو سمبل فهو مثل الكولزيوم لروما والأكروبول لليونان وهى جميعا تراث مشترك للحضارة الانسانية ، وما بالعسير على

عبقرية الهندسة أن تجد السبيل للابقاء على آثار الفن الى جانب مشروعات الصناعة .

وكنا ننادى بان شعارنا يجب أن يتحول من انقاذ ما يمكن انقاذه الى انقاذ مالا يمكن انقاذه حتى نصل الى أقصى ما تستطيعه ارادة العلم وقدراته .. ولكن هذه النداءات ذهبت كرجع الصدى .

ومضت الأيام الى أن ولى الدكتور ثروت عكاشـــه أمر وزارة الثقـافة فاعتنق الفكرة بحماسته الفياضة وايمانه الدافق الذى غرس بـــه فى أرض مصر أروع الفنون خـلال هذه السنين .

وبمقاييسه التى لا تؤمن الا بالجليل من الأعمال وباحســاســه باحتياجات هذا المشروع الخطير نقل حماسته الى اليونسكو بندائـه التاريخى الذى حرك المنظمة العالمية ، كما أنه حمل الى السيد الرئيس فكرتـه ومشروعـه فأحاطه برعايـة وتأييد تمثل فى رسـالته التى وجهها بمناسبة النداء الدولى لهيئة اليونسكو

حين قال « يوم يكتب لهذا المشروع النجاح سيكون لكم ولكل جهد بذل ، ولكل عقل فكر ، سيكون لكل حكومة أو هيئة عامة أو خاصة أو مؤسسة أو شخص فضل فى العمل على تأييد الثقة فى امكان تعاون انسانى مثمر بين أمم الأرض جميعا » .

وبدأت الحملة الدولية لانقاذ تراث النوبة وبدأ معها الفكر الهندسى يقدم وسائله وأدواته الى ان استقر الرأى على الأخذ بمشروع نقل المعبدين الى قمة الجبل الذى نحتا فيه بعد تقطيعهما أجزاء تجاوزت الألف قطعة ، واستخدم العلم أقصى امكانياته لحماية المعبدين عند تقطيع صخور الجبل الذى يعلوهما .. غطيت واجهة كل معبد بالرمال واقيم نفق اتصال من الالمنيوم يؤدى من الخارج الى داخل كل معبد .

الكتابة السومرية

وتعاون العلم الهندسى مع العلم الاثرى على الاحتفاظ لكل قطعة بمعالمها وترقيمها حتى يسهل اعادتها الى موقعها الطبيعى من البناء .

وتحرك جبل أبوسمبل من موقعه الطبيعى الى مكانه الجديد واعيد بناء الجبل فوق المعبدين ليتخذا شكلا قريبا مما كانا عليه .

واقيم فوق كل معبد قبة خرسانية كبيرة تحمل تلال الركام الصخرى وهى أول قبة فى العالم تحمل فوقها هذه الأطنان الضخمة من الصخور ...أن وظيفة القباب فى العمارة أن تكون ذروة للبناء ولكنها فى معبد رمسيس سياج يحيطه وتخفيه الصخور ، هى معجزة من معجزات الهندسة الحديثة أضافت الى معجزة نحت هذا المعبد فى صميم الجبل صورة من قدرة الانسان الحديث وعبقريته .

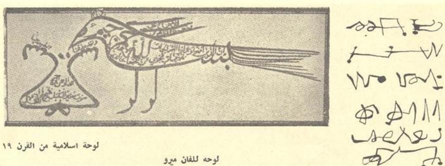
لقد كان فن الرعامسه من فنون المرحلة المتأخرة من تاريخ مصر القديم ... ورمسيس الثانى هذا الملك العجيب الذى استطال حكمه الى ٦٧ سنة كان حاكما طموحا مارس الحروب وارتفعت تطلعاته الى أن أعلن نفسه الها ومجد ذاته الى جانب الالهة التى أقام لها هذا المعبد الكبير حور اختى رب المشرق وآمون اله طيبة وبتاح اله العلم والمعرفة ، وحشد هذا المعبد بالنقوش التى تمثل معاركه وحروبه .

أما المعبد الصغير « معبد زوجته نفرتارى » فأكثر رقة وايحاء بالسلام تظله الآلهة حتحور ربة الخصب والنماء يعلو هامتها تاج قرص الشمس .

ان عبقرية فن رمسيس تتمثل فى الضخامة الشاهقة .. فى النحت العملاق الذى نثره على ارض الوادى من النوبة حتى البدرشين .. حيثما ذهبت ترى آثاره أقيمت لتفرض وجودها . هو فن عظيم مميز من هذه الناحية ..



من وحى الحروف العربية – بول كلى



لوحة اسلامية من القرن ١٩

لوحه للفان ميرو

قد لا تكون لنقوشه روعة النحت المصرى الفائر فى الدولة القديمة ولا سحر معبد سيتى فى العرابة المدفونة ولكن قوته فى النحت الكبير وعبقريته في توغله فى هذا الجبل ونحت آثاره فيه بعد أن نقل عبر ثلثمائة من الأميال أحجار تمثاله الجرانيتى الذى أقامه فى تانيس وتمثاله الحجرى فى ميت رهينه حيث يبدو الانسان صغيرا أمام راحة قدمه أو قبضة يده .

لقد سجل عصرنا عبقرية أخرى حين حرك الجبل العتيد من موقعه .

ولكن هل ينتهى الأمر بتحرك الجبل أم ان هذه المنطقة القاصية فى حاجة الى فكر يحقق لها ازدهارها السياحى والفنى .

ما أجدر هذا الحدث بأن توجه له عبقرية الفن والموسيقى لابداع أوبرا على غرار أوبرا عايدة لفردى تعد وتؤدى ولو أحيانا فى هذا المكان على ربوة المعبد وتسجل الاحداث العميقة القريبة فى حياة ذلك العصر والملك .

عمل قد يستغرق جهدا ووقتا ولكنه حين يقام يسجل مجدا فنيا آخر ..وحيثما اديت هذه الأوبرا فانها ستجذب الأنظار الى هذه البقعة البعيدة عند البحيرة القائمة خلف السد تحيطها صخور النوبة .

كذلك فان المنطقة فى حاجة الى دراسة امكانياتها الاقتصادية لتحيا على استمرار وتنتعش .. لم لا يهجر اليها بعض أهالى النوبة الذين ألفوها وعاشوا قبالتها وابدعوا اروع فنونهم .

ولم لا يبدأ التفكير فى اقامة متحف للنوبة مدينة سحرية تحوى نماذج من بيوتهم الرائعة ونماذج من فنونهم يرتادها السائحون ليروا عبقرية شعب فرض مشخصاته على الحياة والفن .

ان هذا الحفل الذى أقيم عندما تحرك الجبل ليس الا بدءا ينبغى أن يكون مفتتحا لدراسات وأبحاث، ماأجدره بعملة تذكارية تصدر وتباع فى دول العالم وبمجموعة من طوابع البريد وبأفلام ومؤلفات ، وما أولانا وهذا التراث فى أعماقنا ـ أن نجتذب اليه العالم بكل السبل حتى تعقب عملية الانقاذ عملية أحياء للنوبة وتراثها .

معرض فن الكتابه :

نظم اليونسكو بالاشتراك مع وزارة الثقافة (الادارة العامة للفنون الجميلة) معرضا من أهم معارض الموسم الفنى هو معرض فن الكتابة الذى أقيم بقاعة الفنون الجميلة بباب اللوق خلال شهر سبتمبر .

والحقيقة التى تطالع زائر هذا المعرض كما قال الأستاذ اتيمبل فى مقدمة الكتالوج الذى أعدله هو أن الكتابة اساس ترتكز عليه الحضارات كما انها الضمان لاستمرار بقائها وان الحضارات أثناء اختراع الكتابة وبلورتها اجتهدت فى أن تجعل منها فنا وحققت ذلك بنجاح .

وهذه هى الحقيقة التى تطالع زائر المعرض من خلال خمسين لوحة جمعت مئات

الصور التى نسقت بذكاء استهدف تأكيد حقيقة أن الكتابة عمل فنى تمتزج فيه المتعة بالفائدة .

يستعرض المعرض الكتابة منذ عرفت أداة للتعبير ويكشف عن التجانس بين مختلف حروفها وبين الجمال ويلقى شعاعا على ارتباطها بالفن في أشكاله المختلفة بالتصوير فى الصين حين كان الخطاط ارفع منزلة من المصور ، وبالعمارة فى الفن الاسلامى حيث الكتابة مكمل وعنصر تشكيلى أصيل بنماذجها فى سومر وبرموزها النابضة بالحياة فى مصر القديمة . ويدلل المعرض على تأثيرات انعكست وتدوولت عبر البلاد والعصور .. كأثر الخط الكوفى التعبيرى فى تجريداته المختلفة على الفن الحديث كما يبدو فى فن موندريان .. وأثر الكتابة العربية فى أعمال بول كلى .

ويتناول المعرض حرفية الطباعة وما قد تؤدى اليه من تأثير على القيم الجمالية فى الكلمات المطبوعة .. وهى احدى المشكلات التى عرض لها مؤتمر انخط العربى الذى عقد بالقاهرة فى يوليو ١٩٦٨ وافردت المجلة لأبحاثه قسما خاصا .

ويدل المعرض على أن كل الكتابات من الكتابة السحرية الى أوراق النقد ... من الحروف الدينية الى الاعلانات المضيئة يمكن أن تقدم صياغات جميلة . فمن خلال سياحة عبر ستة آلاف من السنين يدلنا المعرض على ان الكتابة كانت مصدراً لأنماط من الجمال الفنى .

ويكشف تحميض الحروف من خلال الواح المعرض ككائنات حية لها فرديتها ولها ذاتيتها عما فيها من امكانيات الرمز ومن ايحاء جعل من الخطوط فنا مميزاً ومجالا لابداع لوحات فنية .

كما ان أثر الكتابة على الفن وبخاصة الفنون الحديثة يبدو فى نماذج من لوحات التكعيبيين حين استخدم جورج براك وبابلوبيكاسو وجوان جرى الحروف فى لوحاتهم اما برسمها واما باسلوب الملصقات الذى كان سائداً في أوائل القرن ...

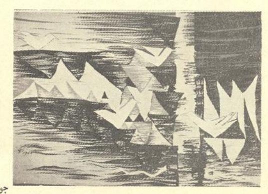
وجاء بعد التكعيبيين بول كلى وفيركمان وروشنبرج وغيرهم فضاعفوا من الحروف تكوينات فنية مجردة أو أدمجوها فى العناصر التشخيصية من لوحاتهم أو مزجوا بين الخطوط الحرة الصريحة والحروف المتحركة كما فعل المستقبليون .

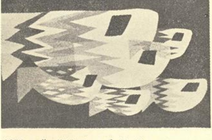
ان معرض فن الكتابة الذى بذل اليونسكو فى اعداده جهدا ملحوظا متعة فكرية وفنية كانت حقيقة باهتمام اكثر لو أحسن لها التوقيت .

المعرض الرومانى للسجاد والنسجيات :

وقبيل معرض فن الكتابة أقامت الادارة العامة للفنون الجميلة والمتاحف بقاعة باب اللوق المعرض الرومانى للسجاد والنسجيات .

ويضم هذا المعرض نماذج من انتاج بعض الاقاليم الرومانية ترجع الى القرن التاسع عشر وهو انتاج يكشف عن التقاليد القديمة لهذا الفن





جيتا براتسكو ـ هجرة الاسماك (١٩٦٤

جوازيلا ستويكتيا ـ شجرة الحياة (١٩٦ز)

فى رومانيا وعن فن أصيل من فنون الفلاحين فى تلك البلاد .

وتتنوع هذه النماذج فى ألوانها وزخارفها سواء مثلت صورا من حياة الأقاليم الرومانية أو تحولت الى وحدات هندسية يربطنا بعضها بفنون البلقان وبفنون الشرق الأوسط ويكشف عن علاقات بين هذا الفن وفنون تلك البلاد .

وشق فن السجاد الرومانى طريقه الى انتاج النسجيات المرسمة المعاصرة ، تلك التى شهدنا نماذج رائعة منها فى المعرض الفرنسى الذى أقيم هذا الموسم فى فندق سميراميس .

وقد صيغت من هذه النسجيات أعمال لبعض الفنانين الرومانيين تميزت بالابداع والخيال ، وفى هذا المجال قدم المعرض نماذج من الانتاج المعاصر من ابداع مجموعة من الفنانين الرومانيين تمثلت فى أعمالهم طرائق هذا الفن واستيحاءاته من التراث وكذلك تأثره بفنون المعاصرين على أن معظم هذا الانتاج المعاصر لم ينفصل عن البيئة الزراعية التى صدر عنها سواء عبر عن هجرة الأسماك أو الطيور أو جنى العنب أو ترجم قصائد الشعراء الى رموز تشكيلية .



جرافيلا ــ فارس (١٩٦٥)

معرض الحرانية : ــ

وبمناسبة عيد الفلاح نظم المركز الثقافى التشيكوسلوفاكى بالقاهرة معرضا لفنون الحرانية ، هذه القرية الرابضة على مشارف الأهرام والتى أصبحت من مشخصات مصر الفنية بعد أن بهرت العالم بفنون فلاحيها منذ أقاموا بسويسرا معرضهم الأول سنة ١٩٥٨ وبعده تتابعت معارضهم فى السويد وامستردام وكوبنهاجن والمانيا وبمتحف الفنون الزخرفية بباريس وهاهى ذى لندن تتهيأ لاستقبال معرض من انتاجهم .

ولقد بدأت تجربة الحرانية منذ اختار المهندس رمسيس ويصا واصف وهو من المؤمنين بالعبقرية الشعبية فى الفن هذا المكان ليجرى فيه تجربة اكتشاف للمواهب الكامنة فى نفس صغار الفلاحين وأعانته زوجته على المضى فى تجربته .

فى البدء اقتصرت التجربة على مجموعة من النسجيات الصغيرة من ابداع فتيات القرية ثم أقبل الصبية على التجربة اذ جذبتهم اليها منجزاتها التى تحققت .

وما لبثت التجربة أن نمت ، وأخذ العالم بروعتها وأصالتها وبهذا العالم الشعرى النابع من ذات الفلاحين ومن صميم وجدانهم ومن المشاهد والموضوعات التى يتمثل فيها محصلة حياتهم .. أنهم يعزفون موسيقى الشكل واللون فى ثقة

من اعمال فلاحى الحرانية

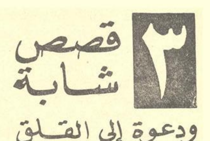
غريبة بأنفسـهم ·· يبدعون العمـل الكبير فى بساطة وتواضع ·· وفى أناملهم نورانية لا تخطىء السبيل الى وميض وجدانهم ·

ان تجربة الحرانية هى تحية ذات دلالة فى عيد الفلاح ·· اشـارة الى العبقرية التى حفظت حضارة مصر وسجلتها ·· والى المنابع التى فاضت على الحياة رهافة وفنا الى أن نضبت حين أعرضنا عنهـا وأغرقنا الريف بنماذج من أدوات الحيـاة الرخيصة الهابطة ·

يستطيع الفلاح لو أتيح نه اعادة اكتشاف ذاته أن يمارس انسانيته ويبدع أدوات حياته من مسكنه الى فراشه ···

هى ضرورة اقتصادية كما هى ضرورة فنية يعود الفن القروى والصناعات الريفية الى ابداعها دون دخيل من النماذج التى تفرض عليها ·





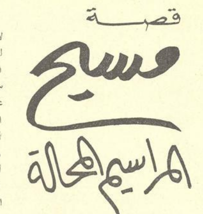
٣ قصص شابة ودعوة إلى القلق

راكب الطائرة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ينظر الى البحار والجبال تحته ويخيل اليه أن مركبته البراقية لا تتحرك · والصبى المراهق ينظر الى استطالة عظامه وانتفاخ عضلاته ويخيل اليه أنه ينمو ببطء شديد · وعلى هذا القياس فان الشعور بالجمود لا يمكن اعتباره دليلا على بطء التغير ·

والذين خيل اليهم منذ بضع سنوات أن القصة القصيرة قد جمدت أو ماتت، خضعوا فى أغلب الظن لوهم كوهم راكب الطائرة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت · ونحن لا نريد بهذا القول أن نبعث الطمأنينة أو نتملق الرضى عن النفس · فقانون النسبية نفسه كما يفسر لنا أن الحركة الخاطفة يمكن أن تبدو جمودا ، ينبهنا الى أن الاحساس بالسرعة قد يكون ناتجا عن الانتقال من حالة البطء أو الركود · وعندما تسود الطمأنينة ويهدأ القلق ينتفى الدافع الى الحركة · لهذا تفتح المجلة صدرها للشباب القلق أبدا ، المتوثب أبدا ، مؤمنة أن المخاطر الذى يرتاد آفاقا جديدة ، هو وحده الذى يستطيع أن يؤدى رسالة الانسان فى تغيير العالم ·

المجلة

- مسيح المراسيم المحالة
- الطوفان
- المرآة المعتمة



« الى ذلك الصوت الذى يساوى ما كانه صوت الله ...
والذى فقدته أيضا . »

بقلم
محمد ابراهيم مبروك

فى البدء لم يكن . حتى اللاشىء لم يكن موجودا ، لا الصوت ولا حتى الصمت . فكيف ولدت يا رفيف الضوء لتترجل في الدروب التى لما تجف دماؤها بعد ، تبذر فى العيون المظلمة بذور شجيرات النور ، تصرخ تظن أنه سيستيقظ انسان ، أفنيت أضواءك لتضىء طرقات انقطعت عنها خطوات الكلمات ، فقدت كفيك لما غامرت بطرق عالمهم الغريب وصرخت يا أبت : ما أتاك . حدقت فيهم : ما سمعوك أدرت وجهك نحو الزيتون : فجعل ينتحب فى الصمت ، وينضج المرارة فى كل حصاد . كان صليب العالم أن يذكرك العالم ، لكنهم جوعى ، نسوا الحزن فأكلوا الزيتون ، ومن يومها وهم يجمعونه من مواسم الأعوام ، ويملحون صوتك فى أحواض البحار الميته ، ثم يأكلون جسدك المنهك مطوحين بالعظم . ولقد جعت فحدقت فى الزيتون يوما مثلهم ، لكنى رأيت النحيب فنسيت الجوع ثم فقدته ، وأمعائى تتقلص طاردة مجرد التصور ، فاكتفيت بأن أشبع كلما شممت زيتونة ، ثم تنبهت الى أننى صرت أقتات الحزن ، ماضغا فى بطء مرارة الكلمات التى ماتت ترجو الدخول ، على عتبات الآذان الطينية :

مصلوب الآن على لا أرضك (*) لم أصرخ ، لكنى لم أملك ألا يسقط منى رأسى فوق الآن ، مجبراً على تحمل قدر الوقوف على قدمى الحائرتين فى اكتشاف طريقة آمنة للوقوف ورأسى يحترق بيقظته ، يواجه بوضوح حاد تكوم الجثة التى حسبت أننى نسيتها ، فاذا بى أفاجأ بأننى كنت فقط نائما بالنهار ، فجعت لما اكتشفت أن التناوم لم يعد يجدى فى الهرب من الجثث ، اذ ما فائدة أن نهرع ونطفىء الأنوار ونختبىء فى الأسرة ونسحب الاغطية حتى نخبىء رؤوسنا بأكملها ، ما دمنا فى النهاية نفاجأ بأن لا النوم ، ولا اغماض عيوننا تحت الأغطية يحمينا من توغل الادراك لبشاعة القابع فى داخلنا ، يحدق فينا بثبات كما لو أنه يرى فى الظلمة بوضوح ، مع أن ملايين عيونه مغمضة ، الا أن تحديقه الأعمى يفزع النوم ، ويجعل الغطاء يتطاير والاسرة تتقلص تحتنا ، ونحن نرتعد ببرودة التحديق الثقيل فنضطر الى أن نستسلم لعيوننا التى تنفتح كمصراعى نافذة بلا هوادة ، فتصلب عيوننا على التحديق دونما قدرة على النزول . وأحاول فى يأس يتكرر باستمرار تبين ذلك الصوت الغادر الذى يهرع قادماً مجنونا دونما قدرة على تتبع مجىء واختفاءات لونه السريعة أو الفرار منه كما لو ( ) . لماذا تصفعين جبهتك وأنا أتكلم ؟ لا تفهمين ما أقوله ؟ غريب ألا أتوقع

(*) مساحات صمت تتخلل الكلمات وهى ليست فاصلا ، بل انها امتلاء غير مرئى لكل ماتعجز عنه اللغه المنطوقة المحيطة بها .



ذلك بالذات اذا كنت لم يحدث لك يوما أن تقلبت من دخلكعلى جمرات جحيم العالم المفعم برائحة شواء البشر · وسوف أصرخ لو ادعيت أنك حتى لم تشمى رائحة شواء البشر · لم يحدث ذلك أيضا ؟ يا للمصيبة · مع أن أغرب ما فى عالمنا أنه المحور الوحيد الذى يدور حوله العالم ، أقصد سيخ الشواء · لذلك تجديننى لا أستطيع تحمل الوقوف به وهو دائما يدفع الى داخلى · وما أطول ما عشت أدور به مع جنون استعار النار التى تشتعل تحتى ، صاعدة فى انتشار فظيع حولى ، متقدمة تجاه الآن لتصل اليه من خلالى حتى أسود · واذا كنت سترهقين نفسك بالتفكير دون أن تفهمى دائما ، فيمكنك أن تحاولى الرؤية ، بشرط الرؤية فقط ، دون صراخ أو اغماء · لأننى لا أطلب منك أكثر من أن تقفى بعيدة ، يحميك من مشاركتى الزمن ، وفقط تديرين عينيك نحو ما صنعه العالم حيث يمكنك أن ترى مومياء مطلقة اللحية ، ساكنة متخشبة على آنيها ، فاعبرى · ولو أننى أعرف أنى لن أتمالك نفسى من الارتعاد وشفتاك يرتعد بحضنهما ولدى فأرتعد كلما حدقت فيما بينهما ووجدتهما مزمومتين · فرجائى أن تعبرى بسرعة خلفى ، وأمل أعرف ألا جدوى منه ألا تتركى فى السواد أثرا · ولو مررت كشمعة منطفئة ، مجنون من تترك يداه حافة النافذة ويستدير ملتفتا مهما بسمعه يئن ويموت بين شفتيك . وسأعلق أصابعى من أعناقها بحافة النافذة ، وأشد على الأعناق الوثاق ،وسأطبق بأسنانى على عنق الغمغمة حتى لا تثير ضجتها ككل مرة ، لأننى اكره أصوات الندب الصارخة ، ولا أطيقها الآن لو حدث أن رأت الغمغمة مسير عينيك ، وصوت ولدى . لأنى أعود هناك ، فى النافذة ، صغيرا وحافيا . لأننا لم نكن نحس بأن الأرض غريبة عن بطون أقدامنا · وأرتدى جلبابا صغيرا وتحته قميصا قصيرا دونما سروال ، لأننى أحب دائما أن أقف أمام البنات ذات الضفائر لأتحدث مع واحدة منهن بالذات · أبحث عنها كلما سقط الليل وأطل فى عينيك فأجدك· آخذك بعيداً وأنت خائفة · آخذ فى الكلام لك فلا تعودى تذكرين الخوف وتتكلمين انت ايضا لى . ونحب أن نفرح ، فيرى كل منا رغبة الآخر فى الفرح فى عينيه رغم الليل · وننحنى معا نصنع من التراب جدرانا بارزة على الأرض المستوية ، تنقطع لجزء فيكون باب · ثم نكمل مربعاً من الجدران ، وبذلك نكون قد صنعنا بيتا لنا بجوار النهر · أتركك تكنسينه وتفرشين حصيراً وهميا ، وتعلقين على الجدار فى الليل مصباحاً وهميا · والغريب يا عذراء أنه كان يضىء · والا فكيف كنت أرى ممحك الصغيرة بكل دقتها ،

بل حتى عينيك وحنينهما الازرق تحت خصل الذهب المهملة على تفاصيلها ؟! • وأدعك لبرهة أذهب خلال نهارها للحقل، أحرثه، وأبذر البذور وأغطيها ثم أنتظر حتى تبيت الشمس لاعود لك• وأدخل وأنا أرسل صوتى منبئا بقدومى ، هاز ساقى بحركة متسقة مع سير الحمار الوهمى الذى يحملنى وأنا أنادى : افتحى يا بنت • وتهرعين صوت الباب لتفتحيه بأكمله راغبة دخولى بلهفة أم • وأندفع متعمدا ألا ألتفت ناحيتك كما يصنع الرجال • وأجلس فتأتين ، وعلى كسر الفخار نقتات العشاء ، ونشبع • وأغرس فى فمى ورقة ملفوفة غير مشتعلة وأنفثها أمامك وأفتل شاربى ويداك تعدان لى الشاى • وعندما تنتهى سيجارتى وتفرغ أكواب شاينا تتثائبين فأفهم • وأخفض صوتى آمرا أمرا حلوا : قومى وطى اللمبه • وكما لو أن الغرفة أظلمت تأتين بجوارى لتنامى فأستلقى على جانبى لصق صدرك • ويفتح كل منا عينيه فى عينى الآخر ونرى السباحة مغرية • ويجعلنا الاغراء نشتعل بالرغبة فنتململ على الساحل ونضحك على التوالى كل منا فى عينى الآخر ، وفى لحظة صمت نبرق بالصمت على أن نسبح معا ، فنرفع معا أطراف جلاليبنا • ولتلك اللحظة كنت أمشى بلا سروال فى شارعنا عند اشتداد غروب ذلك اليوم • أحسست باللص يأتى ففررت هاربا من فخذى أمى لابنى لى معك بيتا ، لكنهم داهمونى بالملابس السوداء مالئين الشارع الذى يمر فى بطن الخضرة منتهيا عند زرقة السماء الكالحة حيث كانت المقابر ترفع رؤوسها المدببة الجهمة ، ورنة الندب عالية محروقة وهم يحملون لى ميتا • صعقت فالتصقت بالحائط وهم يتدافعون أطول منى فالتصق بالحائط أكثر • ظلوا آخذين فى الصوات ، والصوات أعلى منى بكثير ، نافذا فى جسدى كنباح الكلاب التى تجرى خلفى تعضنى • رغم الذعر لم أصرخ• كنت أدرك بذعر أقسى أن صراخى لن يخيف صواتهم فظللت متشيئا بالحائط ، وعندما اختفوا عدت قادرا على الفرار • فأرجوك أن تمضى بسرعة حتى أريح ظهرى المصلوب أمام عينيك • وحتى أكف عن ايلام شفتى كلما سعرت الكلاب وعضتنى دون أن أملك الصراخ فى أفواههم • لكنى الآن أرفع وجهى وأسأل : أليس حراما ان نصلب ؟ وهل تعرفين يا عذراء لماذا حكم بالصلب دائما لا تعرفين ؟ • ولا أحد يعرف للأسف • لكنى الآن أستطيع أن أهمس لك بالسر دونما خوف • لان كلا منه يحاصره زمنه ويحميه • ولذلك فاننى لا أحس بالخوف الآن وأنا أعطيك السر : لان الذى صلبوه لم يكن له أب • ولما لم يجد أحب بجنون أن يكون له ابن ، ليرى أباه فى عينيه • والمصلوب الذى لم يلد ، لانهم عاجلوه بالصلب ، عشق يوما ولذلك صلبوه • فالذين يحملون قلوب اليهود كرهوا أن تعشقه معشوقته وعندما كانوا يرفلون فى ثيابهم المغسولة أمامها ويسمعونها صوت الذهب فى أكياسهم ، كانت تتأفف من النظر نحوهم أو حتى من أن تدير وجهها عنهم • كانوا يسلكون دوما سلوك الافاعى الغريبة •

ومعشوقته أتت مثلك نعم ، ظل بلا معشوقة حتى الثلاثين • أتدرين لماذا ؟ نعم ، كانت أمه عذراء • وظل يحب العذارى ، فى الطرقات ولا يجد •

أذكر كل اللواتى رأيتهن قبلك يا عذراء : كن حبالى • رأيت عيونهن وهن تلد • وتحت الرموش المهزومة تتهدل الأثداء • وعندما كنت ألقاهن فى طريقى وأفتح لهن صدر عينى كن يسلمن عيونهن لى بألم ويهمسن : لم نكن ندرى أنك سوف تأتى ولكم بعنا أرضنا بلا ثمن ( ) ، ونكست رأسى، وعدت أهيم بالثمن المحتبس فى صدرى •

ولكم أخشى أن تستغرقى فى الضحك لو أخبرتك بما حدث لى يوم لقيتك ، وأن عالما بأكمله من الممكن أن ينقلب رأسا على عقب لمجرد أن يتعرف الانسان على الانسان . يكفى أن أذكر لك أننى قبلك كنت لا أتحمل رؤية الأشياء ، وأحيانا الناس ، بل قد تندهشين لدرجة الفزع لو اعترفت لك بأننى أحيانا كنت (   ) نعم ، لا أطيق أمى . وأشد ما كان يصيبنى بالاشمئزاز من العالم ، مواجهتى بالمحطمين فى الطرقات . بالذات بعد ما يئست من امكان انتشالهم بعد ما رأيت العالم كله وهو لا يعدو كومة من حطام .

وعند ما كنت أدخل كهف الغم ، كنت أرى قبل أن أرى أى شيىء كل ما سوف أراه : الغم يتراكم كذرات الغبار المتساقط فى أعمدة الشمس المائلة ، يثور بالكنس ثم يعود ليساقط كثيفا قاتما فوق أمى واخوتى ، والأشياء ، مالئا الارض . لكن ثمة فرق واحد : أن الغم فى بيتنا لم يكن يثيره الكنس ، وانما مجرد التنفس ، لأن الكلام كان تلال الغم ذاتها . كنت دائما أدخل فارتمى على الحشية الجامدة على نصف سرير . وأشبك قبضتى تحت رأسى ، وأهرب من التحديق فى أشياء بيتنا ، فأحدق مرغما فى السقف الذى يظل ينخفض فوقى ، ودونما خوف ، كنت أتنهد طاردا كل أنفاسى وبى رغبة واحدة تحتل مكانها : ألا تعود .

وكانت تقترب ثم تقف بالطعام : طبق فى يده ورغيفان باليد الأخرى . تضعه وتغيب . وأحدق فى مكان اختفائها رائيا فى يأس موجات الغم التى تجاهد لكى تتحرك فيها ، وتعود وبيدها قدح الماء . تضعه أمامى وأنا أتابع قبضتيها المبتلتين من غسل القدح الصدىء . وكل منهما تقبض على الرقعة المقابلة لها من الجلباب على الفخذ لتجفف نفسها به . ولذلك فالجلباب دائما ملوث عند فخذى أمى لدرجة القذارة (   ) . وأتذكر أننى سمعتها ، ومن تذكرى لصوت لهجتها أعرف أنها سألت ان كنت أريد شيئا آخر . وأرقب الطعام لفترة طويلة ثم أهز رأسى بالنفى ، لكنها لم تكن تخرج بسرعة . كانت تبطىء كما لو أنها مرغمة على ذلك بدافع خفى ، ولم أكن بالطبع الذى يدفعها لذلك لأننى لم أكن أبتسم لها فى هذه السنوات الأخيرة أبدا . ولابد أن شيئا فى داخلها كان يرغمها على أن تتعمد الابطاء فى الخروج لتقف مسافة الوقت التى تكفى لأن تسألنى فيها ان كنت متضايقا من حادث وقع لى . مسافة الوقت فقط صامتة لأنها لم تكن تسأل . ربما لو كان ماتراه فى وجهى يحدث لمرة أو مرتين كما كان ذلك فى الزمن البعيد لكانت سألتنى . لكن لابد أنها يئست لما رأت الاجابة من أعوام طويلة لا تتعدى الصمت ، والاغراق فى التجهم . ولابد أننى كنت أخيفها بحالتى تلك الى الدرجة التى تخاف من أن تسألنى ، اذ كانت تبطىء فقط فى الخروج لتتأملنى بحسرة لا تنقطع، هذا اذا لم أفاجأها وأحدق فى عينيها مباشرة ، أما اذا حدث ورفعت عينى فى عينيها فكانت عيناها تتراجعان بسرعة منسحبتين خارج الغرفة (   ) وأضيق بكل ما حولى . ومن خوفى أن تعود وتجدنى لم آكل الطعام الذى قدمته الى ، اقوم لأتكفىء على الخبز البارد ، أقطعه وأغمسه فى طبق الطعام البارد ثم أدفعه الى الأسنان التى تدفعه بدورها الى البلعوم المتصلب فى برودته فيكاد الطعام يجرح حلقى . وأستسلم بعد ذلك للمضغ حتى أجد الطبق فارغا والقدح هبط الماء الى نصف صدأ جداره ، فأحس بأننى امتلأت . وكان ذلك يعنى أنى شبعت صدءا . وربما لذلك السبب غسلت أسنانى جيدا بعدما دهشت لما صادفتك تثيرين فى عتمة طرقات البناء الصخرى رعشة الظلمة حول احدى السمكات المضيئة و (   ) أبدا ، لقد استنفدت كل قدرتى على التذكر ، علنى أعود أحيا تلك اللحظات البعيدة ، واكتشفت للأسف أن كل ما أستطيع استعادته لا يعدوا خارج التحول : الشكل ، الصوت ، لمسات الأيدى ، أما هو ، ماهو داخل كل هذا ، فاننى أعجز تماما عن أن أوجد فيه . بل أوقن الآن أننا لا نوجد مرتين أبدا . وما أذكره بالتحديد ليس سوى شكل النافذة التى التقينا خلالها :

كانت رقعة مستطيلة رحبة من السماء ترتفع وتهبط فى منتهى الصفاء على قمم انحناءات خصلات شعرك الطويلة التى كانت تصعد من فوق الجبين الشاهق ، صانعا أقواسا مذهلة لدرجة أنها بدت قادرة على الزهو أمام وجه اله . ثم تنحدر رشيقة

نحو مؤخرة العنق حيث تتجمع كلها من فوق رأسك وعبر أذنيك ملتقية فى ثلاثة أنهار طفلة ، أخذت تتوهج فى لعبة لم تصنعها ثلاثة أنهار فى العالم أبدا ، اذ تجرى الأنهار الثلاثة وتبدأ فى الغوص والبزوغ كل منها من تحت الآخر على التوالى دونما اختلاط أبدا • مضيئين بلا شمس لعبة شاهقة الروعة لا تنتهى الا عند أسفل الظهر، حيث عقدت شريطا سماوى الزرقة توقفت عنده شقاوة أنهار ضفيرتك ياعذراء • ولا أدرى كيف واتتنى الجرأة على التوقف عند أنهارك ، ربما لان جسدى قبل هذه اللحظة كان مشحونا بالتقزز من العالم • وأحسست برغبة طاغية : أننى أرغب فى أن أغتسل حتى النخاع • وتحلو الرغبة فى الأغتسال كلما راقبت لعبة أنهارك •وعند ما صرت الى جوارك كانت الأنهار لا تزال تواصل لعبتها ، وفى اللحظة التى تلقيت فيها ابتسامتك توارت الأنهار لتأتى أمواج تولد بلا توقف ، تعزف سيمفونية غامضة أحس فيها رغم كل الغموض بأننى آتىوتيلاشى العالم الوصمة (   ) ولبثت أصغى ، وأنا أتأمل شيئا رائعا يولد فى عالم لى

(   ) لا ، ليس هذا ما أود أن أقوله • أقصد كأنما رائعا (   ) لا ، ليس هذا أيضا وربما أو آه • ملعونة هذه اللغة التى بدأت تموت هى الأخرى • تصورى يا عذراء أننى أحب مجرد الكلام معك الآن ، فأفاجأ بأن أسنانى تصر على ألا تسمح لى بالكلام ، وأننى مهدد الان بألا أكمل حكايتى لك ، وأن ماحدث حدث وسوف يتحول الى ماض يموت ونحن وراءه دون أن أقول أقول لك (   ) يا عذراء • أو (   )

يا عذراء • آه ، لن أحتمل طويلا لو ظل هذا يحدث • لكن للاسف ، يبدو ألا مفر من ذلك ، وأننى لن أحكى لك أبدا عما حدث فى حياتى لحظة أن اصطخبت أنهارك لحظة أن رأتنى ـ ربما كميلادى ، أو ربما ككل ميلاد ،يوجد دون أن نستطيع رؤيته بوضوح ، ولو لا نستطيع التعبير عنه بصدق أبدا • ومع ذلك لا أستطيع أن أكف عن المحاولة رغم جدار البعد :

شفتاك منفرجتان ، تسقيننى الاضواء • والسحابات فى نافذتى الشرقية تخضر حول عالم جديد يتبدى فى الشروق ، وابتسامتكالتى تشرق دوما أمام دهشتى وسؤالى المتطاير الذى لا يكف :

ـ كيف جئت الى هنا ؟!

ـ انسى ذلك الان •

وظل الفرح يدفع سؤالى كيف جئت ، ومن أين، وأنت تحيطينبعينيك وجهى كله وتصمتين• وعندما ألححت من أين؟! أدرت وجهك • لن أنسى أبدا أنك أدرته الى بعيد ، أبعد مما يستطيع أن يجذف أى انسان • حيث (   ) أبدا لن أعرف • كل ما أذكره جانب وجهك والبسمة تنزلق من فوق خديك متلاشية ازاء ما تنظرين نحوه • ثم ترتعش فى الشفاه وتموت ، والامواج تسكن • كانت رغم كل ما يجتاحنا فوق علو الطوفان بالداخل ساكنة مسجونة بالصمت • وكاد الطوفان الذى صحوت عليه يومها أن يتلاشى دفعة واحدة فأهوى مرتطما بالقاع الصخرى •

وتحركت أصابعى بسرعة نحو رسغك ، وتسلقت وبر السترة الزرقاء الخفيف ولمست بشرة اليد كانت يدكتختنق وحدها• وأحسست بها أول ما لمستها تكف عن الاختناق وتسكن ليدى ، ووجهك يعود لى ، والطوفان يعلو ويتسارع بكل ألق الشموس التى لم تنر العالم من قبل ، والبسمة تنبثق وتدب بايقاع هائل الفوضى والتناسق • والموجات الفرحة تعزف مستحيلا يوجد •

ـ كان قاسيا ؟! •

لم يكن له وجه انسان أبدا •

كنت أعرفه ، لكننى لم أتصورك أبدا ازاء (   ) وسألتك دون أن أتمكن من اخفاء سخطى :

ـ لماذا عشقته ؟

وحدقت فى (   ) ثم ابتسمت بسرعة :

ـ رغم كل أعوامك الثلاثين فمازلت طفلا •

أنتزعت من سخطى ابتسامة مماثلة لكنها كانت مثقلة بالحزن فى شفتى :

ـ لقد عانيت تاريخك كله فى البحث •

ـ أعرف • ولذلك السبب فمازلت طفلا •

فالاطفال وحدهم هم الذين يعانون فى البحث • الكبار لا يبحثون عن شىء •

وضحكت فجأة كطفلة شقية :

ـ دعك من السؤال • فى ذلك العالم لايمكن

أن يسأل أحد • اذا لم يمت سؤالك فسوف تموت أنت • بل حتى أنت لا تملك أن تحيا أو تموت • كل ما تملكه أن تعانى وجودك ، وأن تحدق فى المستحيل بصمت •

وعاد الحزن يجتاح الامواج المشرقة فتسقط فى أسر العتمة • وهززت رأسك بعنف :

ـ آه • دعنا لا نذكر الجحيم حتىلانحترق•

تأملت عينيك طويلا، والصدق الناصع النقاء كأقواس المطر • ودعنـــا لا نذكر الجحيم حتى لانحترق • لم أكن بعيدا لحظتها ، لكنك كنت فى جحيمى عثورا • وفى العثور الذى أحيا دائمـــا فقده ، نسيت كل شيىء وأصابعى تحبوه تملك الراحة ، ثم تحبو أكثر فتستقبلها الاصـــابع الخمس ، وأربع بوابات عذراء تفتـح فى لحظة شوق للاصابع الداخلة • وبرقت عيناك لى ، ثم برقت الشفاه بالرجفات المشـــتعلة ، واجتـــاح البريق كل الوجه فاشتعلت منارات العالم خلف كل ابحار ، ورأيت الشواطىء • ولم أملك الآن أبتسم رغم كل الفرح : كان قاسيا ، أقسى بما يستطيع الانسان أن يتلقاه • وكان فجائيا ،ولم أكن معدا له ، اجتاحنى فتطايرت بجانبكلحظتها وارتفعت • كنت أصعد مسحورا كطـــائر دمر البقاء على الارض أجنحته • وفى اللحظة التىكاد يشوى فيهـــا بالجحيم الزاحف فى كل اتجاه ، رأى الشواطىء تجىء خلف الرحيـــل فى فرح المنائر ، وخلف الفرح كانت الدهشة تدفعنـــا للفرح أكثر ، ولم نجرؤ أن نسأل ان كان الجحيم قد انتهى ، كنا ننسحب كل منا نحـو الآخر ، بعيدين عنه حتى لا نعود نحتـــرق ، ويضيىء كل منا بابتسامته وجه الاخر والفرح يظـــل يهطل فى موجات لاتنقطع •

واشتد صفاؤه يغمرنى حتى بدأت لا أشك فى صفاء ملامحى وهى متفتحة نحـو الشروق ، بحيث جعلت أحس بانصباب الاضـــواء وارتواء



بشرتى التى أخذت تتوقف لتتأمل ببطء ماتحت غبار الاشياء ، وأنا أغوص فى الدهشة وطعـم العالم يبدأ فى التغير : المرارة تبدأ تنخفض من فوق جدران حلقى وتغيب ، وربمـــا لاول مرة أو ربما لمرة ثانية أحس كما لو أنهـــا أول مرة بل يخيل لى أننى ذقت تلك الحلاوة من قبل • كأنها من قبل كانت مفقودة ، أو غائبة • لاننى عندما ذقت حلاوتك أحسست بها مختبئـــة ، غامضة تتيقظ وتعود ، كما لو أنها فرت من عالمى قبل ذلك كقطة صغيرة حاصرها كلب يقارب على الجنون ربما ذلك أكثر وضوحا • ففى اللحظة التى بدأت أعثر فيها على طعمك الحلو تفجرت فى جسدى كله فأحسست به يحلو بشكل غريب ، حتى أننى بدأت أتأمل كلا من راحتى (   ) وأذوقها بلسانى لفترة طويلة (   ) ثم أبعدها وأتأمل شفافيتها التى تزايدت لدرجة أنها بدأت تضيىء (   ) وانسياب أصابعى حتى نهاياتها (   ) • وأخـــذت أقبض يدى وأبسطها كما لو أننى أكشف عن قـــوة ذراعى (   ) ثم أتحسس فـكى وذقنى وأسفل شفتى (   ) كنت أحيـــا عطشى اليك ، وكنت بلا وعى أدلك شـــفتى فأحس بالحلاوة الغامضة على لسانى ، وبدأت راحتى تهوى لمس شعرى الخشن ، حانية عليه ،صانعة منه خصلات قوية فوق جبهتى تعلو مبتكرة كما لو أنها تبدأ فى مواجهة العالم ، وكلها احساس رائع بانها قادرة على أن تواجه • وبدأت أخاف

على جسدى من التراب ، لا أفهم السر بالضبط ، لكن ما أذكره دائما أننى بدأت أهبط النهر كثيرا لاغتسل • وأظل لساعات غير محدودة بين المياه الحلوة الدافئة وهى تغسل جسدى وأنا أتأملها بشغف تتدافع فى موجات صغيرة تهطل بين شعر ذراعى وساقى الذى كان يتموج مع المياه التى لا تتوقف عن الجريان • وكنت أتعرض لنشوة طاغية عندما أنتصب وأتأمل هبوط القطرات على جسدى الشاهق ( ) كان الها مصريا يغتسل تحت شلالاته •

وما جعلنى أستسلم تماما لتيار الدهشة الذى بدأ يسحبنى بدء رؤيتى للعالم كما لو أننى أكتشفه يا عذراء : اكتشفت أن جسدى كان يختبىء فيه كائن يملك أن يجعلك تبتسمين له ، وأن الجحور الجبلية التى كانت تحاصرنا فنختنق فيها بيوت ولها نوافذ ، وأن الشوارع ليست سراديب نمل ، وأن الاشياء ذوات الرأس الواحد والاربعة أطراف ، والتى ترتدى مزقا مضحكة من النسيج وتتحرك مشدودة الى الارض دائما ، لم تعد اشياء : انبثقت فيها فجأة عيون فأصبحت ترى • وعندما كنت أتأمل أى واحد منهم بدهشة ، كان هو الآخر يتأمل عينى • وتصورى أن يستحيل شيىء الى كائن لدرجة أنه يستطيع أن يبادلك نفس التصرف ؟!

( ) نعم ، بل حتى تماثيل الثلج، أدفأتها المضحكة التى لا تنتهى فى نافذتى الشرقية فأصبحت أتأمل بحب غريب شكل تسريحات الشعر ، وطريقة السير ، وايقاع الخطوات الرشيقة التى تنظر ا لى الامام ، والثقة الغريبة فى أن الطريق يخضع للسير ، بل كيف يتمطى الكحل فوق الرموش الممدودة ويحمر اللون الاحمر فوق الشفاه ، بل وفى مرات عديدة ، لاحظت أن عيونهن أخذت تلمع ، وفكرت بفرح تجتاحه الدهشة كيف حدث أن تحولت كتل الثلج الى اناث ، بل والاغرب من ذلك أننى أخذت لا أستبعد أن تكون بينهن عذارى •

ولما دخلت بيتنا لأول مرة وأنا أحملك ، وجدت أمى مازالت جالسة مستندة بظهرها على جدار الغرفة بجوار السرير الصدىء • جعلت أقترب منها وأنا مندهش لوجودها على هذه الحالة التى أوشكت أن تكون أبدية ( ) حاولت أن أتذكر متى بدأت تجلس هكذا ، ربما قبل وجود الزمان الذى نعرفه أو المكان الذى يأسرنا ، أو حتى الشمس كشمس • أحسست بالاكتشاف يجىء كطعنة ( ) ماذا صنعته كى توجد وتظل هكذا ؟ • وأخذت أعانى رؤيتها وهى توجد • والشمس تتسلط عليها وتحركات الدود المولود، ثم وهى تصلى لمن وراء جحيم الشمس وجنات المطر وتسأله الطعام بعد أن فعل فعلته • اكتفى بأن غمغم وهو بعيد : عندك نخلة فهزيها • تألمت للهجته وهزت جزع النخلة ، لكن لم يتساقط شىء كما أخبرتنى فى نوبة غيظ ، لأنها كانت مجهدة ، وكان المفروض أن يهزها هو •

لكن الغريب أنها لم تكن تشتكى لى منه ، وكان يغيظنى أنها تعشقه رغم كل تعذيبه ولا مبالاته بها •

وبدأت أعانى من وعيى بأنها حزينة فجعلت أسألها عن ذلك ، وأحاول أن أسألها بمرح ان كان يوجد طعام ، وأصبحت أرجوها أن تجلس بجانبى وأنا أتناول طعامى ، واطمأنت أمى لى فاستدرجتها حتى بدأت تشكو ، فأخذت أصغى : لم يعد وجهها وهى تشكو يجعلنى أتضايق منها • بدأت أحس ، وكما لو كان ذلك لأول مرة ، بأنها تعانى ، وتعانى أكثر بكثير مما كنت أتصور • بل أخذت أحس أحيانا بما تعانيه ووجهها يتقلص ، والمعنى الصعب يحاول أن يطفر ثم لا يلبث أن يتكور تحت الجلد وبعدها يختفى شيئا فشيئا ، غائصا فى القلب ، مفجرا دما أسود الى شفاه أمى التى تأخذ فى الارتعاش بعجز ، وأحس بما تعانيه قائما ازائى ( ) لا يسمح أبدا بمجرد التفكير ، لدرجة أننى بدأت أضطر لحظة أن أدير وجهى ناحيته الى التراجع بقفزتين أو ثلاثة خشية أن أحترق ( ) أبدا لن أنسى لحظة أن حدقت فى وجهى وتأكدت من أننى أصغى ( ) •

آسف اذا وثقت الآن أننى عاجز عن نقل هذه اللحظة لك ، وأن حبر الطباعة لا يمكنه أن يفعل أكثر من أن يكون حبر طباعة • كل ما أستطيع أن أذكره أنها لما تأكدت من أننى

أصغى توقفت شفتاها تماما ، وأدركت أنها تؤنب نفسها لأنها شكت لي ، بينما أنا أصغى فعلا ، فقفزت فجأة وحملت الطبق الفارغ وسألتنى ان كنت أحب أن أشرب شايا •

لمحت الرقعتين المتسختين فى ثوبها ، وضحكتك ياعذراء ، فأحسست بأننى أختنق ، وقلبى ينتفض تحت وخزات حادة فقفزت وراءها• وضعت كفى على كتفها وأنا لا أجرؤ على النظر فى عينيها ، وعلقت عينى بشعلة البترول والدخان الأسود يتصاعد غزيرا خانقا الى رأس الموقد • وقلت لها أن كل هذا سوف ينتهى ، وأنك تحملت كل عمرك الماضى فلا أقل من أن تتحملى أياما قليلة سوف تمضى بسرعة ، وبعد ذلك لن أجعلك تعطشين للفرح أبدا ، ولحظتها كنت أراك ياعذراء •

ابتسمت أمى ، والدخان الأسود يتلاشى من حول رأس الموقد ، وانهمكت فى اعداد الشاى ثم سمعتها وأنا أشربه فى غرفتى تتكلم مع جارتنا بصوت عال ، بل وسمعتها تضحك أيضا •

وشاهدت الليل يوشك على البدء فى التساقط فرأيتك ياعذراء تمدين لى جسرك عبر الامواج الليلية ، أخذت أحدق مشدوها فى الجسر المتوهج الممتد من أول ساحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغة تحت مناقير الطيور الجافة ، وعظام الهياكل العارية على هياكل السمك الميت، ومحاجر العيون الخاوية ، حتى ينقلنى عبر كل الليل الى استدارتى عينيك وهما تستحيلان الى بوابة واحدة تقع فى نهاية النهاية أسفل الزنزانة الصلبة الصدئة الزرقة ، مستديرة عبر البعد القاسى ، مفتوحة على عالم لم ينم كعالمنا خوفا من الظلمة لأنه لم يعرف سوى الصحو فى حضن الشروق • دونما ليل كليلنا ، دونما موتى •

أول مارأيت ذلك لم أتمالك نفسى من أن أصيح مناديا على الذين يتساقطون ميتين على الرمال خلفى ، ونصف عددهم لم يمت من الموت نفسه :

ــ سيأتى يوم لن يموت فيه أولادنا •

كفوا عن حفر اللحود لأولادهم برهة ، سمعت فيها قلوبهم تضج بالفرح ، لكنى سمعتها تصاب بالسكوت فى اللحظة التالية ، وهم لا يصدقون آذانهم ، لانهم عادوا يحدقون فى الارض فلم يروا سوى الماضى الممدد فى لحده ، فانخرطوا فى البكاء :

ــ أنت لا تقول الحق •

وكدت أسقط باكيا معهم وأفقد صدق رؤيتى لولا أننى تمالكت نفسى ومسحت عينى بسرعة وقلت لهم بصوتى المبحوح : أقسم بكم أننى رأيت • وعدت أجول فى الطرقات أقول للرفاق:

« ارفعوا عيونكم •••

وانشروها الى أقصى ما تستطيعه الاجنحة •••

فلن تعد قمة الطموح

تحت سقف مقبره •••

ارفعوا عيونكم ، واملأوا الاشرعة بأفق العالم لأننا

سنأتى بأطفال لن تموت •••

سنأتى بأطفال لن تموت ••• »

وأغرب ما حدث يا عذراء لحظة أن انتهيت من ندائى ، وأطبقت شفتى ، مديرا عينى فى الصمت ، اذا بى أفاجأ بها ما تزال تجول فى الطرقات تقول للرفاق • استغربت فتحسست شفتى فوجدتهما مزمومتين بشدة ، وعدت أصغى فاذا بها تجول فى الطرقات تقول للرفاق • أخذت أنصت بدهشة لأصواتى التى تتقافز من صمتى تحتشد فى الطرقات ، وأصوات المعاول تتوقف عن حفر اللحود• والطرقات تجن بالصوت فتصحو جارية نحو الانهار الدائمة ، واطئة كل القيود ، منتزعة كل صليب ، محتضنة المصلوب من عليه ، ثم حارقة الصليب حتى لايجدوا صليبا يصلبونه عليه ثانية عندما يأتى (   ) المستحيل

••   ••   ••   ••   ••

••   ••   ••   ••   ••

••   ••   ••   ••   ••

يا آذانا طينيه (   ) مستحيل الرؤية (   ) الاحتمال • وما حدث وكان أقسى من احتماله تحوله بفظاعة الى الممكن (   ) آ• بلا توقع أبدا ، ومن جوف الصمت الهادىء المتظاهر



باللاكتراث ، القابع فى منحنى ليس شديد الظلمة بقدر ماهو ملون بالظلال المتطاولة تتماوج **بأنفاس ليست للريح** ، أخذ يبدأ صوت الحدوث • محالا قادما بتؤدة **كما لو أنه ليس غريبا** ، موغلا فى الوجود على حساب تخلينا عن استغراب وجوده، محققا نفسه بتراجعنا وفرارنا فى الصمت، سارقا أرضنا من تحت أقدامنا • والغريب اننا لا نبدأ فى الاكتشاف الا متأخرا جدا • فى اللحظة التى نرى فيها أرضنا تدور بعيدة عنا ، تحته • ونحن نهوى **فى الهوة السحيقة التى ليست تحتها أرض،** حيث ( ) حين ( ) أبدا • اللا معنى هو المعنى الوحيد لأية صرخة تطلب النجدة • فى الهوة لا أحد ينجد أحدا ، لأن لا أحد يملك أرضا يقف عليها ، فكيف سيثبت نفسه وينتشل طالب النـجدة • ذلك بفرض أنه اسـتطاع أن يعبر المستحيل ويوقف تهاويه ليدير اليه رأسه وينصت الى صرخاته •

ولقـد حاولت أن أوقـف عينى عن الاهتزاز فطعنت بـ ( ) وأنا أرفع حيث المسامير ترشق فى راحتى المشدودتين للتسليم بعيدا عن ذعر الشفاه ازاء طغيان المستحيل • و ( ) ينمو بينـنـا ، يتمـدد ، يستحيل الى أبعاد تتوحش ، ترقد كغرق البحر ، كالدروب اللولبية الموغلة فى الزمن السحيق ، غليظة القوام كموجات استحالت الى قبضات خرافية تخنق أية أصوات تسقط فيهـا • وازاء طعنات المسافات الموغلة فى دفعى سقط صـوت الانسان ( ) وبعده صـوت كل أشياء العالم ، فأخذت أتأمل طويلا : صمت الزيتون • عدت أنظر لهم ( ) فقدت كفى وأنا أنظر لهم • لم يحتمل الرجال • لم يقف بجانبى سوى الحبالى نظرت لهن ( ) أما العذراء ( ) رفعت وجهى مذعورا من الصمت فحط على الصمت، وارتفعت الى السرسعات المعذبة التى تنطلق رغما عنها طوال زمن التعذيب وتندفع لائذة برأس أحد من المسامير المحمية فى كفى • وسقط وجهى من الصمت عائدا الى الصمت • وتأملهم المحاصر فى العيون التى تعـانى الرؤية يحاول أن يثبت ، أن يستكين ، ألا يصرخ ، ألا يحتج ، ألا يطلب الرحمة ، ألا يثور ، على الرغم من أنه يتعذب بـ ( ) وصمت نفسه • ولم أستطع أن أبتعد عنهم بعينى وأتركهم بعد ذلك ، وتذكرت ما سوف يأتى فجعلت أنتحب على العالم الذى يتعتم من بعد ما صلبت الكلمات •

وأرفع وجهى نحو العـالم الصلب ، وجبهتى لم تنمح من عليها ظلال الارض من طول الانحناء فوقها ، وأحدق بخجل الذى كان وأذكر مانسوه ( ) أبدا ، من الصعب يا آذانا طينيه أن تثبت عيوننا على عالم غير ثابت ، عالم قوس قزح أكثر وجودا وثباتا منه ، عالم يوجد ويفنى فى كل يوجد ، وفى كل يفنى • نراه فى اللحظة التى لا نراه فيها ، وعندما لا نراه نراه ، وعندما يوغل فى حضننا نحس بأنه ليس فى حضننا أبـدا ، وعندما يبتعد نحس بوجوده بين الاثداء تماما • كما لو أنه تعلم الخديعة من مخادع لم يضبطه أحد حتى الآن ، ولو ضبطوه لن يستطيعوا اثبات أنه مخادع ، لأنه فى اللحظة التى سيطبقون عليه فيها بأيديهم لن يكون بين أيديهم •

وكم نحن ضحايا خداع أبدى أكثر وجودا من الأبد نفسه ، تشترك فيه أمنا التى تضاجع أى رجل وتدعى أنه من صلب الالهة لتوهمنا بأننا آلهة ، وضحايا أغشية البكارة التى تتنحى لكل غاز يستطيع أن يشعل نارها بعدما يهدم الاسوار ، طالما أنه سيأتى بالنطعام ، وضحايا العالم الحرباء الذى يستحيل طينا بالمطر وتلالا جدبة بالقيظ ، وقمحا ، أو قطنا ، أو توتا ، حسبما ينافق الفصول ٠ والا فكيف فقدت الزمن الذى كنت أدخل فيه بوابتك المتوهجة بالابد المشرق دوما وهى تفتح لى فأهتف يا لعالمى الرائع ، وأحس بعد كلماتى بالصدى يتطاول فى ذاتى لاحس بأننى ما يتوهج فى الشمس ، ويصفو فى الزرقة ، ويصلصل فى جريان الانهار ، ويخفق فى سماء الاجنحة ، ووراء كل انتظار يجىء ، وبعد كل جوع يأتى أعياد حصاد ، وفى أمسيات النهار الشقية نسيم رخاء ، وللزوجات اللواتى يعذبهن خلو الفراش فى الليل الارمل روح يعود ، ويسرى للعذارى فيحتضنه حلما ، ودماء تجتاح بحريتها أية أسوار ، ويوجد فيجتث العدم ، وعنده تنتهى الأشواط ، ومنه يبدأ كل شوط جديد ، وأنى كالاله القديم القديم ، لا يجعلكم تصفعون جباهكم فى الارض من أجله كل يوم أينما كنتم ، لكن يلعق كل أدرانكم بحنو لسان قطة احتضنتكم ، لتكونوا أنقياء ويسقيكم لبنه بلا ثمن ٠ لكننى أعود أنسى ما نسوه ، والأشياء تدوم بالوميض الذى يعمى قبلما يختفى ، وفكى الأيسر ينام فزعا فى حضن الكتف المرتجف ، وذراعاى أتأملهما بحسرة الذى اكتشف أنهما لم تعودا ذراعيه ، وشفاهك تتكور ب ( ) مستحيل ، والعالم يحمل وجه يهوذا ٠

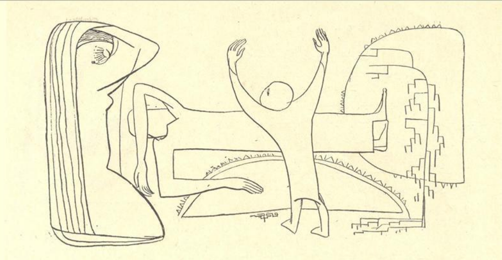
عندما كنت ( ) لم أكن أعرف ذلك ٠ كنت أبتسم فقط ليبدأ كل ما أبتسم له صراعا عاشقا من أجلى أبدا لم يكن كيوم أن جئت لك وجسدى جمرة تتنفس فى فيض من الهواء السخى ، مجنونا بالاحتراق ، ورغبة الرماد المعمر فى أن يصحو ، أن يستعر ، أن يجن بينما هو يتصاعد عاليا ، ويدى تطير لتلتقط يدك ، وعيناى تفردان أجنحتهما لتناما فى عشك فاذا بالباب يبدأ فى الاغلاق ، وأحس باللحم يثقل فجأة ويتعرض للتدمير اذ بدأ يفقد جلال صحوه الأبدى ٠ لكننى لم أكف عن ادامة الرفيف ، والتحديق موغلا فى الاقتراب ، وأنا أخنق الصرخة وأصارع نهش الاستغراب المتوحش ٠ وتحول كل هدب الى يد تتحسس بابك الموصد بلا سبب فلا أجدهما زرقاوين ٠ وان كانتا رمادتين كما رأيتهما فكيف ملكتا الزرقة التى اسودت فى عينى أمى كل ذلك الزمن ؟ وطفقت أسأل ( ) هويت للغرق قبلما أتمكن من الصراخ ، وشفاهى تتلوى بلا جدوى ٠ ثم تستسلم كل منهما ملتصقة بالأخرى فى صمت ، وعيناى تتبعان أقواس الشعر التى تليق باستقبال اله ، وهى تستدير وتبتعد وعيناى مصلوبتان على آنهما ، تتأملان للحظة أخيرة قبل الغرق الأبدى : الأنهار التى أخذت تتأرجح بعنف خلفك ، وأنت تبتعدين بها ، تاركة طوفانا حارقا من الجدب يندفع زاحفا نحوى ، وأنا أشرب رغما عنى عطش الصحارى اليتيمة دون تبرير عادل يا ( ) تلاشى التأمل حتى اقتصر على العمى ، وخلف العمى عالم كان يولد لى فانتزعوه منى وأودعوه الصمت ٠ لكن صمتى لا يقبل ذاته ، فليس محتملا أن نكتشف أننا لم نكن نملك عالمنا ، وأننا فجأة نحس بالأشياء وهى تنفلت منا ، والشىء الوحيد الذى يتبقى ، الوحيد الذى يتبقى : عرى أصابعنا البارد ٠ وأن كل هذا العالم الذى كنا نحس به تحت أصابعنا كرأس طفل يستجيب لحناننا ، يستحيل الى رأس داعرة تتحدى أى حنان يحاول أن يحتويها بسخرية هازئة صلبة لا تملكها الا داعرة تجيد هدهدة الرجال لثلاث دقائق تجيد بعدها نسيان انها رقدت تحتهم ، أو حتى رأتهم فى حياتها ( ) وأدير رأسى لأرى بوضوح عينى وهما تنسلخان عنى ، وتتسكعان بعيدا وتسقطان على وجه الارض ، حيث الالوان الكالحة ، والوحل الدموى القاتم الذى لا يجف ، والطنين حول رأسى يبدأ نشيدا فارغا تحت الشمس الرصاصية ، يشتد ويخفت لكنه لا يبتعد ، وتتدحرج العينان ببطء ليس لتتأملا ، لكن لتلتقطا أنفاسهما فى مواجهة الأشياء ٠ والحيرة فى جوانب الأشياء تجرجهما ، ووجود الأشياء البغيضة يجعل جسدى يرتجف ، غير قادر على أن يثبت فى مكانه أبدا ، واحساسى يثقل بالشراع المشدود للابحار وحبالة تتقطع

ويبدأ يهوى فى التراخى (   ) لا ابحار • وصوت الموج يتخلخل فى العالم الضحل ،والعودة للوقوف فى المخاضة التى تبول فيها الخنازير ، والتى لا يعبرها انسان الا وغسل قدميه من آثارها قبلما يمضى •

وتتدحرجان ببطء تحت ثقل الفزع ربما تواجهان شيئا أقل مرة ، واذا بهما تتوقفان عن التنفس تماما ازاء ما حدث :

جف ما فى التى كانت كائنات (   ) عادت تتحزم حول نصف طولها ، وترتدى أكماما طويلة فى سيقانها وتتحرك ، فيقفز الغبار من الارض ليدوم فى الهواء ثم يعود ليساقط فوقها فتستحيل الى لون الأرض والشمس نفسها بعد أن انصهرت وتجمدت استحالت الى شحوب أوغل فى العتمة حتى السواد ، ثم هوت فى برودة الرصاص • والاشياء ذوات الاطراف لا تسكن أبدا • ربما تسكن للحظة ، لكنها تعود للحركة وهى تحرك أطرافها ، وأحيانا تحرك أطرافها دون أن تغادر مكانها بينما تصدر أصواتا غريبة متباعدة ، وكل منهم يصدر صوتا وحده (   ) واقتربت منهم بحزن • فجعلوا يمرون قريبين جدا من وجهى كما لو أنهم لا يحسون بى ، وأفظع من كل ذلك ما صدمت به مرة : فقد حدث أن رأيت شيئا يجرى وراء شئ آخر ثم اشتبكا معا ، وصار يتصارعان حتى أوقعه الشىء الذى جرى وراءه على الأرض • ثم رأيته يفتح ساقيه بعد أن أوقعه ويرتمى فوقه ، والشىء الملقى على الأرض يتأوه فى استسلام حتى نهض الشىء الآخر واقفا وبصق عليه ثم مشى مبتعدا عنه • تألمت للشىء الملقى على الأرض فظللت أنظر له • رأيته ينسحب وينزوى بجوار جدار حجر (   ) وبدأ ينتفخ • بعد فترة أخذ يصور صوتا يشبه الانين وهو يمسح على انتفاخ بطنه ، وبعد فترة طويلة من الانين الصادر عنه رأيته يشحب تماما ، ودرجة صراخه تتغير وتتسارع ثم تمدد على الأرض ورأيته يرفع ساقيه الى أعلى ويأخذ فى صراخ عال جعلنى أكاد أجرى بعيدا حتى لا أتعذب بسماعه ، الا أننى تسمرت مكانى ، اذ سرعان ما لمحت شيئا صغيرا جدا يظهر من بين ساقيه المرفوعتين ثم تمتد منه أربعة أطراف صغيرة ورأس ، وفوجئت به عندما انطلق جاريا نحوى مصدرا صراخا صغيرا مادا يده الرفيعة ذات الخمسة أطراف الصغيرة جدا : أبت ، اعطنى خبزا !

صعقنى الادعاء ، وودت لو أبعده أو أصرخ فيه أو اضربه أو أجرى منه ، واستغربت نفسى لما أخذت أتأمله فى صمت وشعره الليفى يكبر يتخذ لون الرماد وأنا أتساءل دائما وأنا ملتصق بالأرض ومؤخرتى تؤلمنى ومع ذلك لا أملك القدرة على النهوض (   ) ما معنى هذا ؟ رفعت رأسى بغية أن أتنفس بالسؤال فلم أجد أية سماء تمنحنى قبضة هواء نقية ، وكنت أريد أن أسأل بصوت عال لكنى لما جوبهت بذلك (   ) عدت أدرك أننى بلا أب (   ) ، وأن أى سؤال سأرسله سيعود محترق الأجنحة ، رفعت جبهتى فى جبهته (   ) رأيت حوائط اللا جدوى منتصبة بينى وبين العالم • وبدأت تسقط حتى الرغبة فى السؤال عن الجدوى ، ما دمت قد عثرت عليك لافتح راحتى فأجد أصابع يدى عارية منفردة فى تراخ كأرجل جواد انتهت من شوط خائب (   ) أحدق فيها بحماقة أمنية أن أعود أزرع وجهك بين حنانيهما فأفاجأ بلا وعى ، بأنهما قد عادتا ملعونتين : اقتربت كل منهما من الاخرى دونما رغبة ، كحيوانين قزمين من جنس واحد (   ) لم يخلقا مثقوبين ، وليس بين ساقى كل منهما مفتاح المدن الموصدة • لذلك فهما مرغمان بدافع مجهول المكان والمصدر على أن يتقاربا تحت الضغط المهين للفقد ، وكل منهما ملعون ، ويعرف أن الآخر ملعون أيضا ، والتقارب بينهما يغدو لعنة تجمعهما معا (   ) والاصابع تيأس فى البحث خارجها فتستسلم • وأرى كل أربعة أصابع تتجه فى انكسار الغزاة المرتدين نحو فراغ أصابع اليد الاخرى ، حيث تدخل حائية رؤوسها، وتركع ، ثم تنثنى صافعة رؤوسها بظهر الراحة الاخرى الصخرى صانعة سجودا مميتا معلنة به هزيمة البحث أبدا ، طالما أننا لم نحفر لنا منفذا آخر فى جدران الطريق الجرانيتى المنحدر مؤديا الى قاع لحد • واصبعاى الكبيران ينهضان قائمين معا بجوار بعضهما ليسدا الفوهة التى تؤدى الى الفجوة التى سقفتها الاصابع فاستحالا عمودين لباب المقبرة ، وبينهما فتحة فرج أسود تؤدى الى



رحم التابوت · ولم أستطع أن أدير عينى ( ) يا عبث الأيدى التى أرادت أن يولد العالم ، فأحالها العالم مقبرة · وحتى التابوت الذى يرقد بحضن راحتى لن يهدأ أبدا ، لأنه لن يدفن فيه ابنى · سيظل تابوتا معدا لكائن يموت ولم يصرح له بالدفن · وعلى أن أرى ابنى ميتا أمامى كلما وجدت التابوت براحتى فارغا ينتظر · وكلما أحسست بوجودك أشم بقوة فظيعة رائحة موته كلما مرت ستترك الداكنة الزرقة وشفتاك لا ترحمان ابنى ، ولا تتركانه لى كى أدفنه · دائما مطبقتان عليه ( ) كل ما أستطيع رؤيته لا يعدو الفاصل بين الغطاء وقاع التابوت الذى جفت منه العصارة القديمة التى ربما كان يفهمنى لو كانت ما تزال تمرح فيه ·

وأرفع رأسى لأقول لكم بصوتى المفقود بعد ما طفت بالأرض الخراب من خلف شفتى الملوثتين بالرماد ( ) :

« عندما يقولون لكم ذهبنا الى المقبرة ورأينا الحجر الذى يسد الباب قد تدحرج ، لاتصدقوهم، فلن يتدحرج ، وعندما يقولون سوف يعود لأنه قام ، لا تنتظروا · لأننى من يوم أن مات ولدى مات أبى ، مت · فعندما يقولون لا تصدقوا ، لأننى أنا الذى أقول الآن ·

وعندما ترون الشمس تصلب وتسقط كل يوم والعالم يمضى منكس الرأس ، حاملا كل احتجاجه مقتولا بسكينة اليتم ، لا تعودوا تذكرون أن العالم معشوقة للذى صلبوه وأنه سيكون يوما أبا ، امضوا حاملين يتمكم ، وقفوا أمام العذارى اليتامى ، وليختر كل منكم يتيمة ويأخذ يدها فى حضن يده ، وعندما تهتف به والدموع فى عينيها : أبت ؟! فليهش لها ، ولتكونوا آباء أولادكم ·

يقول لكم ذلك ، لأنهم ، قبل أن يرى أبناه عندما أراد أن يكون يوما أبا ، شدوه ، بعد ما رفعته ارادته على الصليب » ·

ويدور سيخ الشواء ( ) ونشوى ( ) وننتهى الى لا شى ( ) حتى اللا شىء ربما لن يكون موجودا ، الا شيئا واحدا يا آذانا طينية ( ) لن تستطيعى أن تديرى عنه وجهك الطينى أبدا مهما هرب فى الطين :

صوت وقع الخطى السائرة للأفنية الخلفية ، يتساقط ليدفن فى الرتابة مجرجرا صداه ليغوصا معا فى الأرض ( ) رائيا كنبى تعس كل انتفاضات غار الطريق الرمادية تبهت ( ) تستحيل الى جليد يشجب تحت الضوء الأبدى الساكن ( ) حيث ستدفن كل الأصوات ( ) وجثث كل رغباتها معها ( ) ولحن الجنازة يتلاشى ( ) يظل صوت ايقاع واحد معتوه : ( ) لا ينتهى ( ) .لا يبدأ ( ) لا يسمع ·

قصة الطوفان

بقلم
عز الدين نجيب

- ١ -

الأسفلت .. ورائحة البنزين ...
والطرق المقفرة تنبت عيونا تقتفى أثره ...
وكان مفعما بالضالة ..
يستسلم فى حزن مبهم لأغنية قديمة ..
وحين اكتشف - للمرة الثالثة - أنه ركب الأتوبيس خطأ ، توقف اللحن فجأة ، وقرر أن يعود الى المحطة ليلحق القطار ، فاطلت « نسرين » ببسمة عاتبة ، ظلت تهدهده حتى عادت الأغنية . الا أنه لم يشأ أن يستسلم لها ، وقال :
- وما معنى أن يوقع ثلاثون رجلا وثيقة بنفيي ؟
ودون فائدة انتظر الرد ، وقال :
- هذا الوكر ! .. لولا وجودك فيه لكنت ...
- ربما كنت لا أختلف عنهم .
- أنت برج الحمام الأبيض الذى يحتوينى .
- يعتبروننى صديقتهم .
- أنهم يجيدون تسلق الابراج ونهب صغار الحمام .
أحرقت الشمس وجهه . فرت ابتسامة نسرين وقطبت وجهها .
- أنت غاضبة اذن ؟
- انك تصر على كراهيتهم .
- أنا لا أكرههم . أنا أكره أظافرهم الطويلة .
- لن يعيش الانسان بلا أظافر .
- الأظافر اذن هى حقيقة العالم .
- ولن يعيش الحمام أيضا بلا أظافر .
- ورغم هذا لا أستطيع أن أكف عن حبك .
وراح يقطع شوارع الدقى المتشابهة بلا مبالاه ..

... لكن الا ترين كم هو مضحك كل هذا ؟ .. ثلاثون يوقعون على اننى مخرب ومجنون .. ثلاثون هم كل موظفى المكتب .. ويقولون أن الناس لا تجتمع على خطأ .. كان رحيما بى مدير المؤسسة اذن حين نفانى الى أقصى الصعيد .
سبع سنوات يا نسرين .. عرفتنى خلالها كل القرى والمدن .. والتصقت بى الدرجة التاسعة كوصمة . وفى كل شهر تحقيق وخصم . متهم دائما ودائما مدان . وحين أوجه الاتهام اليهم أخرج أيضا مذنبا .. فان أسرق أو أرتشى أو أخطف .. شيء مبـاح ومشروع .. أليس مال حكومة .. أما أن أقف لأعلن هذا .. فهو التخريب أو الجنون .
وفى عينيك حططت الرحال ذات يوم . كنت تعرفين أننى سآتى . وتنتظريننى . فقد تواعدنا على اللقاء منذ سنين قلت لك ذلك مرة فأنكرت وضحكت كثيرا .. غير أنك كنت وحيدة ، وعيناك كانتا بنيتين فى برج حمـام ، احتضنتانى

وسط قشهما الوثير وأنا أحكى الـــكوابيس والاحلام · ولم تكف عن الضحك ، وأخذت تتوهجين يوما بعد يوم · ولم يكن عبثا اهتمامك بتسريحة الشعر واستخدام قلم الروج · وكنا نسير معا ذات غروب ذهبى ، فقطفت زهرة بيضـاء من غصن قريب ورشقتها فى شعرك · وتعانقت يدانا · الا اننى لم أستطع أن أقول الكلمة التى تنتظرينها · فما كان ذلك بوسعى ·· أقسم لك ! ومع ذلك فلم يكن يليق بك أن تغلقى البنية فى وجهى ثم تقفى على الحياد بينى وبين اللصـــوص لمجرد أننى لم أستطع أن أنطق تلك الكلمة ···

***

أخيرا ·· المؤسسة !

دق قلبه بخوف مبهم · رحب به السكرتير بدهشة :

ـ أنت صبحى زيدان ؟ ·· كنت أتخيلك فتوة !

ـ هل تسمح لى أن أطلع على التوقيعات ؟

بعد تردد ··

ـ أنت تعرف أن الموضوع سرى للغاية · لكن ·· من أجل خاطرك فقط ···

وأخرج من درجه ملفا أخذ يقلبه ··

ـ أنظر كم يحبونك !

بدت الورقة كوجه ملء بالجدرى أو الجذام ·

ـ هل تصدق أن لى بينهم أصدقاء ·· سكنا معـــا ·· وأكلنا وقرأنا ·· لكن ·· امضاء من هذا ؟ ·· « وشهق » كذب ·· كذب !

ـ من هو ؟

ـ انها ·· خطيبتى !

ـ ماذا ؟

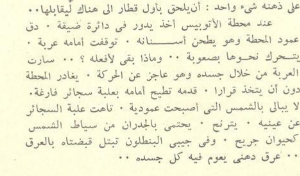
ـ كنت أنوى ··· مستحيل ·· مستحيل !

ـ لكن ·· هذا فظيع ··

نهض وخطا نحو الباب فى صمت · هتف السكرتير :

ـ ألا تقابل المدير ؟





واصل خروجه ·· الغضب يطمس عينيه · تسـلط على ذهنه شىء واحد : أن يلحق بأول قطار الى هناك ليقابلها··

عند محطة الأتوبيس أخذ يدور فى دائرة ضيقة · دق عمود المحطة وهو يطحن أســـنانه · توقفت أمامه عربة · يتـحرك نحوها بصعوبة ·· وماذا بقى لأفعله ؟ ·· سارت العربة من خلال جسده وهو عاجز عن الحركة · يغادر المحطة دون أن يتخذ قرارا · قدمه تطيح أمامه بعلبة سجائر فارغة· لا يبالى بالشمس التى أصبحت عمودية · تاهت علبة السجائر عن عينيه · يترنح · يحتمى بالجدران من سياط الشمس كحيوان جريح · وفى جيبى البنطلون تبتل قبضتاه بالعرق ·· عرق دهنى يعوم فيه كل جسده ··

- ٢ -

حين عادت الاغنيـــة ، كان قد وصـــل الى كورنيش النيل . أخذ يرددها بصوت مرتفع وهو يطوح براسه كمجذوب يمسخها مرة بصـــوت الأراجوز ومرة بطريقة مغنى الأوبرا . ينتشى كل كيانه كلما تحولت الى مسخ خال من أى معنى. كان الكورنيش خاليا ، الا من عربة أتوبيس تمرق من حين لآخر ، فيستلفت بكاؤه نظر ركابها . وقد يطاق بعضهم ضحكات ، عندئذ تصل نشوته الى منتهاها فينفجر ضاحكا ، ثم أصبح يستهويه الضحك على أى شىء : رأى كلبا يطل من نافذة سيارة فاخرة فانفجر ضاحكا . وخطر له أنه كان سيخطب اليوم نسرين فانفجر ضاحكا . وتخيل شرطيا يطارد ثلاثين لصا ، واللصوص يجذبون بنطلون الشرطى فيجرى فى الشـــارع عاريا مذعورا ...

وحين تعب من الضحك عاد الى الغناء بصوت قبيح :

قولوا لعين الشمس ماتحماشى

أحسن غزال البر صابح ماشى

وتعب من الغناء والسير ايضا ، فجلس على مقعد رخامى قرب محطة الأتوبيس ، وعرف من الزحام ان الساعة قد تعدت الثانية . وكلما أتت عربة اغترفت من المنتظرين فوق كفايتها حتى فاضوا على الأبواب كالأمعاء المتدلية : كم طنا من الطعام سيلتهمونها بعد قليل ؟ .. وعـــاد الى الضحك . انتبهوا اليه بدهشة : النساء خجلن أن يعاودن النظر ، فأخذن يتغامزن ضاحكات، والرجال كانوا أكثر جرأة، فوصلت أذنه تعليقاتهم « سكران .. مجنون » .

وقرر أن يتمـــادى فى الدور ، فقـــام يتمايل ويضحك كالسكارى متجها ناحيتهم . دب الهرج، وانكمشت النســاء . عندما وصلت أول عربـــة اندفع الجميع اليها فى ذعر وهـــو لا يكف عن الضـــحك ، حتى بعد ان مضت تاركة المحطة خاوية .

وعاد الى السير . مرت على حذائه كل أنواع الحصى والحجارة. تذكر جدته العجوز فى القرية، كانت تقول .. أن حصوة صغيرة تحت قدمك قد تريك الكنز المكتوب لك ..

حسنا أيتها الجدة ، فلنر أين يختبىء كنزى ..وطار الحجر الصغير ليخترق الشارع العريض ويستقر أمام باب عمارة . ها .. أما حظ ! .. ربما كان المقصود ان اكون البواب ! .. فلنجرب مرة اخرى .. أوه ! .. وماذا سأفعل فى قـــاع النيل ؟ .. فلنر هـــذا .. آخ ! .. كاد يكسر زجاج العوامة .. أرأيت أيتها الحيزبون ؟ ..

ووقف عند المحطة التالية . لم يتخذ قرارا ما . وصلت عربة فصعد من الباب الأمامى دون أن يقرأ الرقم . انحشر بقوة حتى وجد مكانا قرب السائق . الحر ورائحة العرق والوجـــوه البليدة .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. غير الرابع وضعه وهو يصـــارع للاحتفاظ بمكانه . صرخ أحدهم اذ داس على قـــدمه . بدات مشاهدة تغيرت الوجوه وطفحت بالشراسة. صارت تشبه التوقيعات الثلاثين المكدسة على سطح الورقة . سوف تنشب الحرب الثالثة.. حرب الثلاثين .. وضحك . التفت اليه جـــاره بامتعاض . بتر ضحكته خشية أن يتحولوا اليه. الهدوء قليـــلا حتى أستطيع أن أعد . ينبغى أن أكمل الثلاثين على الأقل ــ واحد .. أثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. الخامسة فتاة ــ بل عدة فتيات بملابس المدرسة يضـــحكن على المشاجرة . من الظلم ادخالهن بين الثلاثين ، هل ترى خــدودهن المتوردة وعيونهن اللامعة ؟ .. لكن الغدر لم يكن يبدو فى جمال عيون نسرين . ستة . سبعة ثمانية تســ ..

ــ المحطة !!

واكتشف الجميع فجاة أن الســـائق انتهز فرصة المشاجرة (وأحرق) المحطات . انفجـــر ضاحكا . لم يؤنبه احد هذه المرة . انشـــغلوا بالصياح ودق جدران العربة . ظل يضحك ، والسائق يندفع متجاهلا المحطات وصـــيحات الاستنكار ، ينظر أمامه بلا اكتراث ، لا يحمـــل وجهه أى تعبير .. اى ثقة فى النفس ، بل اى نشوة ! .. كما لو كانت الصيحات والشـــتائم تطربه . لو ضـــاعف هـــذه السرعة واندفع بلا توقف ! .. هكذا حتى ينتهى البنزين أو تحترق العربة . كم يأسرنى وجهك . صلب قاس لامع هادىء شجاع كوجه أحمس . أعطنى وجهك يوما واحدا .. يوما فى حياتى أصبح فيه حاكما، ولتر ماذا سيحدث للعالم . منظر طريف وانت

ترى اقنعة الطيبة تتساقط امامك الواحد تلو الآخر ، وآنساتي الجميلات تشابكت أذرعتهن واطلقن الصرخات .. هيا يا ابن أحمس فقد تم الذعر .. تسعة .. عشرة .. احدى عشر ..

— أوقفوه !

هاها ! .. دقوا الجدران . دقوا كما يحلو لكم واطلقوا الصرخات . فماذا يضير لو غيرتم مجرى حياتكم • سوف يلتهمكم الدود في كل الحالات •

واطلق المحصل عويلا طويلا من زمارته ..

وأمى هناك فى آخر العربة تحمل طفلها على كتفها وتتمايل . أمى كانت فلاحة فقيرة وكانت تحملنى بنفس الطريقة قبل أن تموت • عملت ما عليها والقتنى فى هذا العالم وذهبت . قالت كلمتها غير المقدسة وذهبت .

— المجنون •• سيضيعنا ! •

احدى عشر .. اثنى عشر .. ثلاثة عشر .. عويل متواصل من زمارة المحصل .. أربعة عشر •• خمسة عشر •• ماذا حدث يا ابن أحمس انت تخشى المحصل ؟ .. سوف تخسر كل ثقتى فيك لو توقفت .. هيا .. مازالت على النيل والطريق واسع خال أمامنا •• افعل شيئا يحمل أسمك ويحميك من الموت .. اسرع لا تكن جبانا والا قتلتك •

وفى لمحة انقض على السائق من خلف ، فدفعه بيسراه ، ويمناه تجذب عجلة القيادة بعنف نحو النيل . اندفعت العربة بأقصى قوتها تخترق السور . مازالت قبضته تضغط على العجلة ، وصفحة المياه تقترب بجنون • وقبل أن تلامسها مقدمة العربة قفزت أمامها عوامة ضخمة • شهق! .. كان يقف فى شرفتها عجوز أبيض الشعر .. وفى جزء من ألف من الثانية ، أو فى دهر بأكمله، التقت عيونهما ، وفى اللحظة التالية كان يسمع بوضوح صرخته . تهاوت يده عن عجلة القيادة. الماء يندفع الى داخل العربة . الأجساد تتلاطم وتتكدس بعضها فوق بعض ، وهو فى اسفلها •• يغرص فى الماء •• يغوص •• بلا مقاومة •

— ٣ —

... فجأة احس بنفسه يسبح وسط الظلام، ثم يطفو على السطح • لم يصدق الا حين ابتلع كمية من الماء وهو يفتح فمه ليتنفس . بدا يسبح ، فى كل لحظة تخور قواه ويوشك ان يفرق .. رأى بعض الأشخاص يسبحون نحو الشاطىء فوأتته قوة عاتية ، وأخذ يضرب الماء • ويقترب بسرعة . بدأت يده تلمس الطين ، يحاول ان يقبض عليه فينزلق من جديد .. قبضت يده اخيرا على خصلة من الحشائش. استمات عليها. سحب جسده بصعوبة من الماء . غاب لحظات.. وفتح عينيه على وهج الشمس •• كان مستلقيا على ظهره فوق نتوء ببطن الجسر . زحف الى أعلى الشاطىء . كان هناك بعض الركاب ممن استطاعوا النجاة ، والعربة مغروسة أسفل الجسر ، لم يبق منها على سطح الماء غير الجزء الخلفى، والركاب يطلون من نوافذها ويصرخون. حاول أن ينهض مقاوما الانهيار. كانت الصرخات الآتية من العربة تخترقه . وفجأة شدت بصره الأم الفلاحة وهى تمد ذراعيها بالطفل .. دون تردد قام والقى بنفسه فى الماء • تشبث بحافة النافذة الخلفية وتناول الطفل • تضاعفت قواه وهو يسبح به نحو الشاطىء بذراع واحدة ، وحين وصل كان بعض المارة قد تجمعوا • مدوا أيديهم اليه وتلقفوا الطفل • لم يجرؤ أحدهم على النزول• عاد الى الأم فلم يجدها • كانت النافذة تكتظ بالركاب ، يمدون أذرعهم ويصرخون ، ولم يجدها القت سيدة بنفسها اليه وتشبثت به ،انقذها وعاد ليبحث عن الأم .. لم يجدها . وفى كل مرة يعود كان ينهشه القلق وهو يبحث عنها فلا يجدها ، بل يجد بين ذراعيه شخصا آخر ، يذهب به ويعود على أمل ان يجدها .. ولكن بلا جدوى . وحتى بعد أن خارت قواه تماما ، ووصلت المطافىء كان يصر على السباحة والبحث عنها ، ولم يكف الا حين غاب تماما عن الوعى •

***

... كل شىء ابيض منذ فتح عينيه : الفراش .. الجدران .. الناس .. حتى هو نفسه يرتدى الأبيض . وثب الألم فجأة فى رأسه وفى كل جسمه •

اقترب منه شرطى عجوز بحلته البيضـــاء وقد تهلل وجهه :

– حمد الله على السلامة يابيه •

همس بوهن :

– هل أنقذوهم ؟

– كنت بطلا والله •

– كم ماتوا ؟

– الدوام لله •• أخرجوا حتى الآن ثمانين جثة •• لكن العالم لا يتحدث الا عنك • نعم الشباب ! •

دارت الحجرة وكاد يفقد الوعى •

– ثمانون ! كم نجا اذن ؟

– ثلاثون كتب لهم عمر جديد • ربنا لطف بهم وبالطفل اليتيم الذى أنقذته ولم تلحق أمه •

– ماتت ؟

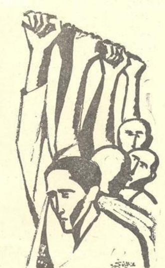
– ليتهم حتى وجدوا جثتها • والمصيبة أنه لا يعرف له أهل •

وفى دقائق كان العنبر قد امتلأ بالوافدين •• أطبـاء وممرضين وعساكر وضباطا وصحفيين • وأصـــدر ضابط تعليماته بأن يخرج الجميع ما عدا الأطباء • كشفوا عليه • سألوه أسئلة كثيرة عما يشعر به ، حقنوه • خرجوا • الضابط يتودد اليه ومعه ورق وقلم • شرطيان فى وضع انتباه • الأسئلة تتوالى عما حدث • يتكلم باقتضاب : نعم أسوان •• ألبى نداء الواجب •• ثم وجدت نفسى فجأة وسط الطوفان •• القلم يلهث فى يد الضابط • حبره قاتم وخطه كبير • شارب الضابط كث وذقنه حليقة وخضراء • أتكلم ببطء • صوتى غريب على • غليظ محشرج • يكسبنى وقارا • هذا كل شىء • شكرا • ليس لدى أقوال أخرى •

قام الضابط وصافحه بقوة وقال حكمة عن البطولة ، ثم خرج ، وفى الحال اندفع سيل الصحفيين يحملون الأوراق وآلات التصوير • أعشى عينيه ضوء الفلاش ثم تعود عليه • عاد يسرد بنفس الصوت الغريب كل ما قاله منذ لحظات فى التحقيق • وابتدأت الأسئلة :

هل كنت بطلا فى السباحة وأنت طالب ؟ •• من هو مثلك الاعلى فى السباحة •• والحياة ؟ هل تؤمن بالقدر ؟ •• الم تشعر بالخوف وسط الطوفان ؟ •• ما رأيك فى السباح العالمى أبو هيف ؟ ••

تحصن بصوته ووقاره حتى لا ينفجر ضاحكا • وفجأة أطلت الأغنية • تمنى أن يخلو بنفسه حتى يســـتطيع أن يسترجع اللحن كاملا • كان يشده بجاذبية غريبة • يفصله بقوة عن كل ما حوله • ينساب ناعما جياشا يميل الى الأسى •





ـ أرجوكم • يكفى ذلك الآن •

ـ حسـنا •• سؤال أخير •• ما هو تعريف البطل عندك ؟

ـ أرجوك • أريد أن استريح •

تدخل الشرطى فى الأمر • وبعد لحظات كان الهدوء يخيم على العنبر • لكن اللحن كان قد هرب وفشلت محـاولته لاسترجاعه •

أتوا اليه بملابس جديدة ، وبكمية ضخمة من الطعام • أكل بشهية ، وارتدى ملابسه ، أعطوه مظروفا به عدة جنيهات وضعها فى جيبه دون أن يعدها • تذكر قرار النقل الذى كان فى جيب بنطلونه القديم ، فراودته الرغبة فى أن يضحك •

وعند خروجه ودعه الجميع بحرارة كأنه صديق قديم•

ـ ٤ ـ

اندس بين الحشد المتجمع على الكورنيش تحت الأضواء الكاشفة • اللنشات الضخمة ترفع العربة من قاع النهر • تبدو الآن وهى معلقة فى الهواء كهيكل عظمى لحيوان منقرض• القوارب والغواصون يجوبون النهر بلا توقف • ذرات التراب تتجمع فى طريق ألسنة الضوء القوية فتصنع لها قواما كثيفا• وسكون ثقيل خانق مترقب يجثم على صدر المكان ، تمزقه بين حين وآخر صرخة ملتاعة من مكان ما على الشاطىء ، اذ يعثرون على جثة جديدة •

يزاحم الواقفين حتى يصل الى المقدمة ، يرى الآن كل شىء بوضوح : فوق سور الكورنيش وأسفله وعلى الرصيف يجلس عشرات من أهل الغرقى جميعهم يرتدون السواد• جاره يقول انهم يجلسون هكذا منذ عدة ساعات • تنتابه الدهشة من كل هذا الاهتمام باخراج الجثث ، فماداموا سيدفنونها مرة أخرى أليس النيل أنظف من التراب ؟

هناك قارب يدنو من الشاطىء ، يحمل عددا جديدا من الجثث ، كل الجالسين ينهضون ، ويشرئب بأعنـاقهم كل الواقفين فى الخلف وهم يزحفون الى الأمام • الحر والغبـار والترقب تخنق الأنفاس ، والسكون المخيم ينـذر بعاصفة رهيبة • القارب الصغير يدنو بطيئا وحيدا من الشـاطىء ، تتركز عليه عشرات الكشافات •• بقعة صغيرة مضيئة ، على بساط أسود ساكن • بكى طفل فى مكان ما فانطلق أكثر من صوت يخرسه • عادت الأغنية تتسلل الى وعيه فى ايقـاع جنائزى • لأول مرة أحس بالخوف • الواقف بجواره سـاع عجوز بملابسه الصفراء ، يلهث بصوت مسموع ووجهه فى لون سترته ، وفى خطوطه الغائرة تتسرب قطرات غزيرة من العرق • الغواصون العراة تلمع أجسادهم فى وهج الضوء •

القارب يرسو على الشاطىء ، يتجمع حوله عدة رجال يرفعون منه الجثث . وقال رجل على يساره . هل ترى شعورهن المسترسلة ؟ .. صاح فيه أحدهم أن يصمت . كان السهل سماع دقات القلوب . الرجال يصعدون بالجثث فى بطء قاتل ليس ممكنا رؤيتها بوضوح من خلال أجسامهم . يضعونها الآن على الأرض ويتراجعون .. كانت لأربع فتيات بملابس المدرسة ، تلاحمت أجسادهن حتى صارت كتلة واحدة . انشق شيء بصدره ، قبل أن ينشق السكون بصرخة امرأة . وهى تندفع الى الجثث الملقاة تحت الأضواء ، وانطلقت فى أثرها عدة نساء ، وبدأت عاصفة عاتية من العويل .

نكس رأسه وهو يتراجع ، بينما الجميع يندفعون الى الأمام ، يقذفون به فى كل اتجاه كموج متلاطم . وحين وجد نفسه فى الخلاء أخيرا لم يجسر على النظر الى الخلف . مضى يترنح فى ذهول ، وكلما فكر أن يقف ليحفظ توازنه أو يتدارك أنفاسه أحس أن أشباحا تطارده ، فيعاود اندفاعه المتخبط .

منذ قليل كن بجواره ، والسائق يندفع بالعربة ... يتذكر الآن كم كانت خدودهن متوهجة بالحرارة والضحك يتذكر كيف أحتضن بعضهن البعض حين بدا أن السائق لا يمزح ، يتذكر كم كانت ضحكاتهن شابة ندية أشعلت قلبه ، يتذكر كم كن جميلات !

تهاوى أخيرا على سور الكورنيش ، أغمض عينيه ومال برأسه الثقيل الى الخلف . تزحف الأغنية حارة من كل خلاياه ، تتجمع كجيوش النمل ، حثيثة مخدرة ، تصاحبها أصوات العويل ...

قولوا لعين الشمس ماتحماش ...
أحسن غزال البر صابح ماشى ...
قولوا لعين الشمس ...

***

الصفحات الأولى لكل الصحف تحمل أنباء الكارثة ، وصورته فى وسطها مقرونة بكلمة البطل وفى الداخل عشرات الأعمدة تحكى باسهاب كل ما حدث ، كما لو أن الصحفيين كانوا داخل أتوبيس الموت بأنفسهم ، وقصص غريبة للضحايا والمآسى التى خلفوها ، ثم قصة حياته المليئة بالبطولات والتضحيات ، وآخرها ـ قبل الحادث ـ تضحيته بوظيفته المستقرة فى مدينته الهادئة ليشتغل فى بناء مستقبل بلدة فى أسوان . وفى النهاية قرأ تحقيقا عن سبب جنوح السيارة الى النيل ، تضاربت فيه أقوال الخبراء والمهندسين والأساتذة حول ذلك السر .

طوى الصحيفة وسار آليا فى اتجاه مكان الحادث . كان النيل يسير فى عكس اتجاهه ، وئيدا راسخا مظلما عميق السكون ، له أقدام ثقيلة كخف الجمل ، مازال يشعر بثقلها على جسده وطعم الطين فى حلقه حين وصل الى القاع . تحول عنه ببصره ممتلئا بالرهبة . وأدهشه أن يرى كل شيء .

لم يتغير عما كان بالأمس : الناس تروح وتجيء وتزاول حياتها دون أكتراث ، محطات الأوتوبيس تمتلىء وتفرغ بلا نهاية . العربات بنفس ازدحامها . والراديو يذيع الأغانى الخفيفة .

وجذب بصره التجمع من بعيد . واقترب ، تسرى فى كيانه رعشة ويمتلىء حلقه بطعم الطمى . كان الزحام أضعاف ما كان فى الليل ، ولم يعد ممكنا أن يرى الشاطىء .

وفى جانب آخر كان الخبراء مستغرقين فى دراسة العربة ، وحولهم زحام أخف بعض الشيء . راح يراقبهم وهم يصعدون ويهبطون والعرق يتصبب منهم فتنزلق النظارات الطبية السميكة على أنوفهم فلا يعبأون بتثبيتها ، وتخنقهم الكرافتات فيحاونها ، وترتفع أصواتهم فى نقاش حاد ، وتتزاحم الاصطلاحات الأجنبية فى أنوفهم ، ويدقون بأصابعهم على جدران العربة ، ويقيسون المسافة بين المقاعد والممرات والسقف والجدران ، ويهرشون صلعاتهم فى حيرة ، ويضيقون بالسترات أيضا فيلقون بها بعيدا ، وتحترق السجائر بين اصابعهم فى لمح البصر ، وتفرقع حولهم الات التصوير وترف أسئلة الصحفيين وتدور كاميرات التلفزيون والسينما ، ويميل الباب السميك فى أفواههم على جانب فتخرج الاجابات والاستنتاجات فى وقار .

وقطع استغراقه معهم عويل صدر بالقرب منه حين أخرجوا جثة جديدة . تحول الى هناك ، رأى امرأة تلطخ وجهها بالطين وقد شقت ملابسها ، تدور وسط الناس وتصرخ صرخات غير آدمية ،

وخلفها يتدحرج أربعة أطفال لا يكفون عن البكاء ، وامتلأ جوفه وحلقه بالمياه الطينية .

وعند سور الشاطىء المتهدم كان هناك عشرات من أهل الغائبين ، يحملقون فى صفحة المياه بعيون مذهولة ووجوههم الشاحبة تؤكد أنهم لم يغيروا وضعهم هذا منذ الأمس ، وصمت مشدوه يكمم كل شىء .

اخترق الزحام فلاح عجوز يعتمد على عصا غليظة . كان يلهث ولا يستطيع أن ينطق بجملة كاملة من الانفعال والتعب . ولم يحفل به أحد . نظر اليه بعضهم نظرات عابرة ثم عادوا الى الحملقة فى صفحة النيل . استطاع أن يتبين من بين همهماته كلمتين : ابنى .. الجامعة .

غاص داخل نفسه وهو يتراجع ، وفجأة لمح فى شرفة العوامة الراسية أسفل الجسر ، العجوز الأشيب الذى رآه لحظة هوت العربة فى الماء . صابه ذعر مباغت ، ودس نفسه تلقائيا بين الزحام ، وابتعد مهرولا وهو لا يجرؤ على النظر خلفه .

وفى مكان بعيد على الكورنيش ـ حيث لا يمكنه أن يرى أحدا أو يراه أحد ـ وقف يمسح وجهه الملىء بالتراب والعرق ، ويحملق فى صفحة النيل الترابية اللون ...

... وأنت يا أمى .. أين ذهب بك التيار ؟

***

فى المساء عاد متلصصا ، ونظره مثبت على شرفة العوامة المظلمة . دار دورته كاملة حول المكان من بعيد متذرعا بالظلمة دون أن يجرؤ على الاقتراب ، وفى يده جريدة مسائية تحمل عناوينها الرئيسية أنباء الحادث وقصصا جديدة لمآسى الضحايا وتؤكد عجز الخبراء عن الوصول الى سر الحادث . كان الزحام قد خف بدرجة كبيرة ، لكن الجالسين يحملقون فى صفحة المياه لم ينقصوا ولم يتغير فيهم شىء ، والضوء والظل القويان يحيلانهم الى تماثيل حجرية عمرها آلاف من السنين ، والصمت صار أهدأ وأكثر ألفة . ظل ساعة يراقب عمليات الغواصين دون أن يخرجوا خلالها بشىء . اقترب فى تردد . أصبح بوسعه الآن أن يقف وسط المنتظرين ويحملق مثلهم فى صفحة المياه الداكنة . سمع بالقرب منه حشرجة خافتة . التفت بدهشة ، فمن ذا الذى يجرؤ على انتهاك الصمت ؟ .. وجد الفلاح العجوز جالسا القرفصاء معتمدا على عصاه الغليظة يهمهم بكلمات غامضة . كان غريبا أنه لم يتحول بعد الى تمثال كالآخرين ـ ولم تكن له عينان كعيون الخلق ليبدو فيهما أى تعبير ، هناك فقط فجوتان .. بلا تفاصيل ، غير شرطتين صغيرتين محمرتى الحواف لا تقويان على أن تنفتحا فى الضوء القوى ، وفكه الضخم المتهدل يرتعد بلا توقف ، كما تتحرك شفتاه أيضا بلا توقف ، ووجهه ثابت فى اتجاه معين ، كأنه يتحدث الى شخص ما أمامه ، ويداه السمراوان الكبيرتان يعتمد عليهما برأسه حينا ، وحينا تتحركان بالعصا لينكت التراب .

هم بأن يتحدث اليه ، وقبل أن ينقل قدمه اشتعل النور فجأة خلف زجاج العوامة ، تسمر بصره عليها وهو يحس نحوها مع الخوف بحقد هائل . تمنى لو أن العربة اصطدمت بها لتغرق معها وينتهى كل شىء .

أخذ يقترب بلا ارادة من العوامة ، يشعر شعورا قويا بأن مصيره مرتبط بمصيرها . استند على السور فى مواجهتها تماما . التقط من الارض حجرا صغيرا وهو يطحن أسنانه فى ضراوة .. هيا أخرج أيها العجوز . لماذا لا تعلن الحقيقة بعد أن عجزوا عن الوصول اليها ؟ أنت وحدك تعرفها .. دون كل البشر . ماذا تريد منى ؟ .. أن تحطمنى ؟ .. وهل بقى هناك شىء يتحطم ؟ .. انتهى كل شىء ! .. كل شىء .

وسقط الحجر من يده ، كما سقط فوق صدره رأسه الثقيل .

ـ ٥ ـ

صباح اليوم الثالث .. والكورنيش .. والعناوين الضخمة فى الصحف تعلن وصول الخبراء الى سر الكارثة . راح يلتهم السطور فى لهفة ، متوقعا أن يقرأ اسمه أو اسم العجوز . تبين ان السر هو أن السائق لم يكن فى تمام وعيه لحظة الحادث ـ ربما كان سكرانا او مسطولا ـ وفوجىء بمطب فلم يستطع التحكم فى عجلة القيادة ، وبهذا يتحمل المسئولية وحده .. رغم موته .

ألقى بالصحف فى النيل، بلا رغبة فى الابتسام.

الضباب يصنع فوق النيل خيمة هائلة . لم يستطع أن يرى مكان الحادث الا حين شاهد عددا من الحدآت السوداء تحوم فى الفضاء من فوقه.

اخترق ببصره الضباب نحو العوامة ، بدت جسما هائما غير محدد المعالم معلقا فى الفراغ الضبابى ، مغلق النوافذ كقصر مسحور •

فى الليل اتخذ القرار ، اليوم لابد أن يغادر القاهرة على أى وضع ، لكن بعد أن ينهى كل شىء بينه وبين العجوز ، ولو لزم الامر فليقتله أو يقتل نفسه •

انقضت حدأة على سطح الماء كأنها تخطف شيئا ثم عادت للتحليق ، وفجأة تذكر الحجر الصغير الذى هوى فى النيل حين قذفه بقدمه فى اليوم الأول • حك ذقنه النامية بعصبية ، ممتلئا بالعجز ، وبالكراهية لكل شىء •

لم يجد العربة فى مكانها ، ليس هنـاك غير تماثيل الانتظار فوق السور تحملق ببلاهة فى صفحة المياه ، لكنه حين تمعن قليلا وجد أنها ليست نفس الوجوه التى كانت هنا من قبل • بحث بينهم عن الفلاح العجوز فلم يجـده ، فراح يتفرس فى كل الوجوه ويفتش فى كل مكان فى المنطقة وملأه شعور بالتعاسة • وفجأة رأى طرف العصا الغليظـة ذات الندوب ، تطل من خلف شجرة ضخمة على الكورنيش ، حيث وجد العجوز مكوما تحتها ، يدفن رأسه بين ركبتيه ويحكم حولهما ذراعيه مستغرقا فى النوم • فاض صدره بالغبطة وهم أن يوقظه ، لكن يده جمدت فى اللحظـة الأخيرة وتراجع مهزوما •

لم يدر كم مر من الزمن وهو يذهب ويجىء بالقرب من الفلاح ، الا أنه انتبه فجأة على زجاج النوافذ بعوامة العجوز يعكس ضوء الشمس • انتابه شعور بأن وراء الزجاج يقف العجوز يراقبه • أخذ ذهنه يعمل بسرعة كاملة •• أعرف أننى لن أنكر •• لن أنكر لحظة واحدة لو واجهنى بالحقيقة•• استعرض كل الاحتمالات التى ستترتب على اعترافه ، ووضع أمامها الاحتمالات التى ستترتب على قتل العجوز •

وخطا نحو السلم الهابط الى العوامة فى تصميم • تدوى فى أذنيه دقات قلبه • راح يتلفت حوله فى حذر • لم يكن هناك أحد بالقرب منه • هبط أول درجة وعاد ينظر خلفه ، وفجأة وقع بصره على الفلاح العجوز تحت الشجرة ، كان ما يزال مستغرقا فى النوم الا أن الشمس كانت قد أغرقته • صـعد ثانية وهو يلهث ومسح عن جبينه حبات من العرق البارد •• لم يلم به أى شعور بالخوف ، فقط كان مفعما بالعار •

ـ ٦ ـ

اتسعت عينا الضابط الشاب وهو يحملق فيه ، وابتسم بعصبية :

ـ أنت تمزح بالتأكيد يا سيد صبحى •

دق المكتب بغضب :



ـ لم أجىء لأمزح معك • جئت لأعترف بالحقيقة •

نهض الضابط وقد امتلأت عيناه بالرعب :

ـ ولكن •• هذا مستحيل •• أنا لا أصدق ••

ـ لا يهمنى أن تصدق أو لا تصدق •• يهمنى أن تكتب ما قلته فى الورق الذى أمامك •

خرج الضابط من خلف مكتبه ودس يديه فى البنطلون وأخذ يذرع الحجرة مطرقا ، ثم واجهه فجأة :

ـ هل تعرف ما معنى ذلك ؟

ـ أرجوك •• أنا متعب •• هل ستكتب أم لا ؟

لكم الضابط كفه بقبضته الأخرى واتجه نحو التليفون أخذ يتحدث بشأنه لحظات مع شخص ما ثم وضع السماعة فى يأس وهو يهز رأسه وراح يسجل كل ما قاله •

وفى عربة الشرطة ألقى رأسه الى الخلف وأغمض عينيه بارتياح : وأفاق حين توقفت العربة • توهجت فى الشمس الأزرار النحاسية فى ملابس الجنود الذين يرافقونه • أدخلوه حجرة واسعة ، فى صدرها رجل ضئيل الحجم خلف مكتب هائل •

ـ تفضل استرح يا سيد صبحى •

وعرف أنها النيابة •

وبدأت محاورة من نوع المحاورات التى يراها فى الأفلام فى مثل هذه المواقف • كان يقســـد على المحقق بسرعة كل تكتيكه ، من اغماض العينين ورفع الحاجبين والأسئلة المباغتة البعيدة عن الموضوع ، والدوران فى الحجرة حوله ويداه فى جيوبه ، والانقضاض المفاجىء عليه بسؤال مباشر ، بينما يحلم باسمه الذى سينشر فى الصحف غدا •• أثناء كل هذا كانت تنتـــابه الرغبة فى الضـــحك عليه ، لـــكنه كان مليئا بالسأم •

وأخيرا أطلق المحقق تنهيدة اليأس ورفع السماعة وراح يتحدث هامسا الى شخص ما •

وعادوا به الى عربة الشرطة ، لكنه لم يغمض عينيـــه حين انطلقت به ، لقد تنبأ لنفسه بالمتاعب • وعندما توقفت العربة أمام المستشفى مرق فى ذهنه فجأة ما يريدونه ، فصاح فى غضب :

ـ أنا لست مجنونا •• لست مجنونا •

وفشلت محاولاتهم لاقناعه بالنزول ، فدفعوه عنوة الى المستشفى ، وقادوه الى الطـــابق العلوى ، ووجد الجميع فى انتظاره ، يملأ عيونهم الفضول والبهجة وهم يعدون الـــكلام الذى سيقسمون عليه لأصدقائهم وذويهم مؤكدين أنهم رأوه بعيونهم هذه !

وفى حجرة هادئة أجلسوه ، وأمر الطبيب الجميع بالخروج ، وعادت الاسئلة وبدأ الكشف ، أحس بالراحة للمس الاجهزة المعدنية الباردة اللامعة على جسده ، مصحوبة بتلك الرائحة المميزة لحجرة العمليات . كان رأسه يلتهب ويشعر بخوف غامض ، لكنه حقيقي . كان هناك أكثر من طبيب يتحدثون بالانجليزية ويتبادلون الاصطلاحات اللاتينية ، ثم يدونون الملاحظات .

وانتهى الكشف بعد ساعة .. كانت أطول ساعة قضاها فى عمره . وسار معهم الى الحجرة التى خصصوها له ، وابتسامات الممرضات ترف من حوله . وتجاسرت احداهن فقدمت اليه « اتوجراف » ليوقع عليه .

.. من كان فى شجرة عائلتى شخصية عامة ؟
.. ها قد أثمرت شجرة الصفصاف ! ولقد قالت جدتى أن الحظ ينتظرنى فى قاع النيل . حسنا
.. هل سمعت جدتى عن « الأتوجراف » ؟ ..
والعجوز رابض مازال فى العوامة ، يمنى نفسه بمجد زائف ، ونسرين لم تكن فى بياض هذه الممرضة ، وكانت عجفاء ، لكنى لم أهتز لغيرها ، والآن ترى اسمى وصورى فى الصحف وتعض شفتها .. اندمى وتوسلى كما اشتهت يا برج الحمام الأبيض فأنا الآن شخصية عامة . وغدا تكتب الصحف بالبنط العريض : جن البطل ! ..

ويجتمع المحللون والعلماء ، ويجد الصحفيون والقراء مادة مثيرة ، ويأتى الناس من كل صوب وفى أيديهم النذور ، وتأتين بالبخور وتطلقين .. ولن أراك .

***

.. والشمس الغاربة تتساءل ، والأغنية تتسلل مع الظلام الزاحف ، وتملؤنى بالرعب ، والعيون وضعوها حولى فى كل مكان ، وأنا أعرف خطتهم اللئيمة فى دفعى الى الجنون . وقد نشرت الصحيفة المسائية فعلا نبأ جنونى . والأشجار السوداء على صفحة السماء الحمراء تذكرنى بالحدآت السود وتدعونى . ومن نافذة الحجرة أرى العالم غريبا كما لم أره فى حياتى ، صامتا متربصا توسوس فيه أشياء مريبة ، وتأتينى الممرضة البيضاء بفنجان شاى فأرى فى عينيها وابتسامتها خيوط مؤامرة . وبخار خانق كثيف يتصاعد من كل ما حولى ، بل من جوفى ، ليحاصرنى ويسد على المسالك . وأن أموت مجرما خير من أن أموت مجنونا . والعجوز .. ما زال هناك رابضا مطمئنا فى عوامته ، واثقا كما لو كان الثقة نفسها ، كما لو كان قد قرأ فى الكتاب أنى قادم اليه والعجوز الريفى الآخر جاثم أمام العوامة كحارس المقبرة ، ينبش التراب بعصاه . وأمى لم تشأ أن تأخذ معها الطفل فقذفته الى وهى تعرف أننى لن أعود اليها . والسنة رمادية فى الشفق الأحمر تتقاطع مع الشجر الرفيع الأسود . وضحكة العجوز الخنفاء .. وأنا قادم! .. قادم ! ..

وغادر الحجرة فى غبشة المساء ونزل متلصصا . وفى حديقة المستشفى قابلة ممرض فقال له أنه فقط يشم الهواء . وقرب البوابة ظل دقائق يراقب البواب حتى دخل حجرته الصغيرة ، فغادر المستشفى دون أن يلتفت ناحيته . ووجد نفسه مرة أخرى على الكورنيش . وابتسم له خد النيل اللامع مع آخر فلول النهار ، لكنة كان حذرا وكتوما فرفض أن يفضى اليه بما حدث طوال هذا اليوم بعد أن غادره . ومع اقترابه كان يشرق بنشوة صوفية ويتعالى الدبيب طبولا فى صدره .. وحين وصل لم يجد أثرا لكل ما حدث ، ظن أنه أخطأ المكان لكن عوامة العجوز كانت رابضة كعهده بها . وخطر له أن كل ذلك قد حدث له من قبل ، ونفس هذه الدهشة أصابته ، ربما منذ عام وربما منذ ألف عام . ويومها ظن أيضا أنه أخطأ المكان لكن عوامة العجوز ابتسمت له ساخرة . استند الى الشجرة التى كان يرقد تحتها الفلاح فى الصباح وظل ينظر الى النيل الذى انطفأ خده تماما ، وثمة تجعدات غامضة على وجهه يكشفها ضوء المصباح البعيد ، فصار شبيها بوجه الفلاح العجوز . وطاف به هاتف بأنه سوف يرى الفلاح الآن ، سوف ينبعث له من مكان ما ، وظل يحبس أنفاسه فى انتظاره وفجأة أطل من بطن الجسر شبح أسود وأخذ يتطاول حتى استقام . ظن أنه

الفلاح العجوز وهم أن يخف اليه ، لكنه فوجىء بقامته سامقة أكثر من قامة الفلاح ، يتقدم لى أعلى الجسر فى ثبات ولم تمض لحظه حتى أطل من بطن الجسر شبح ثان ·· وثالث ·· توالى ظهور الاشباح وصعودهم الى الشاطىء لينضموا صفا واحدا فى صمت · خيل اليه أنه يعرف بعضهم ، خاصة الفتيات الأربع اللاتى كن بالعربة ·· وهذه المرأة ·· انها أمه فعلا ·· لكن شعورهن اليوم محلولة ومسترسلة حتى السيقان، وكانوا جميعا طوال القامة فى حجم الأشجار · شله العجز عن عمل أى شىء ، وظل يركز عليهم عينيه متوقعا أدنى حركة أو همسة ، لكن الصمت ظل مطبقا عليهم وعلى كل الوجوه ، حتى العربات لم تعد تمر على الكورنيش · وفكر أن وجوده من يوم أن ولد كان يعده فقط لهذه اللحظة ، وعليه الآن أن يواجه قدره وتمنى لو تلاشى داخل هذه الشجرة ·· لو صار شجرة !

··وفجأة بدأ الاشباح ينشدون نفس الأغنية ·· بدأ بها النساء بصوت خافت مرتعش كأنه يتسلل من قاع النهر ، ثم يرد عليهن الرجال ، بصوت أجش ممطوط ، ثم يشترك النساء والرجال معا ، فينساب صوت كستائر من حرير ، معذب الا أنه متقد كعيون من الجمر تشع فى الظلام الفاحم · امتلأ جسمه بالشوك ، وأوشك أن يصرخ مستنجدا ، لكنه بلا ارادة اندفع الى مدخل العوامة وقفز سلالمها وراح يطرق بعنف زجاج الباب ··

– ٧ –

تدفق عليه فجأة سيل من الضوء حين فتح العجوز ، وشعر ببعض الطمأنينة ، الا أنه لم يستطع أن يرى وجهه جيدا لأن الضوء كان يأتى من خلفه · قال من بين لهاثه :

ــ هل تسمح لى يا سيدى ؟

هز العجوز رأسه مستفسرا فقال بعد ارتباك :

ــ سوف استريح قليلا ·· أنا صبحى زيدان ·· الذى نجوت من حادث الأتوبيس ·

لم يعرف أى تعبير انطبع على وجه العجوز فى الظلام ، وطال الصمت ، وفجأة صاح مهللا :

ــ أوه ! ·· أنت ! ·· تفضل تفضل ·· لا تؤاخذنى يا بنى ·· لم أكن أتوقع ·

ووجد نفسه وسط ردهة واسعة توحى بالثراء سار خلف العجوز حتى بلغا ركنا بعيدا خافت الاضاءة ملاصقا لنافذة تطل على النيل ، والعجوز لا يكف عن ترديد عبارات الترحيب · جلس على الأريكة المنخفضة ، يكسوه الخوف والغربة ، وأمامه على كرسى مرتفع جلس العجوز · وساد الصمت ، واسترخى فى الاريكة وبدأ لاول مرة يتأمل الرجل العجوز ··

ملامحه المسترخية البشوشة لا تختلف عن ملامح أى جد ، الا أن سمرته كانت ذات لون خاص كلون الشاى بالحليب أو كلون مياه الفيضان !

وهرب من الصمت :

ــ أليس معك أحد هنا ؟

ــ كما ترى ·· أعيش وحدى منذ سنوات طويلة على النيل ·· نؤنس بعضنا !

وضحك ضحكة جافة متكسرة ··

ــ ونحرس بعضنا ان شئت ·· هل تعرف أن العربة التى غرقت لم يكن بينها وبين العوامة غير سنتيمترات ؟ ·· كان وفيا لى حين أوقفها فى آخر لحظة !

ومضى العجوز يثرثر عن الحادثة ويعيد نفس القصص التى استهلكها الناس والصحف ، وملأه الحنق عليه ، فقاطعه فجأة :

ــ اسمع يا سيدى ··

وحين عم الصمت أحس بالندم لأنه قال ذلك ، وفى تجويف السكون أطلت الأشباح مرة أخرى ، ودخل كل منهما فى عينى الآخر ، ورقت القسوة فى عينيه وهما تطلبان من العجوز الرحمة ، الا أن نظرات العجوز لم تكتسب أى تعبير غير الترقب المحايد ، وربما مسحة من العناد واعترف بينه وبين نفسه بالخوف ، لكنه لم يعرف سبب خوفه، أهو من الموت أم من استحالة الموت ··

ــ انك تعرف كل شىء ··

ــ كل شىء عن ماذا ؟

ــ عن الحادث و ·· وعنى ··

ــ طبعا طبعا يا بنى ·· وكل الناس تعرف ·· الصحف أفاضت فى الحديث عن بطولتك و ··

ــ أرجوك كفى مراوغة ·· أنا أقصد الحقيقة ، التى لم يعرفها الناس ولا الصحف ·

ــ لا أفهم عن أى حقيقة تتحدث ··

وقد علا صوته فى غضب :

— بل تفهم كل شيء وتصر على تعذيبى ٠٠ ماذا تريد منى ؟ ٠٠ هه ؟ لقد جئتك بنفسى أجثو على ركبتى تحت أقدامك ٠٠ ألا يكفيك هذا ؟

غاص العجوز فى كرسيه وقد تهدل فكه ٠٠

— لماذا تصر على الصمت ؟ ٠٠ تريد أن تبتلعنى لتعيش بضع مئات أخرى من السنين ٠٠ لكننى لن أسمح لك بابتلاعى، ٠٠ النيل نفسه لم يستطع ابتلاعى ٠٠ وعندما أموت فلن أموت الا لأننى أريد أن أموت لا لأنك أو غيرك حكمت على به ٠٠ وقد كانت هذه هى الغلطة التى انساق اليها سائق العربة كما انساقت اليها نسرين ٠٠ فكل الناس تستطيع أن تحقد أو تحب ٠٠ لكن هذا لا يعطيهم الحق فى أن يصدروا حكما على الآخرين ٠٠ وقد وقعت أنا أيضا فى نفس الغلطة حينما بهرنى وجه احمس وهو يقود عربته الحربية ٠٠ مستمدا اصراره من غدر نسرين ٠٠



وتوقف عن الصياح وهو يلهث ، وكانت أصابع يده ترتفع فى الفراغ متشنجة ، ووجه العجوز شاحب قديم ٠ وانتصب، صمت ، صمت منحوت مصمت ، من ذلك النوع المشكل بالأيدى ٠ وتراخت أصابعه ، وتهاوت يده الى جانبه، ولم يجد الجرأة لينظر فى عينى العجوز ، الذى أطبقت شفتاه على شيء غارق فى العمق والابهام ، وانتابه شعور بأنه أمام اله مصرى قديم فى معبد فرعونى ٠ وحينما خشى غضبه وغدر الصمت قرر أن يتكلم ٠٠

— حسنا ٠٠ سوف أحكى لك كل شيء ٠٠ لعلك تتذكر وجهى ٠

وبدأت قطرات الكلام تتحدر ، على مسارب تمثال الصمت ، وكان لا يحول نظره عن عينى الاله الرابض خشية غضبه ٠ وقال فى نفسه انه لم يكن نقيا صادقا وهو يتحدث كما هو الآن ٠ وقال أيضا أنه تعود أن يبذل مجهودا ضخما عندما يتحدث حتى يفهمه الآخرون ، لكنه الآن يتحدث كما لو كان يرش جسده بالماء المقدس ٠ ثم قال ان هذا اله عجوز وطيب وسوف يغفر لى اهانتى ، ذلك لأننى كنت دائما أعرفه، حتى قبل أن أولد ٠ وعندما التقت عيناى بعينيك لحظة هوت العربة فى الماء ، قلت وماذا بوسعى أن أفعل وأنت تعرف من قديم أن كل ذلك سوف يحدث ٠ وقلت أيضا ربما اخترتنى بالذات لأقوم بهذا العمل لحكمة عميقة فى نفسك ، لهذا فلن تتخلى عنى أبدا ،وهاناذا أخيرا بين يديك ،راض بحكمك ،فأنت ملاذى الوحيد ٠

كان العجوز يطل عليه بعينين جامدتين ، التفت حول محجريهما دوائر التعب . يسترخى يائسا مهدما كفتاة فضت بكارتها عنوة ، وهمس فى اعياء :

ـ أيها الكذاب !

ثم انتفض واقفا فجأة وواجهه :

ـ والآن .. ماذا تريد منى ؟

رفع صبحى اليه من أسفل عينين تتوســـلان بطلب الرحمة ، وتمتم :

ـ فقط أن تعلن الحقيقة .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ سأموت .

ـ حسنا .. انهض .. انهض أنا آمرك ! .. تعال هنا .. هذه هى النافذة .. وهذا هو النيل .. والآن .. الق بنفسك .. لقد أمرتك !

نظر صبحى الى الوجه الأسود الذى يلمع بشطفات من الضوء المتناثر من العوامة ، وملأ الرعب قلبه . تراجع مبتعدا عن النافذة وهو يتمتم :

ـ لا أستطيع ! .. لا أستطيع ! ..

اقترب منه العجوز ، وفح من بين أسنانه :

ـ أيها القذر ! .. كانت جثتك ستلوث مياه النيـــل الى الأبد .. والآن .. اخرج .. أخرج فورا ولا ترنى وجهك أبدا ..

واندفع تجاه باب العوامة وفتحه . اقترب منه صبحى بخوف ممزوج بالتوسل :

ـ أريد أن أعرف شيئا واحدا .. ألست أنت الذى ..

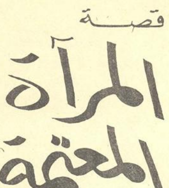
ـ قلت لكأخرج .. أخرج !

واهتز ممشى العوامة تحت قدمى صبحى ، والضـــوء من خلفه يلقى بظله أمامه فيتراقص فوق السلالم الصاعدة نحو جوف الظلمة ، ثم صفع العجوز الباب بعنف فأطبق الظلام على كل شىء .

مضى يتخبط على الكورنيش . كان رأسه مشـــحونا بطاقة مدمرة من الكهرباء ، طاقة أحس أن بامكانها أن تدير مصنعا بأكمله . ولم يكن رأسه الذى يشبه لمبـــة كهرباء صغيرة ليتحمل كل هذا الضغط ، وفجأة رأى اللمبة تنفجر فى دوى خاطف ، وهى تطلق شعاعا باهرا هتـــك الظلام . صاح صيحة نشوة ، وهو يشعر بأنه يمتلك قوة الانبياء . وفرد ذراعيه وراح يدور حول نفسه مطلقا صيحات الزهو

ـ أقبلوا يا رجال الصحافة .. أقبلوا يا أشـــباح النهر .. سأنبئكم بما كان وما سوف يكون !!





بقلم
أبو بكر عبد الظاهر

انعكست على سطح المرآة أمامى بقعة صارخة مهتزة من الضوء ، وشعاعات متقطعة ومتصلة من لعبة الكهرباء العارية، كرأس المشنوق ، تتدلى داخل أنشـــوطة صلبة تثقب فراغ الردهة ٠٠ وتثقب عينى ، أخذت حلقة من الضوء غير محددة المعالم غريبة عن كل ما أملك ، تتسع ببطء ، كسطح بركة من ماء راكد ، انتهكته كتلة متطفلة ألقيت على العمق ، فهربت من حولها دوائر الماء المطعون ، وكلما اتسعت حلقـــة الضوء تفتتت وذابت ، وانكسر حدها ، ثم أخيرا تلاشت ٠ ومن عمق هذا الضياع تبدأ حلقة أخرى تتولد تدريجيا ٠ وتوالت حلقات الضوء أمامى تهرب كلها الى رقعة الظل خلف اطار المرآة ، الى مجهول يتخطى حد الرؤيا فى حدقتى المحـدودة ٠٠ وكيف للمحدود أن يشمل اللامحدود ؟ ٠٠ تحركت يدى بالموسى على ذقنى بوعى أول الامر ثم برتابة تلقائية آلية فيما بعد ٠٠٠ تجمدت أفكارى وأخذت شكلا آليا داخل رأسى الاجوف المعتل ٠٠ مع رتابة الحركة فى يدى ٠٠ انبسطت أعماقى فتسطحت ولفظت كل اهتماماتها الا طنينا خافتا لحوحا ٠٠ لســعنى الموسى على صفحة خدى فانكمشت ٠٠ شعرت أن جلدى ضاق عن جسدى لحظة اللسع ٠٠ تجمعت نقطـــة من الدماء مكان الخدش وسقطت فى الحوض ٠٠ وأخذت تتسع وتتفتت الى أن تلاشت هى الاخرى ٠٠٠ تماما كما تتلاشى حلقات الضوء فيما بعد حدود المرآة وحدود رؤياى ٠٠ شعرت بوحشة وانقباض يتسربان بين شفتى الخدش فى خطوات وئيدة الى كهف يخصهما داخل قطعة الدم النابضة فى صدرى ٠٠ ثم ضاعت نقطة الدم بين نقط الماء المتساقطة من الصنبور ٠٠

الشقة معتمة ٠٠ رأيت العتمة هابطة من تحت جناح خفاش يحترق ٠٠ ولما أبت أن تستكن على صلبان الصقيع ٠٠ هجرت أقدامى فى برد انتفاضاتهـــا القلقة ٠٠ ونصبت فى الاركان خيوطا عنكبوتية ٠٠ تشابكت وتداخلت وانجدلت ، حول الصدر جديلة تغلق شـــطريه على خواء تافه ٠٠ وحول العنق جديلة تشتد ، وتذيبه قطرات من الاختنـــاق نفقده الاحساس بأن له بقية تمتد الى حيث أقف ٠٠ ولم يكن بالمكان كله مصباح غير مضاء دفعت بأمواج الضوء ٠٠ علها تجد بين صخور العتمة منفذا الى سجنى ٠٠ ووددت أن أنزع الستائر ٠٠ وأن أرفع المزاليج والبسط ٠٠ كم هى بغيضة مضللة ؟ ٠٠ النور صريح ٠٠ والظلام صريح ٠٠ كلاهما ذو مقياس جلى العلامات ٠٠ ملموس الحد والمقطع ٠٠ لا أكرههما جمعت منهما شبرا ونصف ذراع ٠٠ ثم لم يعد بعدهما الا العتمة ٠٠ تركت ذقنى نصف محلوقة وأضأت مصباح السلم ومصباح المطبخ ٠٠ ولم أفلح فى أكثر من هذا ٠٠ عادت يدى تتحرك بالموسى على ذقنى بنفس الرتابة ٠٠ وعادت نقطة أخرى من الدم تتجمع مكان الخدش حبستها تحت أصبعى ٠٠ وضغطت عليها لاعيدها

الى شرايينى ·· خفت عليها من نقاط الماء ·· لو ضاعت بين نقاط من دماء الآخرين لهان الأمر ·· وبلزوجة خبيثة رافضة سالت نقطة الدم على أصبعى ·· وضاعت بينه وبين خدى الجريح ·

صوت الليل يتكسر على حواف نوافذى ·· وأنفاس شارعنا الممتد الى منابت الشعر فى رأس المدينة ·· الى حيث يصب، فى البحر الاخضر شحنة ملوثة من غبار الغابة ذات الالف مدخنة ـ تموت رهيفة فى مقبرتى ·· فلا أسمع من أنفاسه الا أنفاسى ·· ولا أحس من صوته المكسور الا صمتى ومن ثقب الصمت ·· تسرب الى خياشيمى عطر زوجتى ·· لكنه بالتأكيد ليس هو ·· انما هو الظل فقط ·· أجزم أن عطر الوردة لايبقى حيث غابت الوردة كاد العطر أن ينسينى ·· انجذبت نظراتى الى وجهها الباهت الميت يحدق فى ·· وعيونها المركزة على وجهى تحملق فيه باصرار من خلف الستار الزجاجى للاطار المصلوب خلفى مثل نافذة للأنانية ·· لا تسمح لأى هواء غير هوائها أن يزورنا ·· مليئا بالغموض النابع من هاتين البئرين الشديدتى الغور والسواد ·· واضطربت لمباغتة التلصص ·· وكالمعتاد لم أفهم من هذين النذيرين أى معنى ·· ولم أستطع تكوين حكم قاطع ·· ومع غموض نظرائها ·· ورائحة العطر الوهمى ·· شممت رائحه غير محددة لخجل مبهم ·· يخرج من جبهتى ·· ليصطدم بحلقات الضوء ·· ويتفتت معها خلف المرآة ·· وبوضوح تذكرت رائحة الظهيرة فى اليوم الاخير من الشهر الماضى ·· نعم ·· وبكل تفاصيلها ·· وأذكرك بها ان كنت قد نسيت·

عندما ذبنا أنت وأنا فى كتلة اللحم للركاب الآخرين ·· والعجلات تلتصق بأسفلت الطريق المنصهر فى لزوجة ساخنة كتلك التى تلف جسدينا ·· والعيون محمرة ·· متحجرة·· تتكسر تحت أسوار جفونها قبل أن تنكسر على جدران العربة ·· ويعلو الرءوس شعر مبتل ·· وقطرات داكنة من العرق تتدحرج على الاقفية ·· مختلطة بالغبار والوسخ ·· ولما أن ارتد زفيرى مطرودا من اللامكان الباقى فى الحيز الضيق تحت السقف خنقتنى رائحة العرق وعطرك ·· والانفاس المزحومة ومع كل اهتزازة تتماوج كتلة اللحم ·· ثم تتمزق ·· وتعود الى التحامها من جديد ·· ولم أجد صوتك فى أنين المقلاة ·· وأصوات الغضب تتناثر حول أكتافنا وتسقط على كومة المشاحنات المتزايدة ·· مع كل لفتة أو حركة من قدم ·· وأنت صامتة ·· حتى سحابة التأفف السريعة التى عبرت وجهك ·· أخفيتها تحت طلائك ·· ليتك سكبت فى أذنى قطرة واحدة من الاحتجاج ؟ ·· قطرة واحدة ·· كانت تحمل

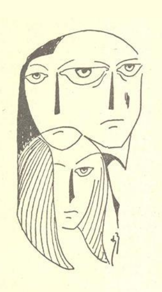
معى سخف هذا الصنم الذى يحتك بجسدك من الخلف ٠٠ ويتعمد اغتصاب قشرة من اللذة الحيوانية التى تلف لحمك ٠٠ وأشرب عينيك ٠٠ علنى أتذوق ألما لاحتجاجك ٠٠ أو رفضك ٠٠ فلا أرى الا بئرين غاصتين باللامبالاة ٠٠ وشطرنى الارتباك والخجل ٠٠ ثم غصت فى طين عينيك حتى أذنى ٠٠ وانحشرت فى حلقى عصا جافة ٠٠ جعلتنى أتقيأ كبريائى ٠٠ وأشتبك مع الرجل الدنيء فى معركة بالشتائم ٠٠ وبالأيدى ٠٠ بعد أن فشلت فى اطفاء أفرانى ٠٠ وازداد خجلى وتمزق قميصى ٠٠ أظنك تذكرين ٠٠ رأيت العيون المحمرة لكتلة اللحم تخترقنى وتخترقك ٠٠ وتهدم من حولنا السور ٠٠ يومها لم نكمل طريقنا ٠٠ الا أن طعما نحاسيا حاد ٠٠ ظل يملأ فمى طوال اليوم ٠

امتلأ فراغ الشقة برنين مفاجيء ٠٠ وعادت الساعة تمارس الدق بانتظام ٠٠ وعقاربها تفجر فقاعات الزمن فى بئرنا الناضب ويحمل كل منا جسد أيامه تنهشه العقارب فيتآكل فى ارتداد أبدى ٠٠ حتى اذا نثر أحدنا حمله ٠٠ عاد ٠٠ وليس فى كفيه الا حفنة من كذب ٠٠ نبهنى الرنين الى اقتراب موعدى ٠٠ تحمست لانهاء حلاقتى ٠٠ وتحمست لاحساس خفى بالانتقام ٠٠ جميل منهم ان يذكرونى الآن ٠٠ وجميل منهم أن يبسطوا أمامى مواعد لياليهم ٠٠ تماما كالايام الخوالى ٠٠ لا أدرى سببا لوجود بقعة الارتباك ٠٠ كأننى أذهب اليهم للمرة الأولى ٠٠ وكأنهم غرباء ٠٠ قاربت سنة على الاكتمال لم أعش لياليهم ٠٠ منذ زواجى ٠٠ وبهتت تفاصيل السهرات ٠٠ والفلسفات التى يصنعونها على عجل ٠٠ وبهتت أركان المحراب ٠٠ وكدت أنسى لا أدرى من منا على صواب ٠٠ ومن الذى يمسك بالورقة الرابحة ٠٠ أنا ٠٠ أم هم ؟ لا أدرى ٠٠ أعتقد أن كل انسان له رقعة خاصة من التكوين والتفكير لا تصلح لغيره تماما ٠٠ مثل بصمات ابهامه ٠٠ أنا لم أقتنع بفلسفتهم ٠٠ ولم أستطع أن أجاريهم ٠٠ شريف ٠٠ لايطيق أن يوضع فى قالب منتظم ٠٠ مهما كانت مكاسبه ٠٠ ليس لديه براح يتسع لشيء غير الفرشاة والالوان ٠٠ بعد أن شجبت بقية الاهتمامات من نهاره المبتسر ٠٠ وليله الممتد ٠٠ يؤكد أنه يموت لو أرغم على مجاملة امرأة ما ٠٠ وكل اهتمام يتخطى الفرشاة والالوان ٠٠ هو معاناة سمجة ٠٠ وقيد من التفاهة واللا جدوى ٠٠ وضياء ٠٠ هو الآخر يخلق عرائسه من ذاته ٠٠ يقتطع ملامحهن من معاناته التى تمتص ماءه ٠٠ قطرة اثر قطرة ٠٠ مثل قطرات المداد المنسكب من لسان قلمه ٠٠ تحكى عرائسه ٠٠ وكلما لف احداهن فى مكتمل صحائفها ٠٠ خبت فى أعماقه التماعة اللهب ٠٠ ثم لا تفتأ أن تعود فتلمع من جديد ٠٠ ويعود ضياء الى خلق عرائسه فى خضوع لجبرية قاهرة ٠٠ ويكتب ٠٠ ويكتب ٠٠ الى أن يجف القلم ٠٠ ويجف معه ٠٠ ثم يحترقان ٠٠ لم يستطع أبدا أن يضاجع امرأة يعينها مرتين ٠٠ ليس فى دنياه الا الكتاب ٠٠ ومجمع الشلة ٠٠ وبقية من نساء لا يلدن الا الزيف ٠٠ والآخرون من أعضاء الشلة كل له واديه ٠٠ وكل له تفرده فى التشكيل والتكييف لم يخرج على اجماعهم الا أنا ٠ أنا فقط دونهم جميعا اخترت أن أكون نصفا بدلا من أكمل الطريق وحيدا ٠٠ وسمونى الرجل السراب ٠٠ دون أن أعرف سببا لهذه التسمية ولا مسميها ٠٠ وعلى كل حال ٠٠ ذلك شيء مضى ٠٠ وأظنه شريف ٠٠ لانه أبرع الجميع فى لدغ الكلمات ٠

تكثفت ذرات البخار على المرآة ٠٠ فانطمست صورتى ٠٠ بحثت عن خرقة أستعيد بها وضوح الصورة بحثت فى الأركان وفى الدولاب والشيفونير وبين قطع الملابس المنثورة فوق كل شبر من الأرض ٠٠ فزدت من تلال الفوضى التى تعبث بشقتى ٠٠ وعندما عثرت على قميصى المشطور مسحت تراب أنفاسى بشطر وأبقيت الآخر لأوسد به جرح كرامتى ٠٠ وأمسح صورة الصنم الدنيء ٠٠ وكلما مررت تحت اطار الصورة ينكمش جلدى تحت سوط نظراتها الغامضة ٠٠ فكرت أن أصعد اليها فانتزعها أو أديرها نحو الحائط ٠٠ لكنى تكاسلت ٠٠ ثم تذكرت فجأة أنى نسيت غدائى ٠٠ ونسيت عشائى ٠٠ وأننى ملء بالجوع حتى الحافة ٠٠ فطفحت شعورا بالكرب ٠٠ كأننى أواجه مشكلة ٠ كيف باتت هذه الاحتياجات اليومية التافهة تتجسد داخلى فى أحجام تملأ حيز المشكلات ؟ ٠٠ صغيرة ٠ الا أنها حقيقة ماثلة ٠٠ تستنزف جهد النقاش فى أعصابى ٠٠ وكان هذا يبعث فى نفسى ضيقا أكثر مما تبعثه المشكلة ذاتها أخذت أفاضل بين ارجاء الطعام لما بعد خروجى ٠٠ وبين

تناوله الآن .. وقبـل أن يتحدد فى ذهنى حل بعينه .. فتحت الباب .. وناديت البواب ..

عادت يدى تحرك الموسى ... وعادت حلقات الضوء على المرآة تتكون وتتلاشى .... ومعها تكونت خيالات لنساء بلا معالم .. وخرجن من داخل الحلقات في تشـــابك باهت مزدحم .. يصيبنى بالاشـــمئزاز .. وأمعنت التحـــديق فتيقنت أننى لم أعد أعى من ملامحهن الا مسحة ...ولا اود أن أتذكر أسماءهن بتاتا .. عبرن أيامى وجيوبى بلا أقدام ..... أخذن فى الظهور والتوارى تباعا خلف المرآة ... الا واحدة .. تصدرت بوضوح ... كانت تكبرنى بقدر وافر من العمر .. وعاشرتها معـــاشرة الموتى لأيام ممطوطه عجفاء ... ولم يستطع زوجها أن يمد يده ليوقف النزف ... وكان ثمة احساس دائم بالقرف يتملكنى حياله واحيانا بالرثاء ... أطلق على شريف آنئذ « مدير البنك » ... بعد أن ضربت حولى سياجا سامقا من ثرائها الفاحش .. و سمعت خواررنين الذهب فى مســـامع الاموات ... هددتنى باشعال النار فى جسدها اذا تزوجت ... ولما كنت على يقين من أن جوفها لا ينضج الا الكذب ... فمن ثم فرشت بين يديها كل ما أحوز من البنزين وأعواد الثقاب .. ساعتها شقت نظراتها طريقا بين رشيح الدموع الكلحة واصطدمت بدبلة الزواج تلف أصبعى ... فبصقت فى وجهى ... ثم خرجت من مسكنى .. ومن حياتى ... لم اكن أتصور ان الرجوع الى هذا الدرب صعب الى هذا الحد ... منذ أن دعانى شريف .. وأنا متردد ...... (كان الأجدربى الا اخاف من أن أقول خائف بدلا من متردد) .. وفكرت كثيرا فى الانسحاب ... استحال على أن أتخيل نفسى ممتزجا بأحضان امرأة غريبة .... عرفت أن المانع من الخيانة ينمو فى الداخل ... مع تحكم العادة فقط .. وصـــعوبة كسرها .... ليس خوفا من ردع القوانين .. وليس اتقاء لسخط الجماعة .. وليس ترفعا عن خدش الذوق العام ... أو قواعد الاخلاق .. كما يدعون ... الآن تبينت أن سلطان العادة ، هو مانعى الوحيد .. بردت العواطف الساخنة منذ زمن .. بل أقول تجمدت .. اتخذت هى الاخرى مجرى العادة .. وكل زوجتى لم يعد لى فيها غير التعود .. عطرها



.. وثرثرتها .. وجسدها .. أمست كلها عادة برقت فى ذهنى لآن نقطة رائعة اللمعان عن شىء مضى .. فى فترة خطوبتنا .. أذكر أنها قبلت راحه يدى ذات مرة ... خلال لحظة من لحظات اللهفة .. واذكر أننى لم أنم تلك الليلة .. وبت أشعر أنى فى واد يسمو على وديان البشر .. وأن هامتى تخترق حجبا أروع من أن يراها آدمى غـيرى وقبضت يدى على جوهر السر العظيم فى وجود الانسان ... وظل مكان القبلة يمدنى بالدفء لوقت لا أذكر مداه .. ثم .. ثم لا شىء بعد .. حطمت التفاهات اليومية محراب القداسة الذى بناه كل منا للاخر ... كمـا تسرب طوفان اللهفة في قنـوات التعود والمعاشرة يوما بعد يوم ... صرنا مجرد شركاء فى شركة ما .. يحكمها نوع غريب من النواميس المبهمة .. ولم أجد غير الجسد أحطمه ... وأتحطم معه .. وأحط عليه كل أحمالى ... بلا الفاظ ... وسحبنا على أنفسنا غطاء من فتور .

فتور ... فتور ... وعتمة ... الدقات رتيبة ... لحوحة ... لو أمكننى أيقافها ... لكن ما جدوى أن أوقف دقات الساعة فقط دون دقات الزمن .. ؟ .. وحتى دقات الساعة نفسها .. لن تتوقف الآن الا اذا حطمت الساعة كلها .. ليتنى املك القدرة على التوقيف بلا

نحطيم .. غريبة هذه العتمة التى تزحم الشقة .. وتزحمنى لا أدرى لم كلفت البواب أن يحضر العشاء ولدى مخزون ن الطعام يكفى لا طعام نصف شـــارعنا ... ثم اننى جائع .. لكن معدتى تملؤها برودة صلبة ... العيون الغامضة مسلطة على قفاى .. تلسعـــه ... وتصطادنى كلما مرت عينى فى لفتة عفوية بأعلى المرآة جف الصابون على ذقنى وتكلس .. ككل شىء بداخلى .. وككل شىء تلمسه يدى التى استغربتها منذ أن لمست بها الوجه الخفى لكل ما حولى ... سالت على خدى موجات خفيفة من الدغدغة .. والخدر الناعم من شعره الفرشاة .. وأنا أكرر عملية التصبين .. غاصت خيالات النســاء فى أعماق بعيدة داخل المرآة .. وحلقات تتلوها حلقات ... والدوائر تتفتت مع رتابة الدقات ... وكل تلاش يتلوه تكوين جديد .. باستمرار .. باستمرار .. لا شىء يتوقف .. ويتسلل عطر زوجتى بين رائحة المطبخ وعفونة السلم ونقطة جديدة من الدم بدأ تتولد فوق جرحى ..ويتسللون الى كيانى بالرغم منى .. يحكموننى .. ويطوون ارادتى خلســـة .. دون أن يتركوا ألوعى قدرة على ألرفض أو ألاختيار . ويقهرنى الكل .. ويقهرنى هو أكثر من الـــكل .. اما ابتسامته الغامضة .. فتسحقنى ... تلك التى تشـــبه عيون زوجتى .. وارى بين ابتسامته وعيونها شيئا ما .. خيطا ما .. يوم أن وضعت الدبلة حول أصبعها لم يكن فى تصورى وجود لمثل هذه الابتسامة التى تقتحم راسى عنوة .. ثم .. ثم تجرح كرامتى وحيائى ... لم أكن اعرفه .. ولا عرفت ذلك الشرخ بين شفتيه .. كأذرع ثلجية تطبق على عنقى .. وتمتد .. تمتد حتى تغرقى فى بحر الثلج .. وتدفعى فى تحد وئيد حازم فى مكان بصدرى .. واحتمل قدر استطاعتى .. ثم لا يسعى الا ان اقاوم فيضيع جهدى فـــوق كتل الوهم الثلجية .. وبعد كل أبتسامة تصيبنى .. أنتزع قلبى وقد أنضجه الشواء .. والقيه بعيدا .. لكن تبقى مكانه فجـــوة باردة يغلظ دخانهـــا ويتكاثف حتى يحجب عنى الرؤيا .. ويلفنى فى الدوار .. ويدوس أنفى بحذائه الارستقراطى اللامع .. مع كل خطـوة. يخطـوها داخل بيتى ..

واقتطع من لحمى ترحيبة .. احاول ان اجعلها حارة .. أو طبيعية .. واقدمها له ولزوجته .. وانسحق .. وتشع عيون زوجتى بالبريق الغامض .. وينشـــق وجهه عن ابتســـامته الجارحة .. ويتوارى وجه زوجته خلف قناع من الجمود الغبى .. وانسحق .. واحاول ان اصرخ .. وان اكسر الغلاف الخداع .. فأمد يدى الى أقصى امتداد .. علنى ألمس طرفا من الخيط العنكبوتى المائع .. لكنها دائما لا تصل .. وتبقى غير قادرة على اجتياز منطقة الشك التى تفصل بينى وبين ذلك الخيط الملعون ... فانسحق ..

عنفت الدقـــات .. وازداد انتظامها .. واسرع توالى الحلقات .. واسرع دورانها .. كأنها تخرج من أعماق جب طويل .. ولما ارتدت اخذتنى خلال الدوار والدوران .. فظللت احث الخطى نحو القاع .. كان الجب مليئا بالنتوءات الصخرية الصلبة .. وتغشاه نفس العتمة ... حرصت على تجنب كل نتوء .. وكل صخرة .. لكنه كان غائرا .. هلامى الغور .. يسكنه هواء راكد صلب الملمس .. رايت فى أعماقه السحيقة وحشـــا خرافيا يرقد فى تحفز ... ينتظرنى .. يمضغ شيئا غير مرئى .. شـــيئا أعرفه .. لكن ما هر ؟ .. آه .. افلت منى .. يبتلعه غصبا بتقزز .. وعرفت أنه امتلأ .. وأن الأوان قد آن ليطفحه من جوفه .. ويخرج الى السطح .. لكن مفتاح سجنه الوهمى كان يتدلى من يدى .. وهالنى يومها أن افتح الباب .. فاستدرت خارجا .. وبالرغم من تأكدى من ان جسد زوجتى الممتد بطول الجب كان أثيريا وبلا سمك .. وأنه لن يعوق خطواتى .. حتى ولو غاصت فيه أقدامى حتى الركبة الا اننى تجنبت الخوض فيه .. ومشـــيت عـــلى الصخر الصلب ..

فزعت لرنين آخـــر من جرس البـــاب .. تركت ذقنى نصف محلوقة .. وخيط رفيع من ألدم يصل بين الخدش وأسفل خدى .. وحبات العرق تتساقط عبر جبهتى .. وتلسع عينى اللتين لم لأوهما بهذه السعة .. وهـــذا الاحمرار من قبل .. ولـــا فتحت البـــاب .. اخبرنى البواب ا ‪ه‬ لم يجد عشائى فى الخارج ..

تعقيب
على الأقاصيص الثلاثة

بقلم: صبري حافظ

تمثل هــذه الأقاصـيص ، ثلاث محاولات طموحة للخروج بالأقصوصـة المصرية من دائرة السرد التقليدى والتحليق بها فى آفاق الشـعر العذبة ، لاسـتعارة تركيز القصيدة وتكثيفها ، واعتصار قدرتهما على البوح والايحاء ٠٠ غير أن نصيب هذه المحاولات الثلاث من الاجادة والتوفيق يتفاوت تفاوتا ملحوظا ٠ وهذا التفاوت يحتاج منا الى مناقشـــة طويلة، خاصـــة وأن هـــذه الأقاصيص اللاثة تطل علينا اليوم وسط موجة عاتية من التجديد تعيشها القصة القصيرة الآن٠ بعد ما تجاوزت سنوات الركود النسبى الذى عاشته فى أواخر الخمسينيات عندما وقعت فى براثن الفهم المحدود الســاذج للفن الواقعى ٠ وانطلقت مع بداية الستينيات موجة حاشدة من الكتابات الجديدة لجيـل الشباب تحاول ـ عبر مسالك متباينة ـ أن تعيـد للأقصوصة دورها الكبير وأن تضخ فى عروقها الشاحبة الدماء ٠

وأخذت كتابات هذا الجيل الجديد الذى يضم عشرات من الكتـاب الموهوبين تبشر بمرحلة من الازدهار الأقصوصى ، وتخوض بالأقصوصة غمار العديد من التجارب الفنية الجديدة الرامية الى بلورة قصة جديدة مغايرة لتلك التى كتبها رواد الأقصوصة المصرية الأوائل ٠ وقد جمحت هذه الرغبـة ببعض الكتاب الشـبان فوقعت بهم فى وهاد الشكلية المجردة التى أفرغت الأقصوصة من شكلها ووظيفتها ٠ لكننا لا نستطيع أن ننكر أن تجربة هذا الجيل الجديد قد ساهمت فى اثراء الأقصوصة المصرية بصورة لا يمكن اغفالها (١) حيث استطاعت هذه الموجة التجديدية التى تصل الى حد تحطيم المألوف وتذويب الزمن أن تعبر عن عشرات القضـايا التى يرتعش بهـا وجدان اللحظة الحضارية التى صدرت عنها ٠ وأن تقيل عثرات الأقصــوصة المصرية وتسـاعدها فى أن تكون مصدرا من مصادر الحقيقة عنـد دراســة وجدان هــذه اللحظة الحضارية فى المستقبل ٠ ولنر الآن كيف استطاعت الأقصوصة ـ على يد كتاب أقاصيصنا الثلاث ـ أن تقترب من هــذا الهدف الكبير أو تبتعد عنه ٠

أكثر هذه الأقاصيص توفيقا هى (المرآة المعتمة) لأبى بكر عبد الظاهر ٠ وهى هذه القصة الأولى التى أقرأها لهذا الكاتب الشاب ٠٠ وهى قصـــة جديدة بكل معنى الكلمة ٠٠ تعتمد على المنولوج الداخلى فى الافضـــاء دون أن تقع فى عثرات هذا الشكل الفنى المعتادة ٠ فلا نجد فيها ذلك التـكرار المشـوش السـخيف الذى يدفع المنولوج الى حافة الهذيان ،ولا تلك الهندســـة العقلية المجوجة التى تفقده انسيابه وتحوله الى سلسلة من التداعيـات السببية أو الاسترسالات المنطقيـة الجافة ٠٠ انها تقدم لنا هذا الشـكل الفنى فى أنضج صـورة وأنصعها ٠ فالمنـولوج الداخلى فيها يسيل رقة وعذوبة مما يؤكد تمكن الكاتب من فنه ومن لغته معا ٠٠ وقد سـاعده هذا التمكن الواضح على تقديم معالجة رأسـية حاذقة لتلك اللحظة النفسية الثرية التى يعيشها بطل قصته ٠ واستطاع بحق أن يقدم لنا حياة بأكملها فى لحظة زمنية قصير ٠٠ حيـاة مليئة حافلة تكشف هــذه اللحظة الزمنية القصــيرة الكثير من أبعادها ، وتريق الضوء على امتداداتها

(١) راجع دراستنا (مسـتقبل الاقصوصة المصرية) المجلة ٠٠ أعداد أغسـطس وسبتمبر ونوفمبر سنة ١٩٦٦ ٠

فى الماضى والحاضر والمستقبل • وقد وفقت القصة بداءة فى اختيار اللحظة الزمنية والنفسية التى تنطلق منها • فالقصة القصيرة تعمد - باعتبارها شكلا فنيا له طبيعته الخاصة - الى التركيز ومن ثم الى اختيار أكثر الجزئيات دلالة وأشد اللحظات ايحاء • ومن هنا فان الاختيار يقوم بدور كبير فى نجاح القصة أو اخفاقها • وقصتنا تنطلق من أكثر اللحظات توافقا مع ما تريد أن تقوله وأقدرها كشفا لأبعاد الموقف الذى تريد أن تعرضه •

انها تبدأ من اللحظة الفاصلة بين عالمين ٠٠ اللحظة التى توشك أن تكون لحظة مجردة ، معلقة فى الهواء بلا ضابط، تلك اللحظة الضئيلة التى تفصل بين عالمين كاملين ٠٠ فتبدو وكأنها مبتوتة الصلة بالعالم الذى سبقها مقطوعة الوشائج بالعالم الذى سيقبل بعدها ، بينما هى فى الحقيقة شديدة الالتصاق بهما معا • انها الفاصل العميق بين العالمين وهى الرابط الوثيق بينهما فى آن ٠٠٠ من هذه اللحظة الثرية النادرة تبدأ القصة لتقدم لنا بطلها وهو يعيش هذه اللحظة فى حضورها الطويل المزعج ٠٠ أو بمعنى آخر لتريق الضوء على مفترق الطريق فتضىء العالمين معا ٠٠ عالم الماضى وعالم المستقبل • وهى لا تقدم العالمين فى حيادهما الجاف ولا فى تسلسلهما المنطقى البارد • بل تعمد الى التداخل والتشابك الدائمين بين الأشياء الخارجية المقدمة عبر حدقة بطلها والمغلفة بقدر كبير من رؤيته ومشاعره وبين احساس البطل الذاتى بهذه اللحظة الثقيلة الغامضة التى تستدعى فى داخله أمشاجا متناثرة من ماضيه وكافية فى الآن نفسه لتحديد أبعاد هذا الماضى وابراز أهم ملامحه •

ففى اللحظة التى يهم فيها البطل بالاستعداد للانطلاق الى عالم الأصدقاء الذين ودع دنياهم عندما تزوج منذ عام ، فى هذه اللحظة المليئة بالتوتر المحاطه بفراغ الشقة بعد أن مضت الزوجة ٠٠ يبدأ الحصار بالجزئيات الصغيرة المرهقة التى تبهظ كاهل بطلنا فى تجمعها الذكى الدءوب • وعندما تلوح أمامه صورته فى المرآة وهو يحلق دقنه يحس ازاء هذه الصور بنوع غامض من الغربة يوحى لنا باغترابه عن ذاته التى ضيعها على أرصفة الاستسلام بلا مبالاة للعادات البيتية الرتيبة ٠٠ وعندما يخدشه الموسى وتسقط من الجرح نقطة دم تضيع بين نقط المياه المتساقطة من الصنبور نحس فى محاولته الضغط عليها حتى لا تضيع وسط قطرات الماء بحرصه على ألا تتسرب حياته من بين أصابعه بلا معنى • فلو ضاعت قطرة الدم هذه « بين نقاط من دماء الآخرين لهان الأمر » ٠٠ لكن نقطة الدم تسيل على اصبعه « بلزوجة خبيثة رافضة » لتضيع بين أصبعه وبين خده الجريح • ثم تتكاثر الجزئيات المحاصرة عندما يتسرب من ثقب الصمت عطر زوجته مصطحبا معه احدى ذكرياته الأليمة معها • وعندما يلمح فى أعلى المرآة صورتها المعلقة خلف الاطار الزجاجى المصلوب خلفه مثل نافذة للأنانية • ثم تنهال بعدهما طوفانات الماضى بذكرياته المحومة كالأشباح فى فراغ الشقة المعتمة التى لا يفيد أى ضوء فى تبديد عتمتها الرازحة •

ويظل بطلنا واقفا بين العالمين محاصرا بهذه اللحظة الفاصلة الغامضة التى تنعكس وطأتها عليه فى رؤيته للأشياء المحيطة حوله ٠٠ تلك الرؤية القائمة التى تجسد العناق الدامى بين هذه اللحظة الفاصلة وبين حالة التردد الرهيبة التى تمزق وجدانه • فهو يحاول أن يستسلم لاحساس خفى بالانتقام من زوجته الغائبة ولكنه فى الوقت نفسه عاجز عن تحويل هذا الاحساس المبهم الى واقع • فقد سقط فى جب العادات البيتية التى حالت بينه وبين الخيانة طوال عام ٠٠ لذلك يصرخ داخله بغيظ « الآن تبينت أن سلطان العادة هو مانعى الوحيد • بردت العواطف الساخنة منذ زمن ، بل أقول تجمدت ، واتخذت هى الاخرى مجرى العادة ، وكل زوجتى لم يعد لى فيها غير التعود • عطرها وثرثرتها وجسدها أمست كلها عادة » وفى براثن هذه العادة وقع ، ولأنه عاجز عن تحطيم اسيجتها وحده ، فانه يحاول أن يعثر فى الخارج على معين دونما جدوى •

ويرسل البواب ليأتي له من الخارج بعشائه برغم اكتظاظ الشقة بطعام يكف نصف شارعهم ، كما يقول • ويعود البواب ليخبره بأنه لم يجد عشاءه فى الخارج • عند ذلك تنتهى القصة بعدما أكدت لنا أن مايبحث عنه فى الخارج موجود فى داخله • وما عليه الا الارتداد الى هذا الداخل بحزم حتى يقهر فيه التردد • وحتى يستطيع أن يتخطى هذا الجسر الأثيرى الذى ما زال يسد عليه باب الخروج ••• ولذلك فانه يتميز غيظا كلما تذكر بعض الأشياء أو اللحظات المضيئة فى حياته مع زوجته ، لان هذه التذكرات تطفىء ارادة الانتقام فى داخله وتحبط فيه رغبة التخطى •• ولا يقول لنا الكاتب أن بطله يتذكر هذه الأشياء حانقا ، ولكن طريقة تذكره لها • واللحظة التى يتذكرها فيها ، والأشياء التى تقترن بهذا التذكر ، والألفاظ التى يصاغ بها • هى التى تمنحنا هذا الاحساس •• وهذا فى اعتقادى هو ما يمنح القصة قدرة مضاعفة على التأثير •

فالصياغة الفنية الحاذقة ليست نوعا من الترف ولا هى وسيلة لاظهار قدرة الكاتب ومهارته ، ولكنها تقوم بدور بنائى كبير فى صياغة موضوع الأقصوصة وبلورة التجربة الانسانية التى تريد تقديمها • لأنها الوعاء الذى تتشكل فيه التجربة أو الشكل الذى تبدو فيه • لذلك لا تنفصل الصياغة الفنية بأى صورة من الصور عن التجربة الانسانية التى تقدمها ، فهى الوجه الذى تسفر فيه هذه التجربة عن نفسها : ومن هنا فان أسلوب صياغة العمل القصصى يقوم بدور كبير فى ابراز مضمونه • أو هو فى الواقع جزء من هذا المضمون • ولذلك ساعدت الطريقة التى صاغ بها الكاتب قصته على بلورة ما يريد أن يقوله فى هذه القصة • وقد رأينا كيف اختار لحظة موفقة لينطلق منها فى معالجة موضوعه • لكن الاختيار الموفق للحظة الأقصوصية ليس كل شىء برغم أهميته • ولكن طريقة معالجة هذه اللحظة معالجة رأسية لا أفقية تستنفد كل طاقة الموقف على الافضاء دون أن تمطه أو تبتر •• وهذه المعالجة الرأسية لا تحتاج من الكاتب الى فهم عميق لهذه اللحظة التى اختارها فى حياة بطله فحسب • ولكن أيضا الى قدرة حاذقة على تفتيت هذه اللحظة وصياغة جزئياتها المتناهية الصغر بلغة قادرة على الافضاء والايحاء معا •• لغة تقترب من لغة الشعر فى رهافتها وانسيابها ومن البرقيات فى حدتها ومباشرتها وتركيزها • وهذا هو ما فعله كاتبنا بلغته الدفاقة الموحية التى تستطيع فيها الجزئية الخارجية الصغيرة أن تلقى دفقات سخية من الضوء على أعماق الشخصية فى كثير من الأحيان • لكن هذه الصياغة الموفقة كانت تصطدم أحيانا بحواجز سميكة تريق شاعريتها عندما يضع الكاتب فى طريقها بعض الجمل التجريدية السمجة الفاقدة للدور والدلالة معا •• مثل الجملة التى تبدأ (تجمدت أفكارى) أو الجمل التى يتحدث فيها عن الفارق بين النور والظلمة والعتمة والتى تأخذ الصياغة فيها شكلا تقريريا سخيفا يرتوى من رغبة فجة فى سوق الحكم القسرية التى لا تفيد شيئا ••• غير أن جمله القصيرة المحددة التى يغرقها فى سيل من النقط التى تفلت من قلمه بلا داع ، تستطيع فى بعض الأحيان أن توحى بما لا تقدمه أحداث سردية طويلة أو سطور وصفية عديدة • فالصياغة الفنية الواعية تستطيع بالجملة الواحدة أن تنقل شيئا أكثر من الدلالة المحدودة لألفاظها •• وأن توحى بالحالة النفسية التى ولدت عنها وبطبيعة العلاقة بين الدلالة المحددة للجملة وبين قائلها •• فالانسان لا يعبر باللغة فحسب ولكنه يفكر بها • لذلك فان الجمل القصيرة المتوترة تقبل على ذهن بطل القصة فى ملابسات غير تلك التى تنساب على لسانه فيها الجمل الطويلة الهادئة • ولذلك جسدت لنا جمل القصة القصيرة المتدفقة قلق بطلها بطبيعته النوعية الخاصة •• قلق يعكس تمزق المثقف بين الاقدام والاحجام ، وتردده الهاملتى ازاء أبسط المواقف واحساسه المبالغ فيه بالظلم والاهانة •• وغير ذلك من السمات التى تعطى لهذا القلق طعمه الخاص وبالتالى قدرته على التأثير •

وننتقل الآن الى القصة الثانية (الطوفان)لعز الدين نجيب واذا كانت (المرآة المفتحة) هى أول قصة ينشرها أبو بكر عبد الظاهر فان عز الدين نجيب كاتب قديم شارك عام ١٩٦٠ فى المجموعة القصصية (عيش وملح) التى أصدرها عدد من الشبان ثم ظهرت له فى عام ١٩٦٢ مجموعة قصصية ثانية هى (أيام العز) ومنذ شهور ثلاثة صدرت مجموعته الثالثة (المثلث الفيروزى) .. وفى هذه الأعمال يؤكد عز الدين نجيب مثابرته وجديته وموهبته • غير أن قصته التى نتحدث عنها هنا تختلف عن معظم القصص التى قرأتها له .. ففيها يخوض الكاتب غمار تجربة فنية جديدة على عالمه القصصى الذى اعتمد الواقعية التقليدية شكلا له • اذ يحاول فيها الانتقال بيسر بين الأزمنة والاستفادة من المنولوج الداخلى فى كشف أعماق شخصيته واللجوء الى النقلات التلخيصية السريعة وغير ذلك من الأساليب الفنية الحديثة .. واذا كان الكاتب قد استعمل كل هذه الأساليب الفنية فى معالجة تجربته فانه لم يوفق فى اختيارها • فالتجربة التى تعالجها القصة تجربة روائية وليست أقصوصية ، وحتى المعالجة الفنية الموفقة لها تتم بنفس أسلوب المعالجات الروائية .. فالقصة القصيرة من حيث هى تجربة انسانية أقرب ما تكون الى القصيدة الغنائية • والوعى الحاد بالتفرد الانسانى باعتباره من أهم خصائصها يتطلب معالجة فنية مركزة لكل جزئية فيها دلالتها • فالقصة القصيرة ، كما يقول أوكونى ، هى صورت الانسان المتوحد المعزول الذى يعانى من ضغوط اجتماعية أو نفسية أو حضارية تبهظ كاهله .. و (الطوفان) لا تقدم صوت فرد متوحد بقدر ما تقدم — وهذه هى وظيفة الرواية — صوت مجتمع .. مجتمع ملىء بالمؤامرات والرشوة والسرقة قائم على الأكذوبة ، مجتمع يخاف مواجهة الحقيقة ويعمل على الهروب منها • وبطلها لا يحظى بشفقتنا بقدر ما يحظى باعجابنا وكأنه بطل ملحمي يقوم بالأعمال الخارقة .. وهو يقوم بأعمال خارقة بحق • يحارب وحده ضد تيار عات من الفساد والسرقة ، ويتحمل ببطولة عذاب النفى والتشريد والتصاق الدرجة التاسعة به كالوصمة لأكثر من تسع سنوات .. وكأبطال الملاحم يفاجأ وسط دوامة الصراع العنيف ضد قوى الشر بخيانة أقرب الأشخاص الى نفسه عندما يكتشف أن الفتاة العجفاء التى أحبها ، كانت ضمن الثلاثين الذين وقعوا صك ادانته ، وكان ضمنهم أيضا أكثر الأصدقاء قربا اليه وابعدهم عن مواطن ريبته • وكأبطال الملاحم أيضا يفقد العرقى حتى يفقد الوعى ثم يسعى بشجاعة وبطولة نادرتين للكشف عن حقيقته وتمزيق قناع الأكذوبة الكبير رغبة منه فى التكفير وطلبا للتطهير .. فقد ارتكب فى لحظة ضعف أحد الأخطاء الكبيرة الجديرة ببطل ولذلك فان (الآلهة) تمرغه فى العذاب والاهانة حتى يكفر عن الخطأ الذى يحكمه — طوال القصة — المفهوم الأرسطى للها مارتيا •

فالقصة تبدأ من لحظة أقصوصية لكنها تتخطاها لتحكى التجربة بأسلوب روائى يتابع البطل فى أيامه التالية • ففى لحظة البداية التى يكتشف فيها بطلها (صبحى) أن ثلاثين من زملائه قد وقعوا على ورقة تقول أنه مخرب ومجنون لأنه رفض أن يسرق وأن يرتشى وأن يخطف فينقله مدير المؤسسة التى يعمل بها الى أقصى الصعيد .. ودون أن تتابع القصة امتدادات هذه اللحظة الهامة فى حياة الشخصية وخاصة عندما يكتشف بطلها صبحى أن بين التوقيعات الثلاثين توقيع حبيبته نسرين وتوقيع عدد آخر من أصدقائه وزملائه المقربين .. ودون أن تعمد الى تفتيتها والقاء الضوء على جذورها الضاربة فى الماضى أو على امتداداتها الواشية بالمستقبل ، تتخطاها لتحكى لنا كيف انصرف صبحى غاضبا من المؤسسة دون أن يقابل المدير الذى كان قد اعتزم مقابلته .. وكيف عانى بعد ذلك فى البحث عن النغمة الصحيحة للأغنية الهاربة من بين الشفتين دوما رحمة .. والتى تتوسل كلماتها الى الظروف المحيطة بالبطل أن تترفق به وأن ترحمه فى رحلته المقبلة فى مسالك الحياة ..وكيف اختبر مستقبله عندما ركل بقدمه حجرا فاستقر فى النيل وآخر كاد يصطدم بعوامة ..وبعدها بساعات كاد هو نفسه أن يستقر فى

النيل وأن يصطدم بعوامة ٠٠ ثم كيف ركب أحد أتوبيسات دون أن يقرأ رقمه ــ وكأنه عربة قدره أو مصيره المجهولة الرقم ــ واستسلم وسطزحامه لهذا الهاجس المجنون الذى ربط بين وجه السائق الجامد وبين بطولة أحمس ٠٠ ثم خوف صبحى أن يستسلم السائق لالحاح صفير المحصل فيوقف جموح العربة المنطلقة دونما عائق ٠٠ هذا الخوف الذى يريده الكاتب أن يعكس خوفه هو من أن يفقد بطولته وصموده فى وجه اللصوص والمرتشين والذى قاده الى الخطأ الجنونى الذى أودى بالأوتوبيس وبثمانين راكبا كانوا فيه ٠٠ ثم تتابع القصة الأيام الثلاثين التالية فى حياته ٠٠ يوم أن عمدته الصحف بطلا ، والتفت كتابها حول سريره يتلقفون تفاصيل بطولته الخارقة ٠٠ ويوم أن طلعت على الناس بأنباء جنونه الذى عشنا معه تفاصيله ٠ ثم ليلة هربه من مستشفى الامراض العقلية ومحاولته التكفير عن خطئه بطلب فرعونى ٠٠ وبالرغم من أن الكاتب قد وفق فى الصفح من صاحب العوامة الذى يشبهه باله تتبعه لبطله بهذا الأسلوب الذى نشم فيه بوضوح شديد رائحة نجيب محفوظ ــ فى الصياغة والبناء معا ــ فان اللحظة الأقصوصية أفلتت من بين يديه بينما لم تستطع هذه المعالجة السريعة أن تقدم عملا روائيا ، وان قدمت تخطيطا تمهيديا له ٠ وباستطاعة الكاتب ، لو أعاد كتابة هذه القصة بصورة موسعة أن يقدم لنا رواية جميلة تحمل صوت مجتمع يستسلم لأكذوبة ، وصوت بطل يحارب بضراوة وجنون معا لتمزيق أستارها ٠ وقد أعربت القصة عن قدرة روائية وليده قادرة على اجتراح هذه المغامرة الفنية والخروج منها بحصاد وفير ٠

ولننتقل الآن الى القصة الأخيرة وهى (مسيح المراسيم المحالة) لمحمد ابراهيم مبروك ٠٠ وقد سبق أن نشرت له (المجلة) قصة مرهفة جميلة هى (نزف صوت صمت نصف طائر) منذ عامين وقد كتبت تعقيبا عليها فى ذلك الوقت (٢) وان كانت قصته الأولى قد بلغت درجة عالية من الرهافة والشاعرية فان قصته التى نتحدث عنها اليوم لم تستطع أن تبلغ من ما وصلت اليه قصته الأولى من الانسياب والشاعرية ٠ فقد تلاءم موضوع القصة الأولى مع شكلها بصورة رائعة ٠ واستطاعت بعض جوانب الموضوع أن تبرر اغراق السرد فى اللغة الشاعرية وصعوبته الناجمة عن بعده الشديد عن الوضوح والمباشرة ٠٠ أما فى (مسيح المراسيم المحالة) فان هذا الشكل الفنى الذى كتبت به يشكل عبئا على موضوع القصة فى كثير من الأماكن ٠٠ ولذلك فان قارىء القصة يصطدم بصعوبتها من الوهلة الأولى ٠

وهذه الصعوبة ليست وليدة اختفاء الحواجز الفاصلة بين الماضى والحاضر ٠ أو الاعتماد على المنولوج الداخلى كلية فى القص ٠ أو رؤية كل الأحداث والجزئيات خلال حدقتى البطل الصارختين بالتازم ٠٠ ولكنها وليدة نوع من التشتت يسرى بين ثنايا القصة فيجهز على الكثير من اللحظات المضيئة والمتألقة التى تعبر سطورها ٠٠ فما يكاد القارىء يضع يده على موضوعها حتى يفلت منه وسط الاسترسالات الشعرية المنسابة بلا توقف والتى تحاول فى استطراداتها العديدة أن تجسد بالصور أحاسيس بطلها المجردة دون الاعتماد على موقف واضح أو حدث محدود ٠٠ صحيح أن الكاتب ينطلق فى قصته من لحظة فنية ملائمة لشكل الاقصوصة وطبيعتها ٠٠ لكن جريه فى معالجها وراء الصورة دون الحدث جعله يفقد هذه اللحظة الكثير من حيويتها وايحائها ٠٠ وقد كان الجرى وراء الصور فى قصة (نزف صوت صمت نصف طائر) أكثر تبريرا وأوفق احكاما لأن بطلها كان شاعرا ٠٠ وكانت طبيعته فى رؤية الأشياء وتذكرها تبرر له هذه الاستطرادات الشعرية الحالمة التى كانت تعكس فى الواقع الكثير من أسباب أزمته مع زوجته ومع العالم من حوله ٠

٠٠ أما هنا ، فان تطويع العالم الخارجى للتذكرات التى يستدعيها البطل الى ذهنه ، حيث لا تأتى الأشياء الخارجية الى ذهنه وحدها ولكن فى انعكاسها على موضوعات تذكره

(٢) راجع المجلة (اكتوبر سنة ١٩٦٦)

وارتباطها بها فالسماء الجميلة التى شاهدها ذات مرة منعكسة على جبين حبيبته وفوق خصلات شعرها ، تصطحبها الى القصة صورة ضفائر حبيبته التى تنعكس فوقها ٠٠ ميلا — هذا التطويع الحاذق لا يستطيع أن يصوغ لنا الأبعاد الخارجية لأزمة البطل أو حتى الأسباب الفكرية لها ٠٠ فنحن ازاء بطل يعانى من أزمة مجردة تنعكس على كل شىء يراه ٠ ولكننا لا نستطيع أن نهتدى للأسباب العامة أو الخاصة التى صنعت تلك الأزمة أو حتى فجرتها ٠

فالتأملات الشعرية المرهفة التى تكتظ بها القصة لا تكفى وحدها — برغم عذوبتها — لكتابة قصة ٠ بل لابد على الأقل من خيط محسوس واهن ، غير تجريدى ، يربط هذه التأملات ٠ حتى ولو لم يظهر هذا الخيط على السطح ٠ ذلك لأن فقدان هذا الخيط الرئيسى يعزل الكثير من هذه الصور والرؤى الشعرية بعضها عن بعض ٠ فتلوح كل واحدة منها وكأنها مجرد صورة جمالية مفردة لا تستطيع أن تنطق بأكثر من صوت مفرد عاجز عن الالتحام مع الأصوات الأخرى فى لحن واحد متناسق ٠ والتناسق بين الجزئيات والصور هو الذى يجمع هذه الجزئيات المتناثرة ويخلق منها كائنا عضويا قادرا على الانطلاق الى الهدف الذى يرجوه الكاتب له ٠٠ صحيح أن مجموعة الصور التى تضمها القصة تدور حول محور أساسى هو فقدان الحب وفقدان البراءة وفقدان البكارة ٠٠ ولكن هذا المحور محور مجرد وليس محورا محسوسا ٠٠ بمعنى أنه يمكن أن تدور حوله عشرات القصائد والقصص وتظل كل واحدة منها محتفظة باستقلالها وتفردها ٠

وبرغم هذا فان هذا العيب لا يجهز على القصة ولكنه يضعفها ويقلل من قدرتها على النفاذ والتأثير ٠ فقد أدركت القصة من البداية الطريق الصحيح لأقصوصة المنولوج الداخلى ٠ وعمدت الى التعبير بالصورة والتفكير بها ٠ فالانسان عندما يتذكر الأشياء والموضوعات وحتى الأفكار فانه يتذكرها صورا لا أشياء أو موضوعات مجردة ٠ وقد أدركت القصة هذه الحقيقة ونفذتها بعمق كبير ، خاصة وأنها تعتمد فى أغلب أجزائها على التذكر ٠ ولو تم التذكر فيها بأسلوب غير ذلك الأسلوب الشاعرى لوقعت فى وهاد السرد السخيف الفاقد للتجسيد والحيوية ٠٠ لكنها برغم ادراكها العميق هذا وقعت فى عيبين خطيرين ساهما فى اضعافها تعبيريا ٠٠ أولهما هو اللجوء المتكرر الى التعبير بالنفى وتعريف الأشياء بنقائضها دون تحديد كنهها مباشرة ٠٠ كأن يقول ليس شديد الظلمة ، أو أنفاس ليست للريح ، أو كما لو أنه ليس غريبا ، الهوة التى ليست تحتها أرض ، أو لم يكن كيوم أن جئت لك ٠٠ الى آخر هذه التعبيرات المفتقدة للتحديد ٠ فهناك مثلا عشرات الأنفاس التى ليست للريح ٠٠ وآلاف الأيام التى لا تشبه اليوم الذى جاءها فيه ٠٠ فأى واحد منها يقصد ٠٠ لا أحد يعرف ٠ لذلك كان التحديد ضرورة فنية لا يستطيع التعبير بالنفى أن ينوب عنها ٠٠ وثانيها هو لجوؤه المتكرر الى فتح الأقواس البيضاء الدالة على الصمت أحيانا وعلى العجز عن التعبير غالبا ٠٠ بل انه يجازف مرة ويقول بين أحد هذه الأقواس « آسف اذا وثقت الآن اننى عاجز عن نقل هذه اللحظة لك ، وأن حبر الطباعة لايمكنه الا أن يكون حبر طباعة » ٠٠ لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان هناك مبرر أصلا لكتابة القصة كلها ٠٠ فقد يكون الصمت مبررا فى قصة تكتب من الخارج وتعتمد على السطح الخارجى للسلوك الانسانى فى محاولة منها لأن يبوح هذا السطح وحده بكل ما يدور فى أعماق الشخصية ووجدانها ٠٠ لكن فى قصة تعتمد على الضمير الأول وتتجول بحرية داخل أعماق البطل وتذوب الفواصل بين الأزمنة يكون الصمت قرين العجز ، ولا يكون كما أراده الكاتب وسيلة للتعبير بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة ٠

وأخيرا فان هذه الأقاصيص الثلاثة برغم كل ما لمسناه فيها من هنات تؤكد موهبة كتابها وقدرتهم على الوصول الى مرافىء القصة الحقة ، كما تشير فى نفس الوقت الى الدور الكبير الذى قام به هذا الجيل الجديد من الكتاب الشبان فى انقاذ الأقصوصة من براثن الواقعية التقليدية الساذجة واقالة عثراتها ٠

عن الحبّ والمدينة

للشاعر: محمد مهران السيد

(١)

لما كنا من مخلوقات مدينتنا البراقة
صرنا لعبتها المحشوة من أخمص قدميها .. حتى الرأس
.. بصنوف الفزع المشحوذ الحدين ، وأنواع اليأس
تصلبنا فوق الاعمدة المغروسة ، والاشجار
وتمزقنا تحت العجلات ، المجنونة كالاعصار
وتدحرجنا طول اليوم على الاسفلت
وتفتتنا ، ساعات الليل المتثاقل ، فى الحجرات ،
.. لما كنا من هذى المخلوقات
عشنا نجتر ضآلتنا ، فى كف مدينتنا العملاقة
يجلدنا الرعب
عبر شوارعها المتشنجة القسمات
وأزقتها ، والحارات
رغم تطلعنا ، وتعلقنا بمآذنها الألف ،
.. حتى لما فاجأنا .. الحب
ذات أصيل .. بقطار الصيف
عانقناه سويا ، .. لكن فى خوف

(٢)

من لا يعرف ، يحيا مرتاح البال
ولأنى يازهرة صبار الايام المالحة .. عرفت
عانقت التجوال
وشربت مرارة أيامى ،
وتمنيت الموت
لكن ما فكرت دقائق .. أن أترك يدك الحاملة
جراثيم المقت
وتركت فؤادى ينزو
واستمرأت تهاويل الصمت !!

(٣)

كانت أيامك حبلى ، .. قبل لقاء الغرباء
ولذلك جاء المولود .. برأسين
يحمل بصمات أصابعنا ..
.. نحن الاثنين ،
الذئبة ، والصياد المفقوء العينين
وشتاء ممطوط ، قدرناه بعامين .. ،
واستبشعنا بعد فوات الوقت .. جريمتنا
فاشحنا عنه ، وأنكرناه
وتلفتنا مذعورين ..
.. مذعورين نغير وجهتنا ،
أعطى كل منا الآخر .. ظهره
وتسربنا بين الناس المنكفئين على الذات
ظهرى يكشف عن جرحى المتقيح ، وعظامى النخرة
ظهرك ، يحمل بصمات الحيات ،
.. لم يعن بهيئتنا أحد ..
.. غير عيون المعروضات
فلماذا يعنيك الحاضر والمستقبل ، أو ما هو آت

(٤)

هذا ما كان
فلندع الاشياء تمر
المائع والسكر ، والمر
ماذا كان سيحدث .. ان لم ..
ان لم يسقط من يدك السيف
فى هذا الصيف .



فحص هرم خفرع بالأشعة الكونية

بقلم: د. فتحى البديوى

يتطلع رجال العلم ورجال الآثار باهتمام كبير الى تجربة فحص هرم خفرع بالاشعة الكونية ، وذلك لانها تستخدم فى التطبيق العملى لأول مرة ، كما أن نتائجها قد تؤدى الى كشـوف أثرية باهرة ، سواء أظهرت وجود حجرات أو ممرات غير معروفة داخل الهرم ، أو أثبتت عدم وجودها بما يدل على تطور خاص فى بناء الأهرامات .

ولقد بدأ الاستعداد لهذه التجربة العلمية الخطيرة منذ عام ١٩٦٦ ، وسار شوطا كبيرا حتى العدوان الاسرائيلى فى ٥ يونية الماضى ، بمعاونة ستة من العلماء المصريين فى مجالات الطبيعة والآثار وخمسـة من العلمـاء الامريكيين تحت اشراف لجنة عليا من وزارة الثقافة ووزارة التعليم العالى .

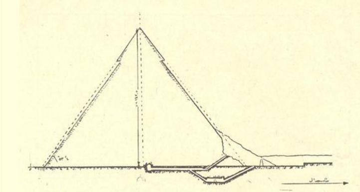
وبالرغم من سفر الاعضاء الامريكيين فقد قام العلمـاء المصريون وحـدهم برئاسة الدكتـور فتحى البـديوى بتركيب جميع الاجهزة العلمية سواء فى غرفة الدفن بالهرم وفى المعمل القريب منه ، وحصلوا على نتائج أوليـة رائعـة بالنسـبة لأسلوب العمل ووسائل التنفيذ ، مما دعا الجانب الامريكى الى الاعتراف بذلك الجهد العلمى المتفوق ، وعملوا على ارسال أحد خبرائهم للمشاركة فى هذا المشروع الكبير .

ان العالم يتطلع الى نتائج هذه التجربة الرائعة ، وما قد تسفر عنه من كشوف ، ذات آثار قومية وعلمية وتاريخية جليلة . تعلن قبل نهاية هذا العام » .

ان نجاح الاشعة فى استخداماتها المتعددة فى عالم الطب والصناعة يرجع الى قدرة نفاذها خلال الاجسام بدرجات متفاوتة تسمح بفحص مابداخلها من شوائب ، وتعتمد هـذه الحقيقة على كل من كثافة مكونات الجسم وطاقة الاشعة المستخدمة اذ ان زيادة كثـافة الوسط تخفض من شفافيته لتلك الاشعة ، كما أن قدرة نفاذها خلاله تتزايد مـع طاقتها محددة بذلك نوع الاشـعة اللازمة لعمليات تصوير التركيب الداخلى للجسم . ففى حالات الفحص الطبى يكتفى بالاشـعة السينية التى لا تتعـدى طاقتها بضعة آلاف من الفولت الالكترونى ، بينما يتطلب الفحص الصناعى فى الكشف عن عيوب الحديد مثلا استخدام أشعة جاما التى تزيد طاقتها آلاف المرات وتكون بذلك أكثر نفـاذا خلال مثل هذه الاجسام العـالية الكثافة .

وفكرة فحص جسم الهرم للتعرف على ما به من حجرات أو فجوات لا تختلف فى أساسـها عن عملية الكشف عن كسر فى عظم الانسان أو فقاعة داخل جسم من الحديد ، غير أنه لضخامة حجم الهرم لا تفيد الاشعة السينية أو أشعة جاما وانما يلزم لها أشعة أخرى ذات قدرة نفاذ خارقة وطاقة عالية تقـدر ببضعة آلاف الملايين من الفولت الالكترونى .

ولعله من عجائب القـدر احتـواء الكون على جسيمات تسمى ميزونات ميو (أوميونات) تصل

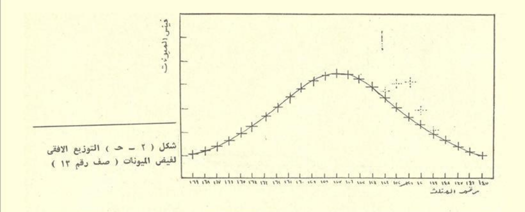


شكل (١)
مقطع لهرم خفرع

طاقتهــا الى ملايين الملايين أو تزيد من الفولت الالكترونى ، تسقط بصـفة منتظمة من الفضاء الخارجي على سطح الكرة الارضيةـ تلك الميزونات هى احدى مكونات الاشعة التى اطلق عليها العالم روبرت مليكان عام ١٩٢٣ اسم الاشعة الكونية بعــد أن تعرف عليهـا العالم فيكتور هس عام ١٩١٢ · وظلت تسـتخدم منـذ ذلك الحين فى البحث الاكاديمى دون أى تطبيق عملى حتى بداية التفكير فى استخدامها فى مشروع التصوير الكونى للاهرامات المصرية الذى يرجع مولده الى مختلف الدراسات والاتصالات التى أجريت بالتعاون مع الدكتـــور لويس ألفارز الاستاذ بمعهـد لورنس الاشــعاعى بجامعة كاليفورنيا ورئيس الجـانب الامريكى فى المشروع والتى مهـدت الى توقيـع اتفاقية بين ج·ع·م والولايات المتحدة الامريكية بتاريخ ١٤ يونيو ١٩٦٦ تتعاون بمقتضاها جامعتا عين شمس وكاليفورنيا فى تنفيذ هـذا المشروع الذى يهـدف الى استخدام الاشـعة الكونية فى الكشف عما بداخل هرم خفرع بصفة خاصة من غرف أو ممرات أو فجوات لم تعرف من قبل ·

ويرجع اختيــار هرم خفرع كبـداية لتنفيذ المشروع لاختلاف تركيبه الداخلى بشكل واضـح عن كل من هرم أبيه خوفو أو هرم دهشور لجده شنفرو لاحتواء كل منهمـا على مختلف الحجرات والممرات التى يخلو منها تماما البنيــان الشامخ لهــرم خفرع ، وقـد يكون ذلك نتيجة لتطوير هندسة العمـارة فى تلك الفترة التجريبية لبناء الاهرام أو زيادة فى حرص الملك خفرع لاخفــاء معالم مكونات مقبرته عن أعين اللصوص وعلى كل حال فيمكن البت فى هـذا الموضوع بعد تحليل نتائج التجربة الحالية التى تستخدم حجرة الدفن المعروفة بالمستوى الارضى فى رصد ما يصلها من ميزونات الاشعة الكونية بعد نفاذها من مختلف الاتجاهات خلال جسم الهرم ·

وقبل بيان عمليــات الفحص والتحليل يجدر الاشـــارة الى التصميم الهنـدسى المعروف لذلك الهرم ، فواضح من شكل (١) أن ارتفـاعه يبلغ ١٤٣٫٥ مترا وطول كل ضلع من قاعدته المربعة ٢١٥٫٥ مترا ، وتقدر عدد الاحجار المستخدمة فى بنائه بما يقرب من مليونى حجرا يبلغ وزن كل منها حوالى ٢٫٥ طنا وقد يصل بعضها الى ١٥طنا ـ ويوجد للهرم مدخـلان فى واجهتـه الشمالية يرتفع أحدهما عن سطح الارض نحو عشرة أمتار ويعرف بمدخل بلزونى نســبة الى مكتشفه عام ١٨١٨ والآخر مقطـوع فى الصخر عنــد سطح الارض على بضعة أمتار من قاعدة الهرم · ويؤدى هـــذا المدخل الى ممر هابط بزاوية ٢٠° وطوله ٣٩ مترا يصـــل بعـد ذلك الى ممر افقى طوله ١٢٫٥ مترا مؤديا بدوره الى ممر صــاعد بزاوية ١٤° وطوله ٢٤٫٣ مترا ويؤدى الى الممــر الافقى الرئيسى وطوله ٣٩٫٤ مترا ، ويصل فى نهايته الى حجرة الدفن وهى فى مستوى سطح الارض ومساحتها ١٤ مترا × ٥ مترا وأقصى ارتفــاع لسقفها الجمالونى المثلث ٧ مترا ، كمـا توجد غرفة أخرى تحت الارض مساحتها ١٠٫٤مترا × ٣٫١ مترا يمكن الوصول اليهــا عن طريق ممر



شكل (٢ - حـ) التوزيع الافقى لفيض الميونات (صف رقم ١٣)

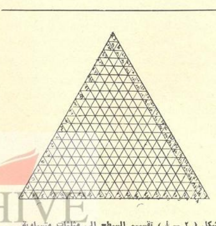
هابط ٨ر٦ مترا يتفرع من الممر الافقى القصير.

وتعتمد فكرة التجربة المستخدمة فى فحص الهرم على انتظام شدة الميونات النفاذة بالاشعة الكونية عند سقوطها على سطح الكرة الارضية بطاقاتها المختلفة . ولما كانت طاقة أى جسم مشحون كهربيا تقل تدريجيا أثناء مساره نتيجة تفاعله مع ذرات الوسط الذى يمر فيه فان مدى ذلك الجسيم يتوقف على طاقته وكثافة ذلك الوسط فيزداد المدى كلما زادت الطاقة أو قلت الكثافة . وقد اثبتت التجارب فى حالة الميونات عالية الطاقة بان المدى يتزايد بانتظام مع زيادة الطاقة ، ويبلغ معدل ما تفقده الميونات عند مرورها مترا فى أحجار الهرم بما يزيد قليلا عن نصف بليون من الفولت الالكترونى (باعتبار كثافة الحجر الجيرى المستخدم ٢ر٦٦ جم/سم^3) وباتخاذ غرفة الدفن بهرم خفرع لقياس الاشعة التى تنفذ اليها من مختلف الاتجاهات خلال جسم الهرم نجد ان الاشعة الساقطة فى اتجاه ما عليها أن تعبر مسافة تختلف عن غيرها فى اتجاه آخر، وأدنى مسافة تتحدد بالمسافة العمودية بين الغرفة وسطح الهرم وتتطلب لعبورها جسيمات طاقتها ٤٥ب اف ، بمعنى ان الجسيمات التى تقل طاقتها عن تلك القيمة تقف قبل أن تصل الى أجهزة القياس . وباستخدام العلاقة العملية المعروفة بين المدى وفيض الميزونات يمكن حساب فيض الميزونات التى تزيد طاقتها عن ذلك القدر (٤ × ١٠$^{-5}$ جسيم فى الثانية لكل سم^2 من السطح الحساس من الكاشف ولوحدة الزاوية المجسمة) وزيادة الفيض عن هذا القدر معناه تسجيل جسيمات أخرى طاقتها أقل أمكن تسللها فى هذا الاتجاه نتيجة لوجود فجوة أى وجود وسط كثافته أقل من كثافة الحجر الجيرى .

ويمكن تبسيط عملية التنبؤ عن وجود فجوات داخل جسم الهرم بتقسيم كل سطح من أسطح الهرم الاربعة الى مساحات صغيرة متساوية على صورة مثلثات فى صفوف أفقية كما فى شكل(٢) مرقمة من ١ فى قمة الهرم الى ٤٠٠ فى نهاية القاعدة التى تمثل الصف رقم ٢٠ أو ١٦٠٠ عند تقسيم سطح الهرم الى ٤٠ صف أفقى حسب ماهو مستخدم حاليا ، وباعتبار الهرم جسما مصمتا فان فيض الميزونات المسجلة فى أجهزة القياس فى اتجاهات محددة بسطح كل مثلث يتوقف على المسافة بين جهاز الرصد ومركز ذلك المثلث ، وزيادة تلك المسافة معناه زيادة المدى المطلوب للجسيمات وبالتالى زيادة طاقتها أى نقص فيضها ، ويرسم الفيض المميز لكل من المثلثات الواقعة فى صف أفقى نحصل على توزيع منتظم ذى قمة تناظر المثلث الكائن عند أقصر مسافة . وبافتراض وجود فراغ فى مسار الفيض المميز لأحد هذه المثلثات فان قيمته ولا شك ستزيد ويظهر كنتوء فوق شكل التوزيع الافقى للفيض محددا بذلك اتجاه ذلك الفراغ الذى تتفتح ابعاده من شكل النتوء ، فزيادة طول الفراغ فى اتجاه الفيض لأحد هذه المثلثات يزيد من ارتفاع النتوء

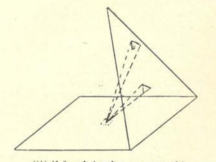
عند موضع المثلث واتســاع الفراغ يزيد عرض النتوء ليشغل أكثر من مثلث · وعلى العموم فان دراسة جميع التوزيعات الافقية لفيض المثلثات المختلفة لوضعين متباعدين لجهاز الرصد يجعل من المتيسر تحــديد موقع الفراغ وحســاب حجمه وشكله ·

ويتضح مما ســبق بان امكانية تنفيـذ هذه التجربة ترجع أساسا الى ايجاد وسيلة لرصد تلك



شكل (٢ ـ أ) تقسيم السطح الى مثلثات متساوية

الميزونات العــالية الطاقة وتسجيل اتجــاهات مساراتها بطريقة اتوماتيكية تعمل بصفة مستمرة ليل نهار للحصول على فيض مناسب لايتأثر كثيرا بالتغيرات الاحصائية · وبتقدم وسائل الكشف عن تلك الجسيمات وتطور الاجهزة الالــكترونية أمكن التخطيط لتجربة الهــرم التى تســتخدم عدادات الوميض فى الكشف عن الميزونات التى تصل حجرة الدفن مع تحديد اتجاهاتها باستخدام غرف الشرار · ويتكون الشكل العــام للجهــاز الاساسى الذى يوضع فى غرفة القيــاس بالهرم (شكل ٣) من خمس طبقات أفقية تشــغل غرف الشرار الطبقتين المتتاليتين ب ، ج بينما تشــغل العدادات الوميضية الطبقات ا ، د ، هـ · ومساحة السطح الفعال لكل عــداد وميض متر مربع وهو عبارة عن لوح من البلاستيك المشتمل على مواد تتزهر (فلورسنت) بمرور الميزون وتنتقل ومضة الضــوء بعد تجميعها فى الانبوبة الضــوئية الى الكاثود أو المهبط الحساس للمضــاعف الضوئى المتصل بلوح البلاستيك فينبعث منه الكترونات ثانوية تنــدفع تجــاه الانود أو المصعد الاول للمضاعف ومنه الى آخر وهــكذا فيتكاثر عددها وتؤدى فى النهــاية الى نبضة كهربائية يمــكن تكبيرها والاستفادة منهــا فى التعرف على مرور الميزون · وتــوافق ثلاث نبضــات بالعــدادات الوميضية بطبقاتها الثلاث لا يدل فقط على مرور الميزون فى اتجــاهات محددة بزاوية الاستقبال المجسمة للجهــاز بل ينبه الدوائر الالــكترونية لتشــغيل غرف الشرار فى تلك اللحظة لتحديد مسار الميزون عن طريق رصد بيانى لموضع نقطة تقاطعه مع كل من طبقتى غرف الشرار ، وتشتمل كل من هذه الغرف المحكمة الاطراف على طبقتين متوازيتين تبعــد كل منهمــا عن الاخرى ١ سم وتشتمل كل طبقة على نسيج خاص من مادة عازلة تتخلله مجموعة من الاسـلاك النحاسية المتوازية والمتصلة من جانب واحـد بحيث تكون أســلاك نســيج الطبقة العليــا موازية للمحور السينى ومتعامدة مع أســلاك نسيج الطبقة السفلى فتعطى الطبقة العليا قيمة ص والطبقة السفلى قيمة س ـ فعند مرور الميزون بغرفة الشرار ووصول نبضة الجهد العالى لتشغيلهــا تنتقــل شرارة فى غاز النيون الذى يملأ الغرفة بين أحد أسلاك نسيجها العلوى وأحد أسلاك نسيجها السفلى مكملة بذلك الدائرة الكهربائية التى تسمح بمرور تيار كهربائى فى كلا السلــكين المثلين للمــحورين السينى والصادى ويمــكن تحديد موضع تقــابل الشرارة ($س_١$ ، $ص_١$) بالغرفة العليا وكذلك موقع تقابلها

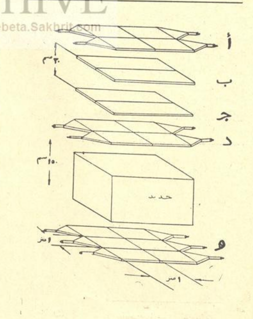


شكل (٢ ـ ب) الزوايا المجسمة للمثلثات

بالغرفة السفلى (س٢ ، ص٢) عن طريق استخدام أسـلاك استدلال مغناطيسية تعمل على ارسال نبضات مميزة لهذه الاحداثيات .

ويلاحظ من الشكل العام لهيكل الجهاز فصل طبقتى الغرف الوميضية السفلى بجسم من الحديد يبلغ حجمه حوالى ٤ر٥ متر مكعب ومهمته استبعاد الميزونات البطيئة أى عـدم السـماح بتسجيل الميزونات غير القـادرة على النفاذ خلاله والوصول الى طبقة الغرف الوميضية السفلى ، وذلك لقصر التسـجيل على تلك الميزونات التى تصل غرفة القيـاس بطاقة تزيد على ٢ر٥ب اف ولا تنحرف كثيرا أثناء مرورها خلال جسم الهرم بمـا يجعل اتجـاه الميزون بعد عبوره جسم الهرم الى جهاز القياس مماثلا الى درجة كبيرة لاتجاهه عند سقوطه على سطح الهرم .

وتيسيرا للعمليات الحسابية المتعلقة بكل جسيم فان الامر يتطلب استخدام أحد العقول الالكترونية المناسبة ، فتجرى التـجربة بارسال المعلومات الخاصة بكل ميزون على صورة نبضات كهربائية فى أسلاك ممتدة من غرفة القياس داخل الهرم الى غرفة التسجيل بمعمل المشروع الذى يبعد بحوالى



نصف كيلومتر شـمال هرم خفرع وترصد تلك المعلومات على شرائط مغناطيسية بجهاز التسجيل ثم ترسل لتحليلهـا بالحاسب الالكترونى الذى يقوم عن طريق برامج متعددة بتخزين المعلومات بذاكرته ومراجعتها وحساب اتجـاهات الميزونات المسجلة وتوزيعها حسب نقط تقاطعها مع أسطح الهرم وتعيين التوزيعات الافقية لفيض الميزونات ثم التنبؤ عن اتجاه الفراغات أو الحجرات التى قد توجد داخل الهرم .

وخلال الأشـهر القليلة الماضية أمكن بالعمل المتواصل ليلا ونهارا تسجيل المعلومات الخـاصة لما يقرب من مليونى ميزون وحفظت تلك المعلومات على الاشرطة المغناطيسـية انتظارا لتحليلها على الحـاسب الالـكترونى ابم ١١٣٠ الذى وصل حديثا لجامعة عين شمس ضمن أجهزة المشروع . وقد تمكن العاملون بالمشروع أثناء هذه الفترة من اجراء بعض الحسابات المبدئية باستخدام الحاسب الالكترونى بجهاز التعبئة العامة والاحصاء لتأكيد سلامة فكرة التجربة عن طريق التعرف على مدى تطابق مركز قاعدة هرم خفرع مـع مركز حجرة الدفن الموجـود بهـا أجهزة القيـاس والكائنة بالمستوى الارضى ، وأمكن اثبات عن طريق أجهزة الاشعة الكونية وجود ازاحة فى مركز تلك الحجرة فى الاتجـاهين الشـمالى والشرقى وقدرت تلك الازاحة بعدة أمتـار أمكن تأييدها بالقياسات المساحية .

وباستكمال تشغيل المحاسب الالكترونى أبم بجامعة عين شمس ينتظر انجاز عمليات التحليل الخاصـة بهذا المشروع خلال الاسـابيع القليله المقبلة ، وبذلك يمكن البت فى هذه المرحلة عما اذا كان التركيب العلوى لذلك الهرم يشمل على حجرات أو فجوات أو ممرات غير معروفة من قبل وتحديد اتجاهاتها . وعند ثبوت ذلك سوف تتكرر التجربة بما زاحته أجهزة القيـاس بحجرة الدفن عدة امتار لتعيين الاتجاه المناظر لتلك الفجوة فى هذه الحالة ، ويتحدد موقعها بتقاطع الاتجـاهين النـاتجين فى المرحلتين كما يمكن تقـدير حجم الفجوة . وتستغرق المرحلة الثانية لتلك التجربة حوالى ثلاثة شهور ، وبذلك يشهد نهاية هذا العام اعـلان نتـائج البحث العلمى فى أول تطبيقـاته بالنسبة للكشوف الاثرية فى هرم خفرع .



من المجلات الفرنسية

الخلاص في الموت والوطن

فى عدد حديث من مجلة « ماجازين ليتيرير » Magazine Littéraire الفرنسية ، وهى مجلة أدبية شهرية ، مقالان بعرضهما هنا لما لهما من أهميه خاصة فى الكشف عن روح العصر ، وما بينهما من ارتباط غير مقصود .

أما المقال الأول فهو عبارة عن قراءة جديدة لادب موريس باريس Barris ، قام بها وسجل ملاحظاته عليها الناقد المعروف جان ديدييه Jean Dédier .

يبدأ ديدييه حديثه بهذا السؤال الهام :

« هل لا يزال أدب باريس يقرأ حتى اليوم ؟ ! ثم لا يلبث أن يحيل سؤاله الى دور النشر ، التى تتنافس على اعادة طبع أعمال باريس ، بعد خمسة وأربعين عاما من وفاته .. تلك الأعمال التى تشغل تسعة مجلدات ضخمة ، هى كل انتاجه فى الرواية والتاريخ السياسى والمذكرات الشخصية .

« لقد كان باريس يعرف نفسه جيدا ، لأنه كان يعلم أنه لا يعرف نفسه على الاطلاق » »

من هذه العبارة التى أطلقها الشاعر الفرنسى المعاصر لوى أراجون Louis Aragon ينطلق ديدييه بحثا عن باريس أو بحثا عن ذاته الضائعة .

حقا كانت ذات بارس ضائعة .. ولكن فى ماذا ؟ !

يقول مورياك Mauriac : « ان ذات باريس كانت ضائعة فيما كنت ضائعا فيه أنا وكل شباب عصر باريس .. أريد أن أقول فى السام والملل ... »

ولذلك نجد أن كل شخصيات باريس تبحث عن نفسها كما تبحث عن المطلق . ذلك المطلق الذى ذهب باريس للبحث عنه فى أحضان الشرق عند ما كتب روايته الشهيرة « حديقة فوق نهر العاصى »
Un jardin sur l'Orante
وهو نهر معروف فى سوريا ، التى قال عنها باريس انها حديقة الله على الأرض وجنة عدن الأسطورية .

وهكذا نجح باريس فى أن يوفق بين حياته وكفاياته ، بحيث التحم الاثنان التحاما عضويا سمى بعد ذلك باسم باريس أو « البارسية » ..

فاذا كانت « حديقة فوق نهر العاصى » هى الرواية التى جسد فيها باريس بحثه عن المطلق ، فان « الانسان الحر » L'homme Libre هى الرواية التى جمع فيها باريس بحثه عن ذاته .. وهى الرواية التى رأى ديدييه أنها « مفتاح سر باريس » والنافذة المطلة على عوالمه السيكولوجية المغلقة .

فى هذه الرواية وضع باريس المبادىء الثلاثة التى تقوم عليها عقيدة « عبادة الذات » .. وعبادة الذات هو عنوان الثلاثية الروائيه التى تضم « الانسان الحر » و « تحت عين الهمجيين » و « حديقة بيرينيس » .

أما المبادىء الثلاثة فتتلخص فى هذه العبارات الثلاث :

١ – اننا لا نكون أكبر سعادة الا فى تمجيد أنفسنا .

٢ – ان الذى يزيد من سعادة تمجيد النفس هو تحليل هذا التمجيد .

٣ – ولهذا يصبح ضروريا أن نشعر بقدر الامكان ونحن نحلل بقدر المستطاع .

وفى هذه الرواية أيضا أطلق باريس صرخته المدوية على لسان بطله فيليب أو صرخة السأم التى يقول فيها « بكم ساصبح آلة دقيقة لو انى عرفت سرى » ..

لو انى عرفت سرى .. هذه هى العبارة التى تعرى الذى يقول : « أنا الجرح والسكين » والشطر الثانى غارق فى باسكال الذى يقول : « ان الصمت البارد الذى يحيط بهذه المساحات الشاسعة يخيفنى » ..

ويخلص ديدييه الى أن رواية « الانسان الحر » ما هى الا سيمفونية معبرة للكاتب طالما اعتقد أن الكلمات هى وحدها القادرة على تفسير ذاته وعلى تحديدها .. الأمر الذى انتهى بباريس الى تجزىء ذاته من كثرة تحليلها مما أدى الى بعثرة هذه الجزئيات بحيث تعذر جمعها بعد ذلك .. ومن هنا ضاعت ذات باريس قبل أن يهنا بعبادتها .. وبدلا من أن يقول «حققت ذاتى كاملة» ، قال : « أضعت ذاتى تماما » .. قالها بمرارة وألم كما قالها شباب جيله الضائع ، وكما يقولها شباب هذا الجيل الضائع أيضا .. هذا الضياع المشترك بين جيلين هو الذى دفع الجيل الأول الى قراءة باريس فى طبعات كتبه الأولى وهو الذى دفع الجيل الأخير الى قراءة باريس فى طبعات كتبه الجديدة .

ويرى ديدييه أن تأثير باريس لا ينصب على قراء الجيلين معا فحسب ولكنه يمتد كذلك الى كتاب الجيل الأخير أو الكتاب المعاصرين .. أراجون ومورياك ومالرو .. ذلك أن باريس قد وضع فى أعماله ، « قاعدة اللعبة » ،

تلك القاعدة التى لا زالت تحكم حياتنا والتى تتمثل فى السأم والملل .. حتى أنه قد صار من المستحيل أن يصبح الانسان كاتبا أو مفكرا دون أن يصاب بالسأم والملل .

غير أن باريس لا يقف عند « ذاته » فى رواية «الانسان الحر » ولكنه يتعداها الى « وطنه » فرواية « تحت عين الهمجيين » والى دينه فى رواية « حديقة بيرينيس » .. هذا على الرغم من أن الروايات الثلاث تنتظم تحت عنوان واحد هو ، كما قلنا ، عبادة الذات ..

على أن الجزء الثانى هو أهم أجزاء الثلاثية لا لأنه يبحث عن الوطن ولكن لأنه كان بمثابة الخيط الدقيق الذى ربط باريس بالقضية الوطنية فكتب ثلاثية أخرى بعنوان « الحركة الوطنية » يمجد فيها الحرب .. ولكنه تمجيد المضطر الى خوض المعركة أو الذى وجد نفسه فى قلب المعركة فاحس أنه لا مفر من أن يكسبها أو يموت ..

ومن هنا جاءت أهمية المقال عن الأديب الضائع الذى وجد خلاصة فى اعتناق وطنه .

« أما المقال الثانى فهو عن الشاعر والكاتب الايطالى المجهول سيزار بافيسيه Pavese الذى مات منتحرا عام ١٩٥٠ وكانت وصيته هى الصمت .. فقد ترك الى جوار علبة فارغة من الحبوب التى ابتلعها ورقه صغيرة تحمل هذه الكلمات « انى أصفح عن كل الناس كما أطلب منهم الصفح . حسن ! ولكن لا أريد كثيرا من الضوضاء لو سمحتم . »

وبالفعل لم تكتب عنه الصحف والمجلات شيئا أكثر من خبر وفاته . فمات فى صمت كما عاش فى صمت الى أن تذكره جان ـ باتريك مورى Maury المحرر الأدبى بجريدة ماجازين ليتاير بعد ثمانية عشرة عاما من وفاته فكتب هذا المقال تحت عنوان «بافيسيه الرجل الوحيد» ..

وبافيسيه لا يقل أهمية فى رأى مورى عن سارتر أو كافكا من حيث « الاحساس بالعصر ومعاناته » فقد كتب فيسيه قبيل انتحاره بشهور قليلة هذه العبارة : « ان الانسان لا يقتل نفسه من أجل حب امرأة ولكنه يقتل نفسه لأن حبا ، أى حب ، يظهرنا فى عرينا وبؤسنا وعدمنا . »

وعاريا بائسا معدما ضحى بافيسيه بكل شىء .. بالشهرة والمال والجوائز الأدبية .. ضحى بالحياة .. واختار الموت لأن حبا ، أى حب ، دفعه اليه .

ولد سيزار بافيسيه فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٠٨ فى مقاطعة سانتو ستيفانوبتورينو لأب مات بعد ست سنوات وأم مات لها ثلاثة أطفال وأخت فى السادسة من عمرها .. فى هذا الجو الخانق نشأ بافيسيه ، ولكنه ما لبث أن أحس برغبته فى خلق « عالم منعزل » يهرب اليه بعيدا عن الناس . عالم لا تسكنه غير الغابات والنباتات والعصافير ، فلما يئس من العثور عليه لجأ الى الكتب يلتهمها والى نفسه يحاورها .. الى أن خفق قلبه خفقته الأولى .. كانت زميلته المدرسة ، شقراء وجميلة ، اسمها أولجا .. لكنها لم تعره اهتماما .. لم ييأس .. ظل يتبع خطواتها ويتحدث اليها فى عدم وجودها .. حتى فوجىء بها ذات مرة تقبل شخصا آخر فى زورق كان يتهادى أمامه ».. وهنا احس بشىء غريب يزلزل كيانه ويعيد اليه العرى والبؤس والعدم .. يعيده الى « عالمه المنعزل » .. فيهرب اليه من جديد .. يكتب أشعارا عن « الأرض الخراب » التى لم يعرف كيف يعيش عليها .. ويكتب روايات عن « مهنة الحياة » التى لم يعرف كيف يمارسها ... وأخيرا يكتب عن « الانتحار » الذى عرف كيف يحققه بعد محاولات متعثرة هى الأخرى ، بدأت سنة ١٩٢٧ وانتهت مع انتصاف قرننا العشرين ..

وكانت البداية ، هذه الرسالة التى بعث بها الى صديقه الوحيد ستورانى يقول فيها : « لن أكتب بعد ذلك ، فلم تعد لدى القدرة على الكتابة ولم يعد لدى ما أقوله .. وبعد أن كتبت قصيدة « المسدس » لا يبقى غير ترك القلم والقيام بالمحاولة » .

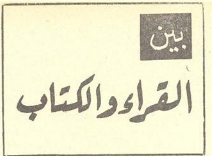
وفى سنة ١٩٣٦ عرف بافيسيه كلمة جديدة هى « الأمل » ظلت فترة طويلة فى مواجهة الكلمة المأثورة لديه وهى « الانتحار » .. كل منهما بمثابة المرآة المصقولة التى يرى فيها نفسه كلما أراد .. ولكنه كان دائما فى صراع بين طرفين أوكان بالأحرى في صراع مع كلا الطرفين .

أما الأمل فقد دفعه الى التعلق براقصة ظنا منه أنها ستمنحه الحب الضائع وتعوضه الأيام الحزينة وتعود به من « العالم المعتزل » « الى المجتمع الصاخب » .. ولكنه سرعان ما يرتطم بجدار الفشل وينظر الى مرآة الانتحار فيرى نفسه متهللة تطلب الخلاص وتتزين له .. فكتب يقول : « الآن أدركت أنه محكوم علي بالتفكير فى الانتحار والاقدام عليه امام اى ضيق أو الم يعترينى . »

لم يجد الخلاص اذن فى الأمل .. ولم يجده لافى الخمر ولا فى السياسة ولا في الدين . كان الشعر مجرد دواء مسكن وأصبحت المرأة عنده مجرد مغامرة ومع هذا باءت كل مغامراته بالفشل .. فلم يعد أمامه غا الانتحار .. فذهب الى أحد فنادق مدينة تورينو حيث ابتلع كمية من الأقراص المنومة .. لينام الى الأبد . غير عابىء باعلى جائزة أدبية فى ايطاليا، وهى جائزة ستريجا Strega فاز بها فى يونيو سنة ١٩٥٠ أى قبل انتحاره بأقل من شهرين.

مات افيسيه ولكن أعماله لم تمت .. صحيح أن أعماله قد صحبها الصمت مثلما صحب حياته وموته على السواء ولكن الصحيح أيضا أن جيلا بأسره تأثر ببافيسيه الكاتب والانسان معا فوصل جيمس ديسن الى قمة القبول قبول بافيسيه ووصل آرثرميللر الى قمةالرفض فرفض بافيسيه ولكن أنطونيونى المخرج السينمائى الشهير حاول أن يوفق بين كلا الطرفين .. فأخذ يعالج « مأساة بافيسيه » معالجة عصرية لأنه أحس ان تلك المأساة .. مأساة والملل والعزلة ثم الانتحار هى مرض العصر وأشد أمراضه خطرا وأكثرها انتشارا .

ومن هنا جاءت أهمية هذا المقال الثانى عن الشاعر الفقيد الذى وجد خلاصة فى الانتحار .. على النقيض تماما من باريس الذى وجد خلاصه ، كما قلنا ، فى الوطن .. بالرغم من أن السأم والملل هما اللذان دفعا الكاتبين معا الى البحث عن الخلاص .. أى خلاص !



لئلا تتمزق القيم الاصيلة في الثقافة العربية

صدر عن دار الكاتب العربي بالقاهرة ، في منتصف هذه السنة ، كتاب في الادب اللاتيني ، على جانب كبير من القيمة والنضج ، من تاليف الدكتور حسن عون ، يتناول لأول مرة في اللغة العربية حيـــاة وشعر الشاعر اللاتيني تيبول .

وتتمثل أهمية هذا الكتاب في أنه دراسة أكاديميـة خلاقة ، أعدت باللغة العربية في فرنسا منذ نحو عشرين سنة، على يدى المستشرق ليفى بروفانسال، تهتم بجماليات النص الشعرى قدر اهتمامها بحقائق التاريخ، ويقف فيها المؤلف موقفا معتدلا يجمع فيه بين العالم الدارس والفنان المتذوق .

ولو أن في بلادنا حركة نقدية يقظة ، لأدركت على التو أن نشر مثل هذا الكتاب حـــدث ثقافي هام ، يجب الاحتفاء به ، ليس على المستوى العربي وحسب ، بل على المستوى العالمي أيضا ، لارتفاع مستوى هذا الشاعر ، وقلة ما كتب عنه في الآداب الاجنبية .

ولما كانت الحركة النقدية في بلادنا نائمة ، بسبب توقف الجيل الأول عن الكتابة ، وسقوط أكثر أعلام الجيل الثاني (صقر خفاجه ـ محمد مندور ـ غنيمى هـــلال) ، وانصراف نقاد الأدب الجديد الى الاعمال الادارية في الثقافة والاعلام ، خلا الجو لأولئك الذين لا يعرفون طبيعة النقــد ووظيفته وأهدافه ، على ضوء احتياجات المجتمع الاشتراكي الثورى ، ويحاولون ـ بقصد وبغير قصد ـ خلط الحابل بالنابل ، وانكار الشمس في ضحاها .

وتطالعنا مقالة فاروق فريد عن كتـــاب « تيبول » . التي نشرت في العدد ١٤١ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٨ من مجلة « المجلة » ، على نموذج من هذه الكتابات ، التي تدعى في مظهرها العلم الغزير والموضوعية ، دون أن تقدر على اثارة قضية واحدة هامة ، يمكن أن تشغل الرأى العـــام، أو تتقدم بالثقافة .

وأول ما يلفت النظر في هذا المقال انصرافه الاكبر الى جملة مآخذ جانبية ، لا تتصل بجوهر الكتاب ، أغـــربها مطالبة حسن عون بأن يصدر رسالته الرئيسية للدكتوراه (وهى في موضوع مختلف تماما) ، بدلا من تلك الرسالة الثانية التي أمكن اخراجها من نطاق الجامعة الى الجماهير العريضة، والتي تقدم عادة تتمة لنيل درجة دكتوراه الدولة.

كذلك من آرائه الغريبة حكمه على ليفى بروفانسال ، الذى عينته السوربون مشرفا لأبحاث الدكتـــور عون في اللاتينيات ، بانه غير متخصص . والحق أن بروفانسال من القلة التي أنتجت بوفرة أبحاثا عميقة في اللاتينيات المتصلة بالبيئة العربية في أسبانيا ، وترجم منها كذلك الى العربية كثيرا من النصوص .

وعن التهكم بأمـانة المؤلف لأنه رفض أن يغير النص القديم أو يعدل فيه ، بعد مناقشته واجازته في فرنسا ، أذكر أن هذا مبدأ سائد في النشر ، لا يسمح لانســان بأدنى تغير في نص فرغ الكاتب منه .

وهذا كله هراء ، لا أريد أن أقف عنده ، بل أنتقل مباشرة الى مسائل أخرى ، ترتبط بتاريخنا السياسي داخل الجامعة ، والحركة الثقافية ، وأخلاقيات الكتابة النقدية .

أخذ الناقد على المؤلف تصديره الكتاب بمقدمة أطلق عليها « للحقيقة والتاريخ » ، عرض فيها تجربته المريرة التي خاضها وحده عقب عودته من البعثة .

وفضلا عن أن هذه المقدمة تطرح وجه الحياة السياسية والاجتماعية في مصر في أعقاب الحرب الكبرى الثانية ، حين كانت أقسام الدراسات الاجنبية ـ القـــديمة والحديثة ـ مقصورة على الأجانب ، لا يستطيع اى طالب مصرى اختراقها، فلا ريب أن كتابا أو رسالة جامعية تعد هاتيك الايام ، ثم تظل مخطوطة لدى صاحبها ، لا يدفع بها الى النشر الا بعد عشرين سنة ، لا بد أن تكتب لها مقدمة طويلة ، يؤرخ فيها هذه الظروف الواقعية ، وهو ما وجد الدكتور حسن عون نفسه مضطرا اليه .

وهذه المقدمة تذكرنا ـ مع الفارق ـ بمقدمة الدكتور لويس عوض لكتابه الضائع « مذكرات طالب بعثة » الذى نشر أيضا بعد عشرين سنة من اعداده .

الا أن أسوأ ما في مقال فاروق فريد اتهامه الســافر للدكتور حســن عون بأنه نقل معظم كتابه من كتاب ماكسى بونتون عن هذا الشاعر ، وهو ليس الكتاب الوحيد الذى اعتمد عليه الدكتور عون ، بل اعتمد كذلك في النصوص والترجمة على مجموعات : بيديه ـ جارنييه ـ ينـــزار ـ بانكوك ـ تويبنير ، الى جانب مجموعات أخرى من المترجمين الانجليز وغيرهم ، وكتب تاريخ الادب اللاتيني .. وهى جميعا التي مكنته من أن يطرق عوالم أخرى في النقد الادبي ، ويحلق في آفاق أوسع .

والغريب أن كل استشـــــهادات الناقد لا تخرج عن تواريخ نظم القصائد ، وطبع الدواوين ، وتنقلات الشاعر.. ولست بحاجة الى القول انها حقائق ثابتة ، يتناقلها الباحثون والمترجمون جميعا ، دون أى اتهام ، ويسلم بها الناقد ، بشرط أن يذكر المؤلف المرجع ، وقد ذكره في الكتاب كثيرا، أوله ما ورد بالسطر الاول من الصفحة الثانية للنص .

ولكن المؤلف أحجم في الحقيقة عن ايراد مراجعــه بالتفصيل ، التي تتعدى أربعين مرجعا لأنه رأى ـ سواء أصاب أم أخطأ ـ ان كتابا يقدم الى الجماهير القارئة يمكن أن يستغنى عن أسماء المراجع التي يصعب العودة اليها .

أما الاختلاف بين ترجمة الدكتور عون والترجمة التي وضعها الناقد ، فليس مردها أن الدكتور عون نقل عن الفرنسية ، بل سببها أنه حين عقد هذه الدراسة كان قد مضى عليه في باريس تسع سنين ، لم يطالع خلالها اللغــة العربية .

ومع هذا فقد استطاع فى هذه الترجمة ، التى ترتفع كثيرا على ترجمة فاروق فريد ، أن يبلغ درجات عالية من التألق والابداع .

ان ترجمة الدكتور عون البسيطة الدالة : « ما قيمة النوم على الحرير بدون أن يسعدنا الحب » ، أبلغ جدا فى أداء المعنى والتعبير الهادىء عنه ، وأوقع فى صوت الكلمات واتساقها ، من ترجمة الناقد : « ما جدوى النوم على سرير من حرير «صور» من غير مزاولة العشق ؟ » .

ذلك أن المعنى الذى تقدمه ترجمته ، بادىء بدء ، يتناقض مع ما عرف عن تيبول :المحب العذرى ، الذى لم يكن يبحث عن العشق المضطرب ، بل عانى منه كثيرا واحتج عليه ، وعاش يحلم بالحب الطاهر والدعة فى ضيعته «بيدوم» .

أضف الى ذلك أن كلمة « مزاولة » هنا كلمة منفرة غير شعرية ، يمجها السمع ، ترتبط فى مفهومنا بأسوأ المعانى ، واقترانها بالعشق يثير المشاعر .

واذا كان الدكتور عون قد أضاف مثلا اسم «آمور» ، وهو غير موجود فى النص اللاتينى ووارد فى النص الفرنسى . فهذا أيضا لا يقطع بانه اعتمد كلية على النص الفرنسى ، بل أفاد منه ، وجعله عنصرا مسعفا ، يساعد على دقة الترجمة ، وهى مسالة مشروعة بين المترجمين .. فضل فيها التصريح ب « آمور » المستتر ، الذى تتضمنه صيغة فعل الامر فى النص الشعرى ، زيادة للايضاح .

وطالما أن الترجمة تتناول نصا واحدا ، فلا مفر من التشابه ، ووقوع الحافر على الحافر .

بقيت كلمة عن الحوار الذى عقد مع المؤلف ، ونشر فى مجلة « الاديب » البيروتية المتخصصة ، قبل صدور الكتاب بسنة ، اذ لم يسلم كذلك من قلم الناقد ، ولم يسلم منه صاحبه ، لأن هذا هو الجزاء العدل لكل من اتصل بالدكتور عون .

لقد اجتزأ الناقد اجابة سؤال عن مدى تعبير هذا الشاعر القديم عن عصره ، ليدلل بذلك على تفاهة الحوار.. ولو أن الناقد كان أمينا لأورد الاجابة كاملة كما ذكرها المؤلف ، ولما وضع حرفى س و ج، غير الواردين فى الكتاب ، لكى يقلل ضمنا من قيمة الحوار، فكشف عن رغبته الجامحة فى اهالة التراب على كل شيء .

كما أنى حين وضعت ، فى مستهل هذا الحوار ، كتاب تيبول » مع ثلاثة كتب أخرى فى المكتبة العربية عن شعراء يونانيين ولاتينيين ، لم أدع أن مؤلفيهم متخصصون ، لينكر الناقد تخصصهم .

نقطة أخيرة أذكرها على عجل ، وهى أن الدكتور عون لو كان حقا من طراز الذين يبحثون عن الشهرة والدعاية ، باستكتاب شهادات حسن السير والسلوك ، كما يزعم الناقد، لما انصرف عن الحياة الثقافية العامة الى الجامعة ، ولما صبر على كتابه المعد عشرين سنة ، الى أن يأتيه بالمصادفة المحضة من يحمل مخطوطه من الاسكندرية الى القاهرة ، لكى تقوم دار الكاتب العربى بنشره .. وقد تم ذلك دون أن يلتقى المؤلف بأحد من المسئولين عن النشر ، ودون أن يضع قدمه فى احدى مبانى وزارة الثقافة ، التى يدور الكتاب بينها ويتقاذفونه .

ان امتهان عمل هام فى ثقافتنا العربية المعاصرة ، مثل كتاب الدكتور حسن عون عن «تيبول» ، ليس قضية أدبية وحسب ، بل قضية قومية ، تتمزق فيها على الملأ القيم الصادقة الاصيلة .

فهل كثير أن أدعو كل مثقف لاستبصارها والدفاع عنها ، من أجل الحفاظ على وجه الثقافة العربية المتقدمة ، التى تقف فى المرحلة الراهنة جبهة قوية ملتزمة ، تقود وتوجه ، وتدفع الى الأمام ؟

نبيل فرج

لا .. بل تعليق ساذج !

فى عدد أغسطس ١٩٦٨ من هذه المجلة كتب السيد الحسانى حسن عبد الله تعليقا على مقالى المعنون « الخط العربى وأثره فى نظرة اللغويين القدامى الى أصوات العلة » المنشور فى عدد يوليو من مجلة «المجلة» والسيد الحسانى فى تعليقه مدفوع بغيرة محمودة على التراث العربى وعلمائنا الأجلاء . غير أن هذه الغيرة أصابتها الحمى فبدا التعليق كله سبا وشتما . وأحب أن أطمئنه الى أن نقدنا لبعض آراء علمائنا القدامى لا يعنى أن كل ما قالوا كان خطلا وأوهاما .

وأول ما يلفت النظر فى التعليق أن السيد الحسانى لم يفهم المقال ، وأنه لا دراية له باوليات علم اللغة الحديث . وآية ذلك أنه لا يتصور كيف يمكن أن تستقل الحركة (أصوات العلة) بالنطق ، وان الامر لا يحتاج الى حنجرة معينة فريدة فى بابها . ولو دخل السيد الحسانى معملا للأصوات ، ودرس هذا الامر الذى يعد الآن من البديهيات ويعده الحسانى « احدى الخوارق ! » ومشكلة المشاكل ، لخجل من أن يعرض جهله هكذا على الجمهور . ولو سال أستاذنا الدكتور ابراهيم أنيس أو أستاذنا الدكتور عبد الرحمن أيوب أو غيرهما لأراحوه من عناء التفكير واتهام الناس بالباطل !

أما نص سر صناعة الاعراب لابن جنى (٣١/١) الذى يقول :«هذه الأحرف اللائى يحدثن لاشباع الحركات لا يكن الا سواكن ، لأنهن مدات ، والمدات لا يتحركن أبدا » فانى أعرفه ، وهو يحمل آية جهل المعلق ، فابن جنى يخلط هنا بين النطق والكتابة حقا ، لأنه يعد الحركات الطويلة حروفا سواكن ، والحركة معناها عدم السكون ، فلا توصف الحركة بأنها ساكنة ، غير أن ابن جنى ينظر الى الخط ، فيرى الألف والواو والياء حروفا ساكنة !

أما اندفاع الحسانى الى تخطئتى فى قولى ان الألف والواو والياء فى الخط العربى لها وظيفة مزدوجة ، وصفة كلامى بانه « غلط غلط غلط ! » فمردود عليه . وآية ذلك اختراع الخليل لرمز الهمزة ليفرق به بين «سأل» و « سال » مثلا . فلعلك تؤمن معى الآن بهذا الازدواج في رمز الألف ؟ ! أما «لا» التى تعدها من الأبجدية قبل الهاء والواو ، فهى بداية لادراك هذا الازدواج • وكان ينبغى عليهم أن يفعلوا مثل ذلك مع الواو والياء حينما يكونان علامتين للحركة الطويلة ، فيقال مثلا : « لو » (lû) و « لى » (lî) .

هذا الى أننى لم أتعرض فى مقالى لأثر الخط فى النحو الا اذا فهم السيد الحسانى من أمثلة الجزم التى ذكرتها أننى أعالج مسائل من النحو . وهو فى هذا معزور لأنه لا يعرف أن هذه المسائل تعالج الآن فى موضوع « علم الابنية » وهو ما يقابل « علم الصرف » عند العرب .

أما كلامى عن نظام المقاطع فى المقال ، واحالتى الى كتابى « لحن العامة والتطور اللغوى » فذلك لأن لى فى هذا الموضوع جهدا خاصا الى جانب جهد الدكتور أنيس . غير أن الحقد أعمى كما يقولون ! وهو الذى جعل الحسانى يصف كتابى بانه مرجع ثانوى !

كلامى عن أثر الخط فى علم العروض واضح لا غموض فيه ، فالعروضيون يعدون الألف فى « لا » مثلا ، مساوية للميم الساكنة في « لم » وشتان ما بينهما يا أخى ! ولعلمك فالمستشرق الألمانى اسمه « ايفالد » لا « أوالد » كما تذكر .

وبعد فهذا التعليق جعلنى أومن من جديد بوجوب مواصلة الكفاح ، من أجل أن تزول تلك الغمامة الكبيرة عن أعين بعض من بقى في الكهوف القديمة ، يكتفون بالسب والشتيمة ، ولا يخرجون ليبصروا النور والضياء !

د٠ رمضان عبد التواب

صورة الغلاف :

تصويرة من مقامات الحريرى :

في أواخر القرن الثالث الهجرى «التاسع الميلادى» دخلت صناعة الورق العالم الاسلامى ، وبدأ من ذلك التاريخ ظهور فن تزيين الكتب بمنمنمات ٠٠٠ وكانت أقدمها تلك التى عثر عليها بالفيوم والأشمونين محملة بتأثيرات بيزنطية وقبطية وحبشية .

لئن كان بعض الغموض يلف منشأ التصوير العربى الاسلامى الا أن ازدهار مدرسة بغداد في القرن الثالث عشر الميلادى يلقى وضوحا على - روائع الفن الاسلامى في هذا المجال .

وقد حظت صفحات كليلة ودمنة ومقامات الحريرى في ذلك العصر بروائع من ابداع هذه المدرسة التى تميزت بصدق التعبير وشحنة الحياة وتصوير الاشياء دون تكلف أو تجميل وغلبة التعبير على الزخرفة .

ومن أبدع مخلفات مدرسة بغداد تلك الصور التى نراها فى مقامات الحريرى ممثلة لقدرة الفنان فى تصوير الجموع وحركتها وفي اضفاء تعبير على الوجوه يتمثل فيه أثر الفن المسيحى السورى وما تلقته العبقرية العربية من طرائق اليونان والايرانين والمسيحين ثم أعادت صياغته واضافت عليه مسحتها •

وتحفل النسخ المتعددة لمقامات الحريرى بعديد من الصور أشهرها المخطوط المحفوظ بالمكتبة الاهلية بباريس من رسم المصور يحيى الواسطى ومخطوط مكتبة فينا ،

غير أن المخطوط المحفوظ بمعهد الدراسات الشرقية بلينجرد اقدم هذه المخطوطات الثلاثة اذ يرجع الى الفترة بين سنة ١٢٢٥ - ١٢٣٥ - ميلادية ، ولوحة الغلاف المأخوذة عن هذا المخطوط تصويرة تمثل أبا زيد السروجى بطل مقامات الحريرى الشهير يلتمس أن يحمل الى سطح السفينة ٠٠٠

وهى حافلة بصدق التعبير التشكيلى وبراعة الاداء والتكوين نابضة بجو ينبىء عن أحداث المقامة التاسعة والثلاثين التى تزينها •

الغلاف الخلفى :

تمثال نفرتارى - معبد رمسيس الثانى « أبو سمبل »

لعل هذا التمثال الذى أقامه نحات معبد رمسيس الثانى هو أروع قطع النحت الماثلة فى مدخل المعبد ٠٠
واسم نفرتارى معناه بالعربية « جميلة أيضا » وقد وفق النحات في التعبير عن جمالها النسائى الباهر في صياغة تشكيلية ناسبت حجارة الجبل فهى تتسم بالقوة وبالمقاطع النحتية الصريحة بينما ينساب فيها نبض كأنه شحنة من الحياة تتمثل في قسمات وجهها وتقاطيع الجسد الذى يختلج برهافة خلف شفافية الرداء الحجرى •

بدر الدين ابو غازى